رحلة في براهين وجود الله

(العقل يشهد... والكون ينطق)

إعداد

أحمد رأفت فيشار

قرأه وقدّم له

د. عطية أبو النور

دكتوراه الشريعة الإسلامية

(كلية دار العلوم- جامعة القاهرة)

قال تعالي:

﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ(٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۚ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٧) ﴾ سورة الروم

تقديـــم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذا كتاب : "**رحلة في براهين وجود الله – العقل يشهد والكون ينطق**" ، وهي رحلة إيمانية تُبرهن – بحق – على وجود الله تعالى، من خلال الاستناد إلى الدليل العقلي، واستنطاق ما في الكون والإنسان من دلائل وبراهين، مما يُرسّخ الإيمان ويُعمّق اليقين بوجود الله رب العالمين، وقد طاف بنا معدُّ هذا الكتاب بين ثلاثة محاور:

الأول: استنباط براهين وجود الله تعالى من خلال التأمل في خلق الإنسان، تلك المعجزة التي تسير على الأرض.

الثاني: استخراج براهين وجود الله تعالى من خلال النظر في عالم الحيوان والنبات.

الثالث: الوقوف على دلائل وجوده سبحانه وتعالى من خلال استنطاق ما في الكون من دقة في التصميم، وجمال في التكوين..

كل ذلك في تسلسل منطقي، ولغة سهلة، وأسلوب شائق، فجزى الله مؤلفه خير الجزاء، وجعل ما قدم في ميزان حسناته، ورزقنا وإياه الإخلاص والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. عطية أبو النور

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الحمد لله الذي أودع في القلوب فطرةً تهدي، وفي العقول نورًا يضيء، وفي الكون آياتٍ ناطقةً لمن أراد أن يبصر ويهتدي.

هذا الكتاب ليس مناظرةً فلسفيةً جافة، ولا تجميعًا لأقوال متناثرة؛ بل هو رحلة صادقة نسير فيها معًا لنبحث عن المعنى الحقيقي للوجود، ونكشف زيف التصورات المادية، ونبيّن أن الإيمان بالله ليس استسلامًا ولا ضعفًا، بل هو انتصار للفطرة، وطمأنينة للعقل، وسكينة للروح.

وأود أن أوضّح منذ البداية أن كل ما ورد فيه من براهين هو ثمرة ما تتبعته وتعلّمته من العالم الجليل الدكتور سامي عامري – حفظه الله – اعتمادًا على كتابيه "**براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم**" و*"**الإلحاد في مواجهة نفسه**"* حيث إن معظم الاقتباسات التي لم أذكر مصدرها صراحةً مستمدة منهما، كما استفدتُ كذلك من كتاب "**منهجية الوصول إلى الحق**" للمهندس محمد شاهين التاعب، وكتاب "**الله يتجلّى في عصر العلم**"، كما أفدتُ كثيرًا من شرح الدكتور أيمن الجمل، الذي كان منذ عامين ولا يزال مرشدًا ومعلمًا لي في هذا الطريق، وإلى جانب ذلك، رجعتُ إلى عدد من الكتب والمقالات العلمية المتخصصة والمصادر الإلكترونية.

لقد جاءت فكرة هذا الكتاب من شعوري بوجود فجوة واضحة بين عامة القرّاء والكتب العلمية الرصينة المتخصصة في الرد على الإلحاد؛ فمع أن تلك الكتب الثمينة عميقة ونافعة، وهي من أعمال العلماء الأجلاء الذين بذلوا جهودًا عظيمة في دراسة هذا المجال، وأنا ناقل عنها أصلاً، فإن الكثيرين من القراء – وأنا واحد منهم – يجدون صعوبة في استيعابها بسهولة فكنت أقرأ بعض الشروح والأمثلة فأشعر بثقلها، وأحتاج إلى إعادة القراءة لفهم المقصود. ومن هنا جاء حرصي على الكتابة بأسلوب مختلف: أقرب إلى الناس، أوضح في الأمثلة، ثم أعرض العمق تدريجيًا بخطوات هادئة يمكن للقارئ تتبعها حتى يصل – بإذن الله – إلى الحقيقة.

إذن، هذا الكتاب ليس مجرد تبسيط سطحي، ولا إغراقا في التجريد الفلسفي، بل محاولة للجمع بين الوضوح والعمق، بين الأمثلة التي تقرّب والبراهين التي تثبّت، ليكون مدخلًا سهلًا لمن يبحث، وجسرًا نحو الكتب المتخصصة لمن أراد التوسع.

وأرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لاستكمال هذه الرحلة إلى نهايتها؛ إذ إن الأفكار لا تتجلّى على وجهها الصحيح إلا باكتمال مسارها، وستظهر — بإذن الله — الصورة كاملة متماسكة، ويتبيّن أن براهين وجود الله بدهية، وأن وجوده جلّ وعلا أمر واضح وجلي، ظاهر لكل ذي بصيرة، كما سيتضح له أيضًا أن أقوى البراهين وأجلّها على وجود الله تعالى مبثوثة في كتابه العزيز، نورًا وهدايةً وحجّةً قائمة على مرّ الزمان.

أما أنا، فلست سوى طالب علم أمام جهود علمائنا الأجلاء، أنقل ما تعلّمتُه بصدقٍ وإخلاص، وأسأل الله أن يجعله نافعًا، فإن نفع الله به عبدًا واحدًا كان ذلك غاية مقصدي.

حفظ الله علماءنا الأفاضل، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فهم كالنجوم نسترشد بها في ظلمات هذا العصر، وهم ورثة الأنبياء، ومنارات للعلم والهداية لكل باحث عن الحق

ولا أنسى أن أرفع يدي شكرًا ودعاءً لوالديَّ، اللذين غرسا في قلبي حب الإيمان، وصدق التعلّق بالله، والسعي للخير... فلكما مني كل البر والدعاء والرضا.

وإلى كل قلبٍ صادق يبحث، وعقلٍ يتفكّر، وروحٍ تشتاق إلى النور... أهدي هذا الكتاب

م.أحمد رأفت فيشار

٢٠٢٦/١/١

الفهرس

الباب الأول: الإنسان... المعجزة التي تسير على الأرض

مقدمة..... ١١

الفصل الأول: خلق الإنسان ينفي العشوائية

- المبحث الأول: من مدخل العقل إلى ورطة الإلحاد ١٢
- المبحث الثاني: الزمن لا يُنتج معجزة – بل يقتلها ١٩
- المبحث الثالث: برمجة بلا مبرمج – الشيفرة الوراثية ٢٨

الفصل الثاني: ما وراء المادة (الإرادة الحرة – العقل – الرحمة – الفطرة)...٤٤

- المبحث الأول: هل تختار بإرادتك؟ إذن أنت لست مادة..... ٤٦
- المبحث الثاني: العقل الواعي..... ٤٩
- المبحث الثالث: إذا كانت المادة لا تشعر – فمن أين جاءت الرحمة؟ ٥٦
- المبحث الرابع: الفطرة – صرخة القلب التي لا تُكذَّب ٦٤

الفصل الثالث: حين يتكامل الخلق ويهتدي من تلقاء نفسه

- المبحث الأول: الزوجية بين الذكر والأنثى ٧٢
- المبحث الثاني: من خلية بلا عقل إلى إنسان مكتمل ٧٥

خاتمة الباب ٨١

الباب الثاني: حين تنطق المخلوقات بالهداية... أدلّة عالم الحيوان والنبات..٨٤

الفصل الأول: فنّ الخداع عند زهرة الأوركيد وزهرة المطرقة وخداع العنكبوت ٨٦

الفصل الثاني: كائنات بلا عقل... وتصرفات تفوق العقل ٩١

الباب الثالث: هذا الكون – دقّة في التصميم وجمال في التكوين

الفصل الأول: بداية الكون – الدليل العقلي والعلمي على الخلق ٩٩

الفصل الثاني: برهان التوافق العقلي للكون

المبحث الأول: كونٌ مفهوم بدقة... وعقلٌ مُبرمج للفهم ١٢٩

المبحث الثاني: الضبط الدقيق للكون ينفي العشوائية ١٤٢

الفصل الثالث: برهان الجمال – من الذي زيّن الكون لذوقك؟ ١٤٨

خاتمة الباب ١٥٤
تعقيب: الإنسان بين مأساة الإلحاد وتكريم الإيمان ١٥٨
التوحيد ضرورة عقلية لا مفر منها ١٧٧
فن التعامل مع الشبهات.....١٨٩
خاتمة الرحلة: البراهين واضحة بين يديك ٢٠٣

***

الباب الأول : الإنسان... المعجزة التي تسير على الأرض

إذا تأملنا في أنفسنا كبشر، نجد أننا أكثر من مجرد أجساد وأعضاء فيزيائية، بل عالم داخلي معقد يفوق أعقد الآلات والأنظمة التي صنعها الإنسان.

داخل كل خلية في أجسادنا، توجد شيفرة وراثية مدهشة(**DNA**) ، كُتبت بدقة متناهية تتفوق على أروع لغات البشر، تحدد شكل الإنسان، وظائف أعضائه، وسلوكه بدقة متناهية.

نجد حياة نابضة انطلقت من خلية واحدة، تتكاثر، تبني، وتوجه نفسها بإتقان عجيب، كأن هناك تعليمات مبرمجة داخلها لا تخطئ ولا تتوقف، ونجد عقلًا واعيًا قادرًا على التفكير، والتحليل، والإبداع، والاختراع، والسؤال عن المعنى والغرض من الوجود.

نجد إرادة حرة تختار وتميّز، تفضّل الصواب حتى لو كان على حساب المصلحة الشخصية.

نجد أخلاقًا فطرية تميز بين الخير والشر، تشعر بالذنب عند الخطأ، تحس بالرحمة، وتنادي بالعدل والإنصاف.

وفي أعماق النفس، نجد نزوعًا فطريًا نحو الله عند الشدائد، وحاجة عميقة للارتباط بالخالق.

كما نجد نظامًا زوجيًا متكاملاً يشير إلى توافق جسدي ونفسي ووظيفي مستحيل أن ينشأ صدفة، وهداية فطرية تفرض على كل خلية أداء وظيفتها بدقة، دون حاجة إلى عقل أو وعي.

هذه الخصائص ليست ظواهر عابرة ولا نتائج مصادفة عمياء، بل شواهد متناسقة تتكامل لتكشف حقيقة واحدة: أن هذا الكائن لم يُترك للعبث، ولم ينشأ من فوضى بلا توجيه، بل خُلق بعناية، وسِيق بنظام، وأُودعت فيه من الدقة والإحكام ما يستحيل معه الصدفة والعشوائية.

فكل جانب فيه — من أدق خلية إلى أعمق فكرة — يشير إلى قصد، وينطق بحكمة، ويشهد بأن وراء هذا الإبداع خالقًا عليمًا أحاط بكل شيء علمًا وأجرى كل شيء بقدر.

في الفصول القادمة، سنستعرض هذه الخصائص واحدة تلو الأخرى، من الشيفرة الوراثية إلى الحياة، ومن العقل إلى الإرادة، ومن الأخلاق إلى الزوجية، ومن الهداية الداخلية لكل خلية، حتى نصل إلى برهان عقلي قاطع يقول بكل وضوح: إنَّ الذي أبدع خلق الإنسان وأحكم صورته هو الله العليم الحكيم، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (سورة السجدة: ٧)

الفصل الأول: خلق الإنسان ينفي العشوائية

المبحث الأول: من مدخل العقل... إلى ورطة الإلحاد

يهدف هذا المبحث إلى توضيح اللوازم العقلية الضرورية للإلحاد؛ فحين ينفي الإنسان وجود الخالق، يلزم من هذا النفي أن يكون الإنسان والكون — بكل ما فيه من نظام ودقة وإبداع — نتاج الصدفة والمادة العمياء.

ولإبراز هذه اللوازم، يكفي أن نعرض مثالًا بسيطًا:

مثال لتوضيح **اللوازم العقلية الضرورية لإظهار أن إنكار الصانع يلزم منه العشوائية:**

تخيّل أنك دخلت غرفة فوجدت فيها لابتوبًا يعمل أمامك :شاشته مضيئة، برامجه تُفتح وتُغلق، وأزراره تستجيب بأدق ما يكون، حينها ستطرح على نفسك سؤالًا لا مفرّ منه: من الذي صمّم هذا الجهاز؟

وللإجابة، لا يملك العقل إلا ثلاثة احتمالات:

١. أن اللابتوب خرج من العدم.

٢. أن مكوّناته تجمّعت عشوائيًا عبر الزمن.

٣. أن هناك مهندسًا عاقلًا صمّمه وصنعه بقصد وإتقان.

الاحتمال الأول: خروج اللابتوب من العدم

ما هو "العدم" أصلًا؟

العدم هو: لا شيء... لا مكان، ولا زمان، ولا طاقة، ولا قوانين، ولا ذرات، ولا حتى إمكانية لحدوث شيء.

فهل يمكن لـ«اللاشيء» أن يفعل شيئًا؟ هل يمكن للعدم أن يُنتج وجودًا؟ هل يمكن للنفي المحض أن يتحول إلى إثبات؟! **كيف يخرج شيء من لا شيء أصلًا؟** هذا تناقض عقلي صريح.

فالعدم — بحكم تعريفه — لا يملك قدرة، ولا إرادة، ولا قانونًا يعمل به، ولا حتى وجودًا ليؤثّر.

ولو صحّ أن اللابتوب خرج من العدم، لانهار أساس العقل كلّه؛ إذ لن يبقى فرق بين أن يظهر لابتوب أمامك الآن، أو هاتف جديد، أو سيارة، أو حتى مدينة كاملة، بلا سبب، من العدم، وفي أي لحظة.

ونحن نعلم يقينًا أن هذا لا يحدث، ولم يحدث، ولن يحدث؛ لأن العقل البشري — منذ وُجد — يعلم ببداهته أن العدم لا يُنتج وجودًا.

وهذا الحكم لا يقرّره العقل وحده، بل يؤكّده العلم كذلك؛ فالعلم كلّه قائم على مبدأ السبب والنتيجة، فإذا جاز أن تظهر الأشياء بلا سبب، بطلت القوانين، وسقط التفسير، ولم يعد للعلم أي معنى.

وفي هذا السياق، يقول الفيلسوف البريطاني "والتر ستيس" في كتابه (تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية): "إن كل من يدرس المنطق **يدرك أن السببية هي أعظم القوانين العلمية**، والركيزة التي تستند إليها سائر القوانين الأخرى. فإذا لم نؤمن بحقيقة أن كل ما بدأ في الوجود لا بد له من سبب، وأن ذات الظروف تؤدي حتماً إلى ذات النتائج؛ **فإن صرح العلوم سيتلاشى على الفور**؛ إذ إن كل بحث علمي، مهما كان، يفترض سلفاً هذه الحقيقة." انتهي [١]

إذن فالقول بأن اللابتوب خرج من العدم ليس تفسيرًا، بل ادّعاءً عبثيًا يصادم بداهة العقل وقواعد العلم معًا.

وبذلك يسقط الاحتمال الأول سقوطًا تامًا، ولا يبقى له أي وزن عقلي أو علمي.

الاحتمال العقلي الثاني: اجتماع العناصر عشوائيًا

إن المنكر لوجود صانع حكيم لا يجد أمام عقله مهرباً إلا هذا التفسير:

"ما دام الصانع غير موجود، فليس أمامنا إلا المادة العمياء؛ وبما أن الطبيعة تحتوي على العناصر الأولية للابتوب، فلا بد أن هذه العناصر قد تجمعت عشوائياً عبر ملايين السنين حتى نتج هذا الجهاز"!

صحيح أن عناصر الجهاز موجودة في الطبيعة: الحديد في الصخور ، السيليكون في الرمل ،البترول في باطن الأرض ، والمعادن الأخرى...

لكن ماذا يلزم من هذا السيناريو؟ يلزم أن ذرات الطبيعة بدأت تتحرك بلا قصد ولا عقل عبر ملايين السنين:

---

[١] Walter Terence Stace: A Critical History of Greek Philosophy ١٩٣٤ p٦

- فالتصقت ذرات الحديد "صدفة" لتكوّن الهيكل المعدني،
- وارتطمت ذرات السيليكون "صدفة" فصنعت شرائح إلكترونية دقيقة،
- وتوافقت هذه الشرائح مع الهيكل "صدفة" في أماكنها الصحيحة،
- وتحول البترول "صدفة" إلى أزرار بلاستيكية مناسبة،
- ثم قرر الرمل — بصدفةٍ جديدة — أن يتحول إلى زجاج ناعم يُصبح شاشة،
- ثم اتحدت جميع هذه العناصر، بلا عقل ولا قصد... لتُنتج جهازًا يعمل بدقة مذهلة!

ولا تنسَ أن هذه العناصر لا يجوز أن تختلط عشوائيًا بكل ما حولها: فالحديد لو ارتبط عشوائيًا بالكبريت أو الكلور أو الصوديوم لنتجت مواد أخرى لا علاقة لها بالجهاز أصلًا.

وهذا بالضبط ما يلزم من القول بأن الطبيعة المادّية العمياء هي التي أنتجت اللابتوب، إذا أُنكر وجود الصانع: مزيج من الذرات بلا عقل ولا قصد... يُفترض أنه أنتج هذا الإتقان والدقة المذهلين!

الاحتمال العقلي الثالث: وجود مهندس صانع

إذا كان اللابتوب منظمًا، يعمل بدقة، وتنفذ برامجه بانسجام، فإن العقل يقود مباشرة إلى استنتاج واحد: لا بد من وجود مهندس عاقل هو الذي صمّمه وبرمجه.

(ملخص :إما أن تكون الطبيعة المادية العمياء العشوائية هي من أنتجت اللابتوب... أو أن عقلًا حكيمًا ومبدعًا هو من صممه وأحكمه.)

وليس سيناريو العشوائية وحده هو المأزق، بل إن المادة نفسها — التي يُفترض أنها تجمعت عشوائيًا — لا يمكن أن تكون أزلية، إذ هي الأخرى جاءت بعد عدم. وهذا ما سنوضحه بإذن الله في الباب الثالث (باب الكون): أن الطبيعة كلها، بما فيها المادة والطاقة والقوانين، لها بداية محددة، وأن الأدلة العقلية والعلمية تثبت أن الكون حادث بعد عدم، وأن العدم لا ينتج وجودًا إلا بخالقٍ عليم حكيم.

مثال ثانٍ لترسيخ فكرة العشوائية ولوازم إنكار الصانع

تخيّل أنك وجدت ساعة رقمية على الأرض، فسأل عقلك مباشرة" :من أين أتت هذه الساعة؟"

هنا أمامك احتمالان عقليان فقط:

١- العشوائية المطلقة:

المنكر لوجود صانع سيضطر لتفسير الساعة بأن الطبيعة، بكل ما فيها من بلاستيك وزجاج ودوائر إلكترونية، قد اجتمعت عشوائيًا لتكوّن الساعة.

وفق هذا السيناريو، ذرات البلاستيك والزجاج والمعادن اجتمعت بالصدفة، ثم "اختارت" المواد بعضها بعضًا مع مرور الزمن، حتى اصطفّت أجزاء الساعة في ترتيب غريب ومعقد، فتظهر الساعة بالشكل النهائي وتعرض الوقت بدقة مذهلة!

٢ – أو أن هناك من صمّمها، وركّب أجزائها، وبرمجها، لتعمل وتعرض الوقت بهذه الدقة.

(يتضح من هذا المثال اللزوم العقلي الضروري لإنكار وجود عقل ذكي صمّم الساعة.)

ومن هنا ننطلق ونسأل: كيف وُجد الإنسان؟

ليس أمام العقل إلا ثلاثة احتمالات رئيسة للإجابة:

١. أن الإنسان خرج من العدم (اللاشيء).

٢. أن ذرات المادة الأرضية وعناصرها اجتمعت عبر الزمن بطريقة عشوائية بلا قصدٍ ولا وعي، لتكوّن الإنسان (أي نتاج الطبيعة المادية العشوائية)

٣. أن هناك خالقًا عظيمًا خلق الإنسان عن قصدٍ وأحكم بناءه بدقة وإتقان.

المؤمن بطبيعة الحال يختار الاحتمال العقلي الثالث: الاعتراف بوجود خالق حكيم، أمّا الملحد فبما أنه يرفض هذا الاحتمال، والعدم —كما بيّنا — مستحيل، فلا يبقى أمامه سوى الاحتمال الثاني: أن الإنسان نتاج الطبيعة المادية العشوائية، أي أن ذرات الأرض وعناصرها جمعت نفسها عبر الزمن بطريقة عشوائية لتكوّن الإنسان.

وبدايه نقول : إن العناصر المكوِّنة للجسم المادي للإنسان موجودة جميعًا في تربة الأرض، وهذا ما سنفصله الآن ليكون مدخلًا لانطلاقنا إلى البراهين المذهلة في خلق الإنسان.

فلو حللنا جسم الإنسان سنجده في النهاية، بكل أعضائه وأجهزته الدقيقة، مكوَّن من نفس العناصر الموجودة في تراب الأرض: الكربون، والأكسجين، والهيدروجين، والنيتروجين، والفسفور، والكالسيوم... وهي ذاتها العناصر التي تتكوّن منها الصخور والتربة والماء والنباتات، وهذه ليست فكرة نظرية، بل حقيقة علمية أثبتتها التحاليل الكيميائية الحديثة، فالعلماء في مجالات الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية وعلوم الأرض يؤكدون أن جسم الإنسان مكوَّن من نفس العناصر التي تتكوّن منها مادة الأرض.

فالحديد الذي يجري في دمنا أصله من الحديد الموجود في الأرض، امتصّته النباتات من تربتها، ثم وصل إلينا عبر الغذاء، والكالسيوم الذي يبني عظامنا جاء من معادنها، والأكسجين والهيدروجين اللذان يشكّلان الماء في أجسامنا من هوائها ومائها خرجا، وإليها يعودان.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، فقد أثبت العلم أن الماء عنصرٌ أساسي في تكوين الكائنات الحية، وأن الحياة لا تقوم بدونه، كما أن العناصر التي تقوم عليها أجساد الكائنات—كالكربون والهيدروجين والأكسجين—هي عناصر موجودة في أصلها في الأرض، ومنها تتكوّن أجساد جميع المخلوقات.

بل إن التحليل الطيفي والمجاهر الذرية تمكّنا من تتبّع أصل الذرات في أجسادنا، ليؤكد العلماء أن كل ذرة في الإنسان يمكن ردّها إلى **مادةٍ أرضيةٍ موجودة منذ نشأة الكوكب**، وبعد الموت، تعود هذه العناصر إلى أصلها الأول: إلى التربة من جديد. وهكذا تستمر دورة المادة التي خلقها الله لتدلّ على وحدتها في الخلق، واختلافها في الصورة.

ولا يقتصر الأمر على العلم وحده، فالقرآن الكريم أخبرنا بذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢) ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الكهف: ٣٧)

والقرآن هنا دليل حاسم، إذ لو لم يكن الإنسان في أصله مكوَّنًا من عناصر الأرض، لكان العلماء المعاصرون، من غير المسلمين، قد اعترضوا على هذه الآيات. لكن الواقع أن العلم الحديث يؤكد اليوم، بأدق الوسائل التقنية، نفس الحقيقة التي بيّنها الوحي.

وبعد عرض هذه الأدلة، تترسخ أمامنا النقطة الجوهرية والحقيقية في الفكر الإلحادي: إن الإنسان في نظرهم ليس إلا "نتاجاً لمادة الأرض"، وأن ذراته — من الكربون والهيدروجين والأكسجين وغيرها — ليست سوى عناصر صماء **تجمعت عشوائياً عبر ملايين السنين، بلا قصدٍ يحركها، ولا وعيٍ يوجهها**، لتكون في النهاية هذا الكائن الحي المعقد!

ويقرّ أئمة الإلحاد بأن الإنسان مكوَّن من مادة الأرض، وأنه بالنسبة لهم ليس أكثر من مادة اجتمعت عشوائيًا وتفاعلت كيميائيًا. ومن هؤلاء، ستيفن هوكينج، الذي قال: *"الإنسان ليس*

*سوى **وسخ كيميائي** على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم عادي في الضواحي الخارجية لأحد المجرات بين مائة مليار مجرة*[٢]"

ويُظهر كلام هوكينج كيف ينظر الإلحاد إلى الإنسان على أنه مجرد تفاعلٍ كيميائي عشوائي بلا روحٍ ولا معنى، كأنه صدفةٌ حدثت في كونٍ بلا هدف.

يقول الفيلسوف الملحد برتراند راسل واصفًا حقيقة النظرة الإلحادية للإنسان:

"الإنسان نتاج أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنهاية التي تسعى إليها؛ فأصله ونماؤه وآماله ومخاوفه وحبّه ومعتقداته، كل ذلك ليس إلا نتاجًا **لتواطؤٍ عرضيٍّ للذرات**... وقد قُدِّر له الفناء بفناء النظام الشمسي، ولا بدّ أن يُدفن المعبد الكامل لإنجازات الإنسان تحت حطام كونٍ منهار[٣].

ببساطة، وفقًا لأقوالهم، الإنسان مجرد تراكم وتفاعل ذرات بلا قصد أو وعي أو معنى أو هدف.

الاحتمال العقلي الثالث والأخير :الإنسان كيان شديد التعقيد في تركيبه ووظائفه، من خلايا لا تُرى بالعين إلى أجهزة تعمل بتناسق دقيق يفوق أي نظام بشري، هذا التعقيد المنضبط لا يُفسَّر بعشوائيةٍ صماء، بل يدل بالضرورة على وجود خالقٍ حكيمٍ عليمٍ أبدعه بهذا الإتقان، وهذا ما سنناقشه بإذن الله في المبحث القادم.

خاتمة المبحث : بعد أن عرضنا التركيب المادي لجسم الإنسان وتحدثنا عن أجزائه، ورأينا أن كل ذلك — في نهاية التحليل — مكوَّن من نفس عناصر الطبيعة، أي تربة الأرض والماء والهواء، وأصبح واضحًا لنا أيضا مفهوم العشوائية الذي يقصده الملحد عند الحديث عن "الطبيعة المادية العشوائية."

وبناءً على هذا التصور، يرى الملحدون أن الإنسان، وجميع الكائنات الحية، وحتى النبات، نتج عن تجمع ذرات المواد الأساسية الموجودة في التربة والماء والهواء —كالكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والنيتروجين، والمعادن الأخرى — اجتمعت بطريقة عشوائية، لتتشكل بهذه الدقة المعجزة.

---

[٢] (Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, ١٩٩٥)

[٣] *(Bertrand Russell, Mysticism and Logic, cited in Mary Poplin, Is Reality Secular?, InterVarsity Press, ٢٠١٤, p.٤٥)*"

وعليه، نكون أمام نقطة حسم عقلية حقيقية، إذ لا يوجد أمام أي عقل إلا احتمالان لا ثالث لهما:

١. الاحتمال الأول :أن ذرات ميتة، عمياء، بلا قصد، اجتمعت مع الوقت لتنتج أعظم كائن على وجه الأرض، وهو الإنسان، بكل دقته وتعقيده.

٢. الاحتمال الثاني :أن هناك خالقًا حكيمًا، هو الذي أتقن خلق الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وجعله مكرَّمًا، عاقلًا، ومختارًا.

وبذلك نكون قد أنهينا هذا التمهيد العقلي، وفي المبحث القادم، إن شاء الله، سنفند هذا الزعم، ونجيب عن الأسئلة الجوهرية: هل فعلًا الذرات العمياء قادرة على الخلق؟ وهل الصدفة وحدها تستطيع أن تنتج كائنًا معقدًا مثل الإنسان؟!

***

المبحث الثاني: الزمن لا يُنتج المعجزة... بل يقضي عليها

بعد أن بيّنا أن البديل الوحيد للإيمان بوجود خالق، عند الملحد، هو افتراض أن ذرات الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والكالسيوم، وسائر العناصر الموجودة في الأرض قد اجتمعت وحدها — بلا عقل ولا هدف — وعلى مدار ملايين السنين لتكوّن الإنسان، يبقى السؤال: هل هذا ممكن عقلًا؟

هل يمكن لهذه الذرات الصمّاء أن ترتّب نفسها بنفسها لتصنع كائنًا حيًّا؟ وليس أي كائن، بل الإنسان: أرقى وأعقد الكائنات التي نعرفها.

فلنقرب الصورة قليلًا :الإنسان ليس مجرد كومة لحم، بل منظومة متكاملة بالغة التعقيد. من الخارج قد يبدو بسيطًا: عينان، أنف، أذنان، يدان ورجلان ...لكن عند الغوص في داخله، نكتشف أنه أشبه بـ«مجرة بيولوجية» هائلة من الأنظمة الدقيقة المتناسقة، حيث كل جزء مرتبط بالآخر بدقة مدهشة:

- الجهاز العصبي :شبكة كهربائية–كيميائية مذهلة، تمتد في كل أركان الجسد. فيه مئات المليارات من الخلايا العصبية (النيورونات)، كل خلية منها متصلة بآلاف الوصلات، تنقل الإشارات بسرعة هائلة، لتنسق بين الأعضاء والعضلات والحواس. لولا هذا الجهاز ما استطاع الإنسان أن يتحرك أو يشعر أو يستجيب لأي مؤثر.

- الجهاز الدوري :القلب يضخ حوالي ٧٠٠٠ لتر دم يوميًا، والدم يسري عبر شبكة أنابيب (شرايين وأوردة) طولها ١٠٠ ألف كيلومتر.
- الجهاز الهضمي :يهضم، ويمتص، ويفرز، وينظم ملايين التفاعلات الكيميائية يوميًا، مع بكتيريا نافعة تعمل في تناغم مدهش.
- الكبد :أكثر من ٥٠٠ وظيفة حيوية؛ منها تنقية السموم، وتخزين الفيتامينات، وتصنيع البروتينات، وتنظيم السكر.
- الكُليتان :ترشّح حوالي ٥٠ جالون دم يوميًا، وتستخرج السموم وتعيد امتصاص العناصر المفيدة.
- العين :تحتوي على أكثر من ١٠٠ مليون خلية ضوئية، تتعامل مع الضوء واللون والحركة والعمق، وترسل إشارات دقيقة إلى المخ باستمرار.
- الدماغ :أعظم أعجوبة في جسد الإنسان؛ مركز القيادة والتحكم، يضم شبكة مذهلة من الخلايا العصبية، يُقدَّر عددها بما يزيد عن ٨٠–١٠٠ مليار خلية. كل خلية منها متصلة بآلاف المسارات، لتشكل معًا مليارات المليارات من الروابط العصبية. هذا العضو العجيب هو المسؤول عن التفكير، والذاكرة، وتنظيم كل حركة لا إرادية وإرادية في الجسم. إنه أعقد من أي حاسوب صنعته البشرية، ومع ذلك يعمل بلا انقطاع منذ لحظة الولادة وحتى آخر العمر.
- الـ **DNA**:شريط تعليمات مذهل بطول ٣ مليارات زوج قاعدي، ولو طُبع هذا الشريط لملأ عشرات المجلدات، والأعجب أن كل خلية من خلايا جسمك تحتوي على نسخة كاملة من هذا الشريط المعجز! (وسنشرح الإعجاز الكامن فيه في المبحث القادم بإذن الله).

وكل هذه المنظومات تعمل معًا في وقت واحد، بلا فوضى ولا تصادم، وفي تنسيق كامل يبهر العقول.

فأي عقل يقبل أن ينسب كل هذا الانسجام والإبداع إلى الصدفة والزمن الأعمى؟

مثال اللابتوب (جهاز كمبيوتر) :

أود أن أوضّح أمرًا مهمًّا: حين أضرب المثل باللابتوب أو الساعة أو أي اختراع بشري، فالقصد ليس مجرد تشبيه عابر، بل بيان اللوازم العقلية القطعية لإنكار وجود الصانع، حتى تترسخ لدى القارئ الصورة الحقيقية — والقبيحة — لنتيجة هذا الإنكار.

فمن ينكر الخالق لا يبقى أمامه إلا احتمال واحد لا ثاني له: أن المادة العشوائية ـــتطورت مع مرور السنين ـــ رتّبت نفسها بنفسها، وكتبت المعلومة، وهندست الأعضاء، وصنعت الكائنات الحيّة! ولا يوجد احتمال عقلي آخر؛ لأن العدم المحض لا طبيعة له ولا قدرة، ولا يمكن أن يُنتج وجودًا، وهذا بدهيٌّ لا يختلف فيه اثنان: كيف يخرج الشيء من «لا شيء» أصلًا؟!

قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥.)

وسيأتي ـــ في الباب الثالث «الكون» ـــ بإذن الله، أنه لا يتعلق الأمر بالإنسان وحده، بل بالوجود كله؛ فالكون نفسه، بكل ما فيه، له بداية، وسنثبت بالأدلة العقلية والعلمية أن هذا الكون لا يمكن أن يخرج من العدم، بل لابد له من خالق عليم حكيم، وبالتالي فإن فرضية «العشوائية» ستنهار هي الأخرى، غير أننا سنجاريها قليلًا الآن لنُبيّن بوضوح النتيجة العبثية التي تقود إليها.

ونعود الآن إلى مثال «جهاز الكمبيوتر...« فلنتخيّل إذن: ذرات السيليكون، والحديد، والنايلون المبعثرة في الطبيعة قررت فجأة أن تتجمع بالصدفة لتُكوّن جهاز كمبيوتر كاملًا:

- شرائح دقيقة ودوائر متصلة بترتيب هندسي.
- هيكل متماسك، لوحة مفاتيح، وشاشة مضيئة.
- ثم تعمل كل هذه المواد العمياء معًا وتنفّذ الأوامر!

هل يقبل عاقل أن يحدث هذا؟ بالطبع لا.

فإذا كان من المستحيل أن يُنتج اللابتوب من المادة والزمن وحدهما، فكيف يقبل العقل أن يُنتج الإنسان – وهو أعقد آلاف المرات – من ماده الأرض؟

الإنسان الذي صمّم اللابتوب لا يُقارَن أصلًا بتعقيد خلية واحدة من خلاياه؛ فالخلية الواحدة تحمل تعليمات أعجز من أي برنامج بشري، وأدق من أي نظام هندسي.

إذن: من يرفض أن يتكوّن جهاز بالصدفة، فمن **باب أولى** يرفض أن يتكوّن الإنسان بلا خالق.

ثالثًا: هل الزمن هو صانع المعجزات؟

الجواب المعتاد من الملحد غالبًا يكون: "أنا أُقرّ بأن الإنسان كائن شديد التعقيد، ومن الصعب أن تنشئه المادة العشوائية، لكنك تغفل أمرًا مهمًا: نحن لا نتحدث عن لحظة واحدة، بل عن ملايين السنين! فالزمن، مع المادة العشوائية، هو الذي صنع كل ذلك".

لكن ينبغي أن نكون صريحين :الزمن ليس صانع معجزات ، فالزمن ليس عقلًا يُفكّر، ولا يدًا تبني، ولا إرادة تُخطّط، إنما هو مجرد وعاء تجري فيه الوقائع، لا فاعل يُنشئ شيئًا من العدم أو يُرتّب العناصر في نظام معقّد.

لنأخذ مثالًا بسيطًا: لو وضعنا رملًا وحديدًا وخشبًا في صحراء واسعة، وتركناها لمليون سنة، فهل سنعود لنجدها قد تكوّنت وحدها إلى بيت من طابقين؟ !أم أن العكس هو الصحيح؟

في الواقع، الرياح والحرارة والتآكل والعوامل الطبيعية لا تبني بيتًا، بل تدمّر أي بناء قائم.

إذن:

- الزمن لا يبني، بل يهدم.
- الزمن لا يُنظّم، بل يُفسد التنظيم.

وهذا ليس رأيًا دينيًا أو فلسفيًا، بل حقيقة علمية قاطعة يؤكدها القانون الثاني للديناميكا الحرارية.(**Second Law of Thermodynamics**) هذا القانون ينص باختصار:(في أي نظام مغلق، تزداد الفوضى (الانتروبيا (**Entropy**) مع مرور الزمن، بينما تقلّ الطاقة القابلة للاستخدام) أي أن الأنظمة المعقدة تميل دائمًا إلى التفكك والانهيار، لا إلى التنظيم والبناء.

وبالتالي: أي نظام تُرك وحده مع الزمن، فإنه سينهار حتمًا: البيوت تنهار، الأجهزة تتعطّل، الحديد يصدأ، الكائنات تهرم وتموت، النجوم تفقد وقودها شيئًا فشيئًا فتخبو وتبرد، ومنها الشمس التي تبث الضوء والحرارة لكنها في النهاية تسير نحو النفاد وهو نفس القانون الذي يفسِّر لماذا يبرد كوب الشاي الساخن مع مرور الوقت، حتى تتساوى حرارته مع حرارة الغرفة، ولا يمكن أن يزداد حرارةً وانتظامًا من تلقاء نفسه.

إذن نحن أمام قانون كوني صارم: الزمن عدو النظام والتعقيد، لا شريك في بنائه.

يؤكد الفيزيائي النظري بول ديفيز(**Paul Davies**) :

"القانون الثاني للديناميكا الحرارية لا يقتصر على الأمور الهندسية، بل هو قانون أساسي للطبيعة".انتهي

ولهذا نقول: إن اعتماد الملحد على الزمن كحجة في خلق الكائنات المعقدة هو وهم علمي وعقلي كبير.

فالزمن في ذاته لا يخلق، بل يهدم؛ لا يُنظّم، بل يُفكّك.

خدعة الملاحدة أنهم يعلمون أن قولهم: «الذرات اجتمعت فجأة وخلقت إنساناً» يبعث على السخرية، فغيّروا العبارة وقالوا: «لم يحدث فجأة، بل اطور على مدار السنين.« لكن الحقيقة أن هذه السنين تجعل الأمر أكثر استحالة؛ لأن كل نظام، مهما كان بسيطًا، إن تُرك وحده دون عقل يوجّهه أو إرادة تُنظّمه، فإنه يتفكك ويضمحل، ولا يكتمل:

- الحديد مع مرور الزمن يصدأ، لكنه لا يصنع شيئًا؛ فالزمن يفسده ولا يمنحه قدرة على الإبداع.
- تراب الأرض مع الزمن لا يتحوّل إلى كائن حي، بل يتفتّت أكثر فأكثر حتى يصير غبارًا تذروه الرياح.

فالعوامل الطبيعية — —كالرياح والمياه والحرارة — لا تملك قدرة على "الإبداع"، بل هي أدوات "تفكيك"؛ تُحوّل المادة الصلبة إلى فتات متناثر. فلو تركت بيتاً من الطوب والإسمنت لعوامل الزمن، فلن يتحول إلى قصر، بل سيستحيل ركاماً وغباراً. فكيف نُصدّق إذن أن ماده الأرض الصمّاء صنعت بالصدفة أعقد كائن في الوجود؟!

يؤكد عالم الفلك الشهير فريد هويل (**Fred Hoyle**)هذا الاستحالة بمثاله الساخر والقوي: "إن احتمال نشأة الحياة من المادة غير الحية، يشبه احتمال تكوين طائرة بوينج ٧٤٧ بفعل إعصار عَصَف بمقلب قمامة!"[٤] انتهي

وهذا ما ينسجم مع الحقيقة القرآنية التي يراها الإنسان كل يوم، حيث يقول الله عز وجل : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥)

هذه الآية تذكّر الإنسان بحقيقة يراها كل يوم: أن النبات، وسائر مكوّنات الطبيعة، إن تُركت للطبيعة وحدها ومع مرور الزمن، لا تزداد إلا هُشاشة وضعفًا حتى تصير هشيماً تذروه الرياح.

فهذا هو سلوك الطبيعة :تهدم ولا تبني، وتفسد ولا تصلح ، وعليه فالزمن جزء من مسار الانحدار، لا سبب من أسباب البناء.

---

٤ Fred Hoyle: The Intelligent Universe , ١٩٠-٩١

فليس الزمن هو صانع المعجزات، بل هو الشاهد على انهيارها إذا تُركت بلا حفظٍ ولا عنايةٍ ولا توجيه.

وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى مختبرات ولا معادلات معقّدة، وليست استنتاجًا خاصًّا بالفيزيائيين وحدهم، بل هي واضحة مبثوثة أمام أعين الناس في كل ما حولهم: فكل ما يُترك للوقت وحده يفسد، ولا شيء في الكون ينتظم أو يتعقّد من تلقاء نفسه، إلا بتدبيرٍ وغيبٍ من خارج الكون، وهو ما يدل على وجود خالق.

ولذلك فإن الزعم بأن الزمن قادر على أن يُنشئ التعقيد والنظام ليس إلا خداعًا علميًّا صريحًا، ومخالفةً واضحة لأحد أعظم القوانين الفيزيائية التي تحكم الكون كله.

(وسيعود معنا القانون الثاني في مواضع أخرى من هذا الكتاب، ليظهر بوضوح أكبر كيف يستحيل مع الزمن نشوءُ أي نظام معقد دون خالق مريدٍ عليم).

سرّ الحياة... اللغز الذي لم يُفكّ

والأعمق من مسألة «الزمن» التي يلوّح بها الفكر المادي، هو السؤال الأعظم الذي يتجاوز الزمن والمادة والصدفة كلها:

من أين جاءت الحياة أصلًا؟ إن ظهور الحياة على الأرض ليس مسألة تراكم سنوات، ولا نتيجة طبيعة عمياء، بل هو قفزة وجودية عجز العلم والفلسفة إلى اليوم عن تفسيرها:

- كيف ظهر أول كائن حي؟
- كيف وُلِد "الحَيّ" من "الميّت"؟
- كيف تحوّلت جزيئات ميتة لا وعي لها ولا إرادة... إلى كائن حي قادر على النمو والتكاثر؟

هذه ليست خطوة بسيطة في سلسلة أحداث، بل أعظم معجزة في عالم الأحياء.

فالزمن لا يخلق حياة، والمادة العمياء لا تعرف سرّ الحياة، والصدفة لا تملك القدرة على ترتيب ملايين العمليات الحيّة المتزامنة في لحظة واحدة.

إنك تستطيع أن تخلط التراب بالماء وتعرضه للشمس ملايين السنين، ومع ذلك لن ترى دودةً واحدة تظهر منه تلقائيًا.

لماذا؟ لأن الحياة ليست مجرد تركيب كيميائي، بل نظامٌ مركّب، وشفرة، ومعلومة، وتنظيم ذاتي، وإصلاح ذاتي، وآلية نسخ، ومراقبة ،وتكاثر...

وهذه كلها لا توجد في المادة الميتة بأي صورة.

وفي هذا السياق، يضعنا العالم الكبير (فرانسيس كريك) -الحاصل على جائزة نوبل والمكتشف المشارك لبنية الـ **DNA**- أمام الحقيقة المذهلة، حيث يقول في كتابه (الحياة نفسها): "ليس بوسع إنسان أمين، مُسلَّح بكل المعرفة المتاحة لنا الآن، سوى القول: إنَّ نشأة الحياة تبدو أشبه بالمعجزة؛ فكثيرة جداً هي الظروف التي كان ينبغي توفرها وانضباطها بدقة من أجل السماح بنشأة الحياة .« ٥انتهي

ولهذا كانت الحياة سراً أعظم، وبرهاناً باهراً لا يملكه إلا الله وحده، فهو الذي يمنح الوجود للمادة الصماء، ويودع فيها روح الحياة، كما يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥)

إنها صورة يشاهدها الإنسان كل يوم: حبّة جامدة مدفونة في التراب، فإذا ما أصابها الماء دبّت فيها الحياة، فتشقّ الأرض، وتخرج جذورًا وساقًا وأوراقًا وثمرًا.

فمن الذي أودع في هذه الحبة الضعيفة قوة الحياة، مع أنها لا تملك شيئًا من نفسها؟

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)

الحياة كلها سرٌّ إلهي؛ لو اجتمع البشر كلهم على أن يخلقوا ذبابةً —— وهي من أصغر المخلوقات —— لعجزوا ،فكيف بخلق إنسان كامل؟!

ومن هنا نصل إلى واحدة من أعظم آيات الله في عالم الأحياء : **الخلية الحية... أعجب مصانع الكون**

الخلية الحية هذه الوحدة الدقيقة، التي لا تُرى بالعين المجرّدة، تحمل بداخلها منظومةً أعقد من أي مصنع ضخم في العالم:

Francis Crick, Life Itself (New York: Simon and Schuster, ١٩٨١), ٨٨٥

- النواة (مركز القيادة) :هي "خزنة" المعلومات الهائلة، تحفظ داخلها الشريط الوراثي (**DNA**) الذي يحتوي على تعليمات بناء كل ذرة في جسمك؛ كأنها مكتبة كونية لا تقدر بثمن.
- الميتوكوندريا (محطات التوليد) :هي مراكز الطاقة التي لا تهدأ، تحوّل الغذاء والأكسجين إلى "وقود حيوي" يمدّ الخلية بالقدرة على الحركة والاستمرار.
- الريبوسومات (خطوط الإنتاج) :آلات دقيقة تعمل كالمترجم، تقرأ شيفرة النواة لتصنع "البروتينات"؛ تلك اللبنات العظيمة التي تبني الجسم وتصلحه وترممه بلا توقف.
- الشبكة الإندوبلازمية وجهاز جولجي (شبكات الشحن والاتصالات) :أنظمة نقل وتغليف ذكية تنقل الأوامر والمواد داخل الخلية بدقة مذهلة، وكأنها أسرع وأدق بريد لوجستي في الوجود.

وكل ذلك يعمل بتناغم فائق لا ينقطع، منذ اللحظة الأولى لتكون الجنين في رحم الأم، وحتى آخر نفس في عمر الإنسان. إنها ليست مجرد نقطة مجهرية، بل هي معجزة حية ناطقة، تشهد على عظمة الخالق الحكيم الذي أبدع كل شيء خلقه.

يكفي أن تعلم ان الخلية الواحدة في جسمك تقوم بآلاف التفاعلات الكيميائية في الثانية الواحدة، وكل تفاعل منها يحدث في مكانه وزمانه الصحيح دون خطأ واحد.

ولئن كان هذا الكتاب لن يتوسع في تفاصيل الإعجاز الطبي، فلا ينبغي أن نمرّ مرور الكرام على أعجب ما في الخلق :الشفرة الوراثية.(**DNA**) هذا الكتاب العجيب الذي أودع الله فيه سرّ الحياة، فجعله مكتوبًا بأربع "حروف" فقط، هي القواعد الأساسية: (A, T, C, G) — وهي اختصار لمركبات كيميائية بسيطة— ومع ذلك تنتظم بهذه الحروف القليلة لتكوّن تعليمات دقيقة تتحكم في بناء الكائن الحي، من أول خلية إلى أدق تفصيل فيه.

إنها مكتبة هائلة داخل كل خلية، لو فُكّت رموزها لملأت آلاف المجلدات.

وقبل الدخول في المبحث الثالث، لابد أن أوضّح نقطة محورية جدًا.

وهي سببٌ آخر جعلني أبدأ الفصل الأول بالأمثلة: عندما نقول إن الساعة يستحيل أن تتكوّن عشوائيًا، فالكلام هنا ليس عن شكل ساعة ولا عن قيمة صناعتها، بل عن عجز الطبيعة ذاتها— عجز المادة والطاقة—عن إنتاج أي شيء منظم من الأساس *بدون تدخل صانع*.

فالهواء، والماء، والتراب، والحرارة، والضوء، والكواكب، والنجوم... كل أشكال المادة والطاقة التي أمام أعيننا نعرف سلوكها الفيزيائي جيدًا: إنها لا تصمّم شيئًا، لا تبني نظامًا، لا ترتّب أجزاء، لا تهندس شكلًا، لا تكتب معلومة، ولا تُنشئ أي منظومة من تلقاء نفسها. ولذلك: إذا كانت الطبيعة عاجزة تمامًا عن تكوين ساعة، أو بيت، أو أي اختراع بشري بسيط...فإن عجزها عن تكوين الكائنات الحيّة من باب أولى.

وهنا نطبق قاعدة "الاستدلال بالأَوْلَى"، وهي من أرسخ المبادئ العقلية التي لا يختلف عليها ذو عقل في شؤون الحياة كلها؛ فإذا كان العقل يحكم باستحالة أن تبني الطبيعة "ساعة" أو "بيتاً"، فإن حكمه باستحالة بنائها لـ "إنسان" هو من باب أَوْلَى وأوجب.

لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ فالطبيعة المادية التي تقف عاجزة أمام تركيب ساعة بسيطة، كيف تملك فجأة القدرة على بناء "عين" تبصر، أو "قلب" ينبض، أو "جنين" كامل يتخلق من نطفة؟! وكيف تتحول المادة الجامدة التي نعرف ركودها وثبات خصائصها إلى "مصنع للحياة" يخرج الحي من الميت؟!

***

المبحث الثالث: برمجة بلا مبرمج؟! الشيفرة الوراثية تُجيبك

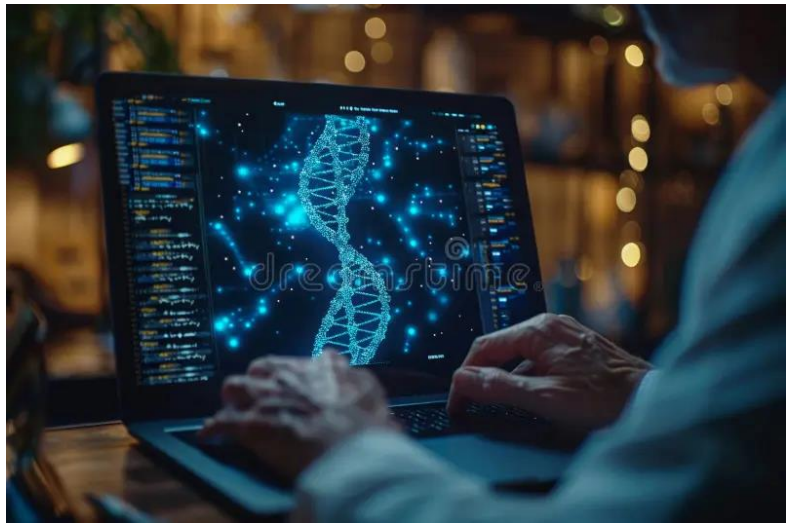

الشيفرة الوراثية الموجودة في الخلية أعقد من أي كود برمجي صممه البشر، ولا نعرف أيه طريقة طبيعية تستطيع إنتاج مثل هذا النظام المعقّد — ".بول ديفيز، عالم الفيزياء النظرية

الشيفرة الوراثية هي التعليمات المبرمجة في **DNA** لكل خلية، والتي تحدد نمو الكائن الحي ووظائفه وصفاته الوراثية.

من اللابتوب إلى أعظم برنامج وراثي في الكون

في المبحث السابق تناولنا التعقيد المذهل لجسم الإنسان، وكيف أن سلوك الطبيعة وحده لا يستطيع إنتاج هذا النظام المعقّد، ورأينا أن مجرد تجمّع أجزاء الجسم — بعشوائية ودون خالق — أمر مستحيل، لأن الزمن في ذاته عدو للنظام، والأنظمة المعقدة تنهار مع مرور الوقت كما هو معروف علميًا.

لكن التعقيد في الإنسان لا يقتصر على جسده المادي فقط، بل يمتد إلى ما هو أعظم : البرنامج الداخلي الذي يحكم كل خلية، أي الشيفرة الوراثية**DNA** ، أعقد نظام تشغيل عرفه الكون كله.

لتوضيح الفكرة، يمكننا التفكير في مثال مألوف :الكمبيوتر .لو فتحنا اللابتوب واشتغل، فنسأل طبيعيًا: من كتب نظام التشغيل؟ ومن كتب البرامج مثل الوورد، والإكسل، والفوتوشوب؟ من كتب الأكواد التي تجعل كل شيء يعمل بتناغم ودقة؟ هل يمكن أن تتجمّع هذه الأكواد

وحدها؟ هل المعادن والمواد في الجهاز رتّبت نفسها لتنتج برنامجًا؟ بالطبع لا، الجواب الوحيد هو وجود مبرمج ذكي وضع كل شيء بعلمه وقصده.

والآن، ننتقل من اللابتوب إلى جسم الإنسان، حيث يوجد أعظم نظام تشغيل على الإطلاق :الكود الوراثي**DNA** ، البرنامج الذي وضعه الله في كل خلية من خلايا جسدك، ويدير حياتك منذ اللحظة الأولى، فالإنسان ليس مجرد لحم وعظم ودم، بل هو برنامج رقمي معقّد يحدد شكلك، لون عينيك، نوع شعرك، صوتك، مناعتك، حتى قابليتك لأمراض معينة، وكل ذلك يعمل بتناغم بديع يُظهر عظمة الخالق.

والمفاجأة أن كل خلية في جسدك — من أول جلدك إلى طرف ظفرك — تحتوي على نفس الشيفرة الوراثية بالكامل، كأن في كل خلية نسخة كاملة من "كتاب حياتك".

وفوق ذلك، لا توجد بصمتان وراثيتان متطابقتان بين أي اثنين من البشر! يعني أن الذرات العشوائية (الكربون، الهيدروجين، الأكسجين) التي يتكوّن منها جسم الإنسان، والتي يُفترض — حسب إنكار الخالق — أنها "كوّنت" الإنسان، استطاعت أن تنتج مليارات النسخ من البشر، ومع ذلك لا يوجد واحد منهم يطابق الآخر تمامًا. فكيف حدث هذا؟!

لنبدأ ببساطة :ما هي الشيفرة الوراثية؟

الشيفرة الوراثية ليست حبرًا ولا مجلدات، بل لغة كيميائية مكتوبة بأربعة حروف فقط **A – T – C – G**. وكل حرف من هذه الشيفرة عبارة عن جزيء صغير جدًا، مصنوع من عناصر بسيطة: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والنيتروجين، والفوسفور — نفس المكونات البسيطة الموجودة في تربة الأرض. ومع ذلك، هذه العناصر البسيطة تتجمع بطريقة دقيقة لتكوّن شيفرة حياة الإنسان بالكامل!

كيف تتجمع هذه العناصر لتصبح شيفرة حياة؟

جسمك مكوَّن من العناصر نفسها: الكربون، والهيدروجين، والنيتروجين، والأكسجين، والفوسفور. هذه العناصر تتجمع لتكوين مركبات دقيقة تُسمّى النيوكليوتيدات، وهي وحدات البناء الأساسية لل **DNA**.

كل نيوكليوتيد يتكوّن من ثلاثة أجزاء:

١. سكر رايبوز منقوص الأكسجين .(**Deoxyribose**)

٢. مجموعة فوسفات.

٣. قاعدة نيتروجينية من بين أربع فقط **A** :، **T**، **G**، .**C**

وللتسهيل، اختصر العلماء أسماء هذه القواعد إلى الحروف الأربعة:

- **A** =الأدينين(**Adenine**)
- **T** =الثايمين(**Thymine**)
- **G** =الجوانين(**Guanine**)
- **C** =السيتوزين(**Cytosine**)

وتعمل هذه القواعد الكيميائية بنظام محكم جدًا:

- **A**دائمًا يقابل**T**
- **G**دائمًا يقابل**C**

عندما تصطف هذه "الحروف الكيميائية" جنبًا إلى جنب، تتكوّن سلسلة **DNA**، وهي ليست ترتيبًا عشوائيًا، بل مكتوبة بدقة كبيرة، تحمل تعليمات واضحة لبناء جسمك بالكامل: لون عينيك، شكل أعضائك، طريقة عمل مناعتك، وحتى طريقة عمل خلايا دمك! يمكنك تخيّل الأمر مثل كتاب كبير جدًا :كل نيوكليوتيد هو حرف، والحروف تصطف لتكوّن كلمات، والكلمات جملًا، والجمل كتبًا كاملة — وهذه الكتب هي الجينات التي تحمل أوامر الحياة. والسؤال البدهي :من ألّف هذه اللغة وجعلها مفهومة ومنظمة بهذا الشكل؟!

إليكم صورتين توضحان ارتباط المركبات الكيميائية وتكوين المعلومة، حيث تتجمع العناصر البسيطة جدًا بتنسيق دقيق لتكوّن الشيفرة الوراثية المعقدة التي تحمل تعليمات حياة الإنسان كاملة.

وفي نهاية المبحث، إن شاء الله، ستكون الصورة كاملة عن كيف تكونت المعلومة الحيوية في الإنسان، وقد اتضحت لنا بفضل الله تعالى عظمة هذا الإعجاز.

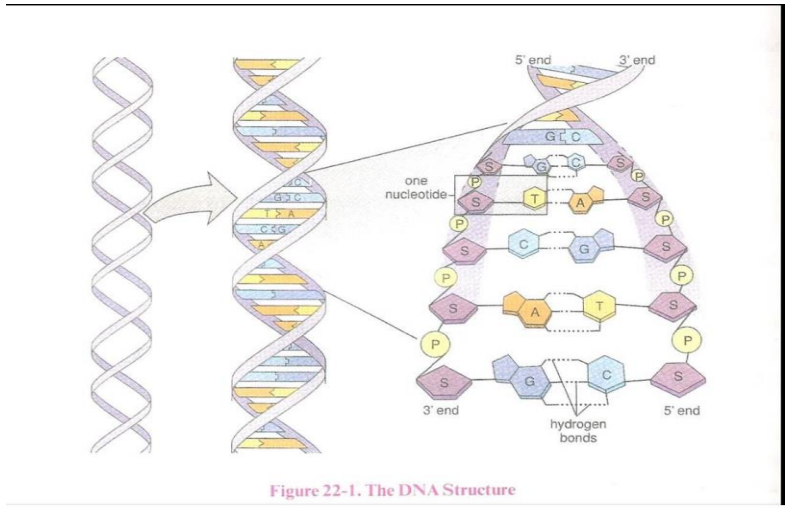

Figure 22-1. The DNA Structure

الصورة الأولى تُظهر المخطط الإجمالي لتوضيح الروابط بين المركبات الكيميائية، وإليكم تعقيب سريع عنها.

والآن، دعونا نتأمل أدق التفاصيل :كيف ترتبط هذه الحروف الأربعة **A–T** و**G–C** لتكوين الجينات ؟

ما تراه في الصورة القادمة هي خريطة مذهلة توضّح الطريقة التي تتشابك بها المركبات الكيميائية لتكون الشيفرة الوراثية.

انظر كيف يقابل الأدينين (**A**) دائمًا الثايمين(**T**) ، وكيف يقابل الجوانين (**G**) دائمًا السيتوزين(**C**) ، في نظام صارم لا يتبدل ولا يخطئ.

هذه الروابط الدقيقة، المصنوعة من ذرات صامتة، تتحول إلى لغة حية تفيض بالمعلومات **...** لغة تعبر عن قصة جسدك بكل تفاصيله.

أما الصورة الثانية فهي تفصيلية، وتوضح بدقة كيفية ترابط العناصر لتشكيل الشيفرة الوراثية.

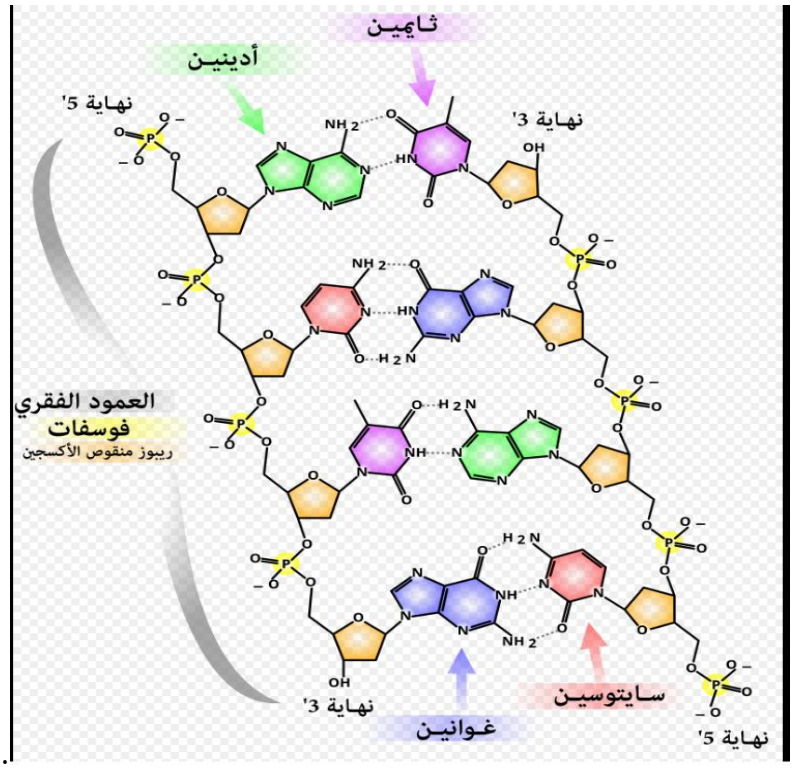

حجم الشيفرة الوراثية في جسمك

الشيفرة الوراثية البشرية تحتوي على أكثر من ٣,١مليار زوج قاعدي ـــــوهذه الأزواج تمثل الجينوم البشري بالكامل.

والأعجب أن هذه الشيفرة موجودة كاملة في كل خلية من خلاياك، وعدد خلاياك يزيد على **٣٠تريليون خلية !**

أي في جسم الانسان أكثر من **٣٠ تريليون مكتبة صغيرة**، وكل مكتبة تحتوي على كتاب ضخم واحد مكتوب بـ ٣,١مليار زوج قاعدي من التعليمات الكيميائية.

ولو أردنا طباعة المعلومات الوراثية الموجودة في خلية واحدة على الورق كما في هذه الصورة، لاحتجنا إلى ما يقارب مليون صفحة كاملة!

وليس هذا كل شيء، بل الشيفرة الوراثية تُنسخ باستمرار، وتُترجم، وتُصلح نفسها ذاتيًا، وتصدر أوامر لتكوين البروتينات وتشغيل الجسم كله.

تخيل فقط: جهاز حاسوب ينسخ نفسه ٣٠تريليون مرة، ويقوم كل نسخ بنفس الوظائف بدقة متناهية... لو حدث هذا في أي مصنع، العالم كله سيقف مذهولًا ويقول: هذه معجزة تقنية! لكن عندما يحدث هذا في جسدك كل يوم، يأتي الملحد ويقول: «هذه حصلت بالصدفة.«

أطول شيفرة في الوجود : أتريد أن تعرف إلى أي مدى هذا الكود الوراثي معجز؟ لو قمنا بفرد الشيفرة الوراثية في خلية واحدة فقط من خلايا جسم الإنسان، سيكون طولها حوالي مترين كاملين.

٣٠تريليون خلية × ٢ متر = ٦٠ تريليون متر من الشيفرة داخل الجسم، **أي ما يقارب رحلة من الأرض إلى القمر والعودة أكثر من ٢٥٠ مرة**، وهذا ليس خيالًا علميًا، بل حقيقة موجودة داخل كل إنسان.

فك الشيفرة الوراثية وفهمها :

لقد نجح العلماء خلال العقود الأخيرة في فك الشيفرة الوراثية للإنسان، فيما عُرف باسم مشروع الجينوم البشري، الذي أُعلن عن اكتماله سنة ٢٠٠٣م بعد أكثر من عقد من العمل وتمكّن العلماء من تحديد ترتيب الحروف الكيميائية وفهم ما تعنيه في بناء وتشغيل أجسادنا. واليوم، أصبح بإمكان أي شخص أن يُحلّل جزءًا من حمضه النووي بسهولة في المختبرات أو المراكز الطبية لمعرفة بعض الصفات الوراثية، أو التاريخ العائلي، أو الاستعداد لبعض الأمراض.

بل الطب الحديث يعتمد على الشيفرة الوراثية في أمور كثيرة جدًا:

- تحديد الهوية :إذا عثرت الشرطة على شعرة في مسرح جريمة، فإنهم يحلّلون الشيفرة الوراثية ويعرفون المجرم بدقة.
- كشف الأمراض الوراثية :من خلال ترتيب الحروف يتبيّن إن كان هناك مرض ينتقل بالوراثة.
- إثبات النسب :الشيفرة الوراثية تحدّد الأب الحقيقي بدقة لا تقبل الشك.
- البصمة الوراثية :كل إنسان له بصمة جينية فريدة لا تتكرر، حتى بين التوائم!

إذن، هذا الكود ليس فوضى... بل تصميم محكم وتوقيع إلهي من ربٍ حكيم عليم

مثال بسيط على الشيفرة الوراثية: لون عينيك

العين تحددها الجينات، وكل جين هو تتابع من الحروف الأربعة(**A – T – C – G**) ، وهي أساس الشيفرة الوراثية.

لتقريب الفكرة: لو كان ترتيب هذه الحروف مثل **A – T – G** قد يرتبط بلون بني، و **C – G – A** –بلون أزرق، لكن في الحقيقة، لون العين لا يعتمد على ثلاثة أحرف فقط، بل على

سلاسل طويلة ومعقدة جدًا داخل عدة جينات تعمل معًا لتحديد كمية صبغة الميلانين في القزحية.

الجين يشبه وصفة دقيقة داخل جسمك، وهذه الوصفة هي الكتاب الخاص بالشيفرة الوراثية الذي يخبر الجسم كيف يصنع الميلانين، الصبغة التي تحدد لون العين. حسب نوع الجين، يحدد الجسم كمية الميلانين:

- كثير ← العين بنية أو سوداء
- قليل ← العين زرقاء أو خضراء

كل هذا يحدث بتنسيق وتنظيم مُعجز لا يمكن أن يكون صدفة.

تخيّل: كل هذه المعلومات مرتبة بدقة متناهية، وكل شيء يعمل بلا عقل أو مبرمج بشري.

والسؤال هنا :من كتب الشيفرة الوراثية؟ من أمر الخلية أن تنسخ نفسها جيلاً بعد جيل؟ هل الذرات تعرف البرمجة؟ هل الهيدروجين والكربون والنيتروجين تستطيع كتابة كود مُحكم كهذا؟

إذا كنت لا تستطيع أن تصدّق أن جهاز الحاسوب يكتب برنامجًا متكاملًا مثل وورد أو إكسل من تلقاء نفسه، فكيف تصدّق أن الذرات رتّبت نفسها بروابط كيميائية، وخطّت هذه الشيفرة وحدها، وكتبت أعظم البرامج في جسمك وأنت في الرحم: العقل، والقلب، والعين، والأذن؟

الأعجب من ذلك كله أن الخلايا نفسها تعرف كيف تقرأ هذه الوصفة بدقة كبيرة، كل خلية تتعامل مع شيفرتها الوراثية كما لو كانت كتابًا مليئًا بالتعليمات، هي تفكّ الرموز الكيميائية واحدًا واحدًا، وتترجمها إلى أوامر واضحة، ثم تستخدم هذه التعليمات لبناء كل جزء من أجزاء جسمك —من العين إلى القلب، من الجلد إلى الأعضاء الداخلية — بدقة متناهية وكأنها مصنع متكامل يعمل بلا توقف! لذلك الإعجاز لا يكمن في الشيفرة الوراثية وحدها، بل في الخلية نفسها وكيف تُوجَّه لبناء كل عضوٍ في الجسم بدقة مدهشة.

ولمن أراد التوسّع في هذا الجانب، أنصح بالاطلاع على الشروحات العلمية حول إعجاز الخلية وآليات عملها.

وليس الإنسان وحده الذي يحمل الشفره الوراثية ... بل كل الكائنات الحيّة – حتى النباتات – تحمل في داخلها شيفرتها الوراثية الخاصة.

مثال النبات: الشيفرة الوراثية في أصغر كائن :

حتى أصغر بذرة تحمل داخلها شيفرة وراثية دقيقة تحدد كل صفاتها :لون الزهرة، شكل الورقة، وقت الإزهار، ونوع الثمرة. هذه المعلومات ليست في التراب ولا في الماء، بل داخل الـ **DNA** نفسه.

فعندما تسقط البذرة في التربة ويصلها الماء، تبدأ خلاياها فورًا بقراءة التعليمات المخزَّنة داخل الجينات — تمامًا كما تفعل خلايا الإنسان — فتُنتج الصبغات والإنزيمات، وتبني الجذور والساق والأوراق بمهارة مذهلة، وتُكوِّن اللون المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، وكأنها تتبع خطة هندسية دقيقة كُتبت لها منذ البداية.

فتأمل البذرة... حين تنشقّ عن ساق، ثم ورقة، ثم زهرة، ثم ثمرة، لم تفكر، لم تخطط، لم تتعلم، بل اتبعت برنامجًا دقيقًا كُتب فيها قبل أن تُخلق، برنامجٌ لو حاول العقل البشري نسخه، لاحتاج إلى آلاف السطور من الكود، ومصانع عملاقة تعمل بكفاءة لا تنطفئ.

وهنا يصبح السؤال الذي يهرب منه الملحد سؤالًا لا يمكن تجاهله:

كيف خرج النبات بهذا الشكل، وهو يحمل كل هذه المعلومات الوراثية الدقيقة، ويحول نقطة ساكنة من الأرض الميتة إلى كائن حي كامل التفاصيل؟ من كتب الكود؟ من صاغ اللغة الأولى للحياة؟

والحقيقةُ تظلّ واضحة لمن أراد أن يري: أن في كل خليةٍ — من الإنسان إلى النبات — توقيعًا إلهيًا لا يُمحى، يشهد بأن الحياة ليست عبثًا، بل خَلقًا مقصودًا مُتقنًا من خالقٍ حكيمٍ عليم. وليس الأمر مقتصرًا على النبات؛ **فحتى أبسطُ إنزيمٍ في أبسطِ كائنٍ حي يحمل دليلًا مذهلًا على هذا الإحكام.**

وكما يقول الدكتور هيثم طلعت في كتاب كيف تتخلص من الإلحاد:

"فما مصدرُ الكمّ المعلوماتي الهائل الذي تحمله أولُ شفرةٍ وراثية؟ بل إن أبسطَ إنزيمٍ يتعامل مع شريط الـ**DNA** يتكون من أكثر من عشر وحداتٍ بروتينية. ولو تعطّل بروتين واحد فقط، أو اختفى، أو فسد ترتيب سلسلةٍ واحدةٍ منها، لتوقف عمل الإنزيم، وبالتالي يتوقف عمل شريط الـ**DNA** نفسه، فلا يكون للكائن الحي وجود. والأعجب أن شفرة هذا الإنزيم موجودةٌ داخل شريط الـ**DNA**؛ فالقضية هنا تعقيدٌ لا يقبل أيَّ قدرٍ من الاختزال أو التدرّج: إما أن تظهر المنظومات كاملةً دفعةً واحدة، أو لا تظهر أبدًا.

ويقول العالم الداروينى ويليام ستوكس **William Stoker**: «لو أحضرنا مليارات الكواكب مثل الأرض، وملأنا كلّها بالأحماض الأمينية، ثم انتظرنا مليارات السنين، ما كان لن يتكوَّن بروتين واحد». **W. R. Bird, the Origin of Species, p٣٠٥** ...

فكيف — وأبسطُ كائنٍ حي على الإطلاق، الميكوبلازما **Mycoplasma** — يحتوي على آلاف البروتينات المتخصصة؟!" انتهي

اعتراف العلماء :

١- الفيزيائي الشهير) بول ديفيز:(**Paul Davies –**

يقرر في كتابه (المعجزة الخامسة) استحالة التفسير المادي البحت لنشأة الحياة، حيث يقول : " إن نشأة الحياة أمرٌ مستحيل عملياً من الناحية الطبيعية وأنَّه يُمكن أن يُغفر لك استنتاجك **بأن الجينوم بالفعل يُعد أمرًا خارقًا** (لا يمكن تفسير وجوده بشكل طبيعي) ». [٦]انتهي

٢-الفيلسوف) أنتوني فلو:(**Antony Flew –** وهو الذي قضى عقوداً من عمره كأشهر ملحد في العالم قبل أن يعود للإيمان بوجود الخالق، مدفوعاً بالاكتشافات العلمية الحديثة، يقول متسائلاً: "كيف لكونٍ يتكون من مادة (غير عاقلة) أن يُنتج كائنات تتمتع بـ (غايات غريزية)، وقدرات على (الاستنساخ الذاتي)، و(كيمياء مشفرة)؟ إننا هنا لا نتعامل مع مجرد مشكلة بيولوجية، بل نحن أمام فئة مختلفة تماماً من المعضلات " [٧]انتهي

التحدّي العقلي الحاسم: كيف تُنتج المادةُ "معلومة"؟

تخيّل أنك أمام مكتبة ضخمة تضم آلاف الكتب المتقنة، وكل كتاب فيها مكتوب بلغة واضحة ومنسّقة، ويشرح أدق تفاصيل الجسم: كتاب للقلب، وآخر للمخ، وثالث للعين، ورابع للمناعة... وكل شيء منظم ومترابط ومفهوم كما لو أن مؤلفًا حكيمًا صاغه بعناية.

وهنا ينهض سؤال لا يمكن الهروب منه: من كتب هذه الكتب؟!

ولا يوجد عقليًا إلا احتمالان لا ثالث لهما:

---

٦ Paul Davies, The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life p ٩

٧ Antony Flew with Roy Abraham Varghese: There is a God p١٢

١. كاتب عاقل وضع هذه المعلومات عن قصد ووعي.

٢. أو أن الحبر تناثر على الأوراق عشوائيًا عبر الزمن، فظهر كتاب كامل مفهوم!

والاحتمال الثاني يُرفض بالبداهة، لأن المادة — أيه مادة — لا تُنتِج معلومة من ذاتها مهما طال الزمن أو تعددت الظروف.

لماذا يستحيل أن تكتب ذرات الحبر كتابًا؟

أمسك قلمًا وورقة. القلم يحتوي حبرًا — جزيئات كيميائية مادية — والورقة مجرد ألياف نباتية و الحبر في القلم ليس إلا مادة مكوّنة من جزيئات، أي ذرات مرتّبة، هذه الذرات في طبيعتها لا تختلف عن ذرات الكربون والهيدروجين التي تكوّن الشفرة الوراثية، لكن هل يمكنك أن تتخيّل أن هذا الحبر ينزل وحده على الورقة فيكتب كتابًا يشرح القلب، أو يبني نظرية علمية، أو يضع برنامجًا معقدًا؟

هذا مستحيل، لأن:

- الحبر مادة، والورقة مادة.
- أما المعلومة المكتوبة عليهما فهي شيء آخر تمامًا.

المادة تقدّم الحامل أي مجرد وعاء فقط ، لكن العقل وحده هو الذي يصنع المعنى، وينشئ الجمل، ويرتّب الحروف في لغة مفهومة.

وبهذا يتّضح أن المعلومة المفهومة ذات المعنى لا تنشأ من المادة وحدها، بل من عقلٍ ينظّم المادة ويصنع منها معنى؛ فالمادة لا تفهم، ولا تقصد، ولا ترتّب نفسها في لغةٍ مفهومة.

ولهذا كان مثال الكتاب مثالًا كاشفًا: فالورق والحبر مجرد مادة، أمّا المعنى والنظام واللغة فلا تأتي إلا من عقلٍ كاتب.

وسنعود إلى هذا المعنى لاحقًا — بإذن الله — عند الحديث عن الكون ذاته، حين يتبيّن أن هذا الكون منظَّم ومفهوم؛ فذراته ليست مبعثرة، بل مرتَّبة بنظام دقيق، كأنها مكتوبة بلغة كونية قابلة للفهم. والدليل على أن الكون مفهوم أن العقل الإنساني يقرأ هذا النظام، ويفهم قوانينه، ويصوغ معادلات تصف عمله، ويقيم على أساسه حضارةً وعمرانًا كاملين. فالكون كتاب، والعقل قارئ هذا الكتاب؛ فهل يكون كل هذا نتاجَ تجمعٍ عشوائيٍّ للذرات؟! وهل يكون الكتاب بلا كاتب؟! وهو ما سنبيّنه بالتفصيل في موضعه — بحول الله— في الباب الثالث، الفصل الثاني.

مثال حديث: الكمبيوتر

الكمبيوتر مجرّد جهاز مادّي :(**Hardware**) أسلاك، شرائح، دوائر،لكن من دون كود برمجي مكتوب بلغة منظمة يصبح الجهاز قطعة صامتة لا وظيفة لها.

المادة وحدها: لا تُنتج ''معنى''، ولا ترتّب نفسها في ''لغة''، ولا تكتب ''كودًا''،ولا تبتكر ''نظامًا معلوماتيًا.''

المعلومة — في أي مجال من مجالات المعرفة — لا تأتي إلا من مصدر واعٍ.

والآن... الشيفرة الوراثية :

الـ **DNA**في تكوينه الكيميائي لا يختلف عن أي مادة أخرى في الكون :ذرات كربون وهيدروجين ونيتروجين ترتبط وفق قوانين فيزيائية ثابتة، مثل أي ذرة في الهواء أو التراب ، لكن المفاجأة المذهلة أن هذه المادة العادية تحمل معلومات مكتوبة بلغة مكوّنة من أربعة أحرف فقط: **A – T – C – G** ومن هذا الأبجدية البسيطة تُبنى تعليمات دقيقة تنظم تكوين الجسم كله:

- تكوين القلب بترتيب محكم، تشكل المخ بوصلاته العصبية، بناء المناعة وقدرتها على التعرف على الجراثيم، تكوين العظام والعضلات والأعصاب، بل إن كل خلية في جسدك —من أصغر شعرة إلى أعقد خلية عصبية — تحمل هذا الكود الكامل.

يقول عالم الكيمياء الحيوية فضل رنا **Fazale Rana** حيث يسلط الضوء على وجه الشبه المذهل بين لغة البرمجة البشرية وبين نظام تشفير الخلية، فيقول: "إنَّ تقنيات النانو والتكنولوجيا الحيوية الحديثة —مثل استخدام تكنولوجيا الحاسوب في الـ **DNA**وتشفير أشرطته— تقدم مبرراً قوياً لحجة الذكاء الكامن في الكيمياء الحيوية؛ إذ تعزز هذه التقنيات الناشئة فكرة أن المعلومات البيوكيميائية هي (معلومات حقيقية) بكل ما تعنيه الكلمة، وتستخدم تطبيقاتها البيانات الموجودة في الـ **DNA**بنفس الطريقة الدقيقة التي يتعامل بها البشر مع المعلومات الرقمية.«انتهي

الواقع العلمي: دليل لا يُنكر

- اليوم يستطيع العلماء تحديد صفاتك الوراثية كاملة من *شعرة واحدة*.
- وفي الطب الشرعي، أصبح تحليل الـ **DNA**وسيلة قطعية للتعرّف على الأشخاص.
- وفي الطب والوراثة تُحدَّد به الأمراض والصفات الموروثة.
- ويمكن لأي واحد منا أن يُحلّل حمضه النووي في مختبر طبي، ليُستخرج منه ''تاريخه الجيني.''

هذا كله يؤكد أن الـ **DNA** ليس مجرد مادة كيميائية صامتة، بل معلومة مكتوبة بلغة كاملة قابلة للقراءة، وقد تمكن العلماء بالفعل من فك شفرتها في مشروع الجينوم البشري عام ٢٠٠٣م.

ومع ذلك يبقى السؤال قائمًا بقوة لا يمكن إسقاطها: كيف تحوّلت مادة صمّاء إلى "كتاب تعليمات" متكامل؟ وكيف ظهر هذا الكم الهائل من المعلومات داخل جزيء لا يُرى بالعين؟

خاتمه المبحث

عندما تنظر إلى حجم المعلومات الهائل داخل جسم الإنسان، تدرك عظمة هذا النظام.

فالشيفرة الوراثية البشرية تحتوي على أكثر من ٣,١ مليار زوج قاعدي تمثل الجينوم البشري كاملاً، والأعجب أن هذا الكتاب الضخم محفوظ كاملًا داخل كل خلية من خلاياك، التي يزيد عددها عن ٣٠تريليون خلية!

بمعنى: في جسدك ٣٠ تريليون "مكتبة صغيرة"، وفي كل مكتبة كتاب واحد مكتوب بـ ٣,١ مليار حرف كيميائي من التعليمات الدقيقة.

ولو حاولنا طباعة المعلومات في خلية واحدة فقط، لاحتجنا إلى قرابة مليون صفحة!

فكيف اجتمعت هذه الدقة الهائلة، وهذه الضخامة في حجم المعلومات، وهذا الإحكام العجيب في أصغر وحدات الحياة؟

إنها ليست مصادفة... ولا أثر مادة عمياء لا تعقل ولا تُميّز، إنها بصمة الخالق الحكيم في كل خلية من خلاياك، تشهد على إتقانه وعلمه وقدرته، كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

وبذلك يختتم المبحث عند الحقيقة التي لا يملك العقل ولا العلم دفعها:

أن نظامًا بهذا الإحكام لا يكون إلا من ربٍّ عليم، ومعلومةً بهذا النسق لا تُودَع إلا بتقدير الحكيم الخبير، وحياةً بهذا الجمال لا تنبض إلا بنفحة من قدرة الله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين.

والآن، وبعد أن أتممنا – بفضل الله – الفصل الأول، يجدر بنا قبل الانتقال إلى الفصل الثاني أن نقف عند اعتراض شائع قد يطرحه بعضهم قائلًا:

»أين مصطلحات الملاحدة؟ أين الطفرات الجينية والانتخاب الطبيعي والآليات التطورية؟! أنت لا تتحدث إلا عن ماده الأرض وكربون وهيدروجين«!

ويضيف متحديًا: «أنت مش عايش مع الملاحدة ولا إيه؟«

والجواب في غاية البساطة: يا صديقي، القول بأن الإنسان نتاج المادة ليس اختراعًا مني، بل هو نتيجةٌ لازمة للتصور الإلحادي نفسه. فالمنظومة التي يقوم عليها هذا التصور—كما نقلنا من أقوالهم—تُرجِع أصل الكائنات الحية في النهاية إلى عناصر الأرض، وإلى تفاعلات مادية عمياء لا قصد لها ولا غاية.

إذن، القضية ليست في الألفاظ، بل في الجوهر.

فالملاحدة لا يقولون للناس صراحة: «نحن جئنا من الطين»، لكنهم يغلفون الفكرة نفسها بمصطلحات براقة مثل :*طفرة جينية*، *انتخاب طبيعي*، *آليات تطورية*. فيطرحونها بعباراتٍ معقّدة ليُوهموا الناس، ويخفوا وراء هذا التعقيد حقيقةً بسيطة واضحة.

غير أن الحقيقة واحدة: في تصورهم، الكائنات الحية – بما فيها الإنسان – ليست إلا نتاج المادة العشوائية.

وبالعقل... إذا أخذتَ هذا التصور إلى أبعد مدى، فلن نجد في هذا المنظور إلا مادةً صمّاء، بلا وعي، ولا قصد، ولا غاية، هي الأصل الذي انبثق منه كل شيء. ووفق هذا التصور، فإن الإنسان – بل وكل أشكال الحياة من حيوان ونبات – ليس إلا نتاجًا لهذه المادة، بل إن بعض رموز هذا الاتجاه يعبّرون عن هذا المعنى بوضوح شديد؛ حيث يقول ستيفن هوكينغ: "*الإنسان ليس سوى وسخٍ كيميائي على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم عادي في الضواحي الخارجية لإحدى المجرات بين مائة مليار مجرة*"[٨]

فهذه لوازم تصورهم: أصل الكائنات عندهم ليس سوى مادة أرضية عمياء، ومصيرها محكوم بالعشوائية المطلقة دون قصد ولا تصميم

المنهج العقلي البسيط : إذا أردنا أن نعرف الأصل المادّي للأشياء من حولنا، فإن أول ما نفعله هو تحليلها لمعرفة مكوّناتها.

- مثال اللابتوب: تخيّل أننا وجدنا جهاز لابتوب. كيف نعرف أصله؟ نفتحه، ندرسه بالمجاهر، نحلله كيميائيًا... سنجد دوائر إلكترونية من السيليكون، معادن مثل الحديد، وبلاستيك مصدره البترول. كلها عناصر موجودة في الطبيعة. إذن نستنتج أن اللابتوب مصنوع من عناصر الطبيعة.

---

[٨] (Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, ١٩٩٥)

- **نفس المنهج : الإنسان**

الإنسان حين حلّل العلماء جسم الإنسان، وجدوا أن عناصره الأساسية هي نفسها عناصر الأرض: الكربون، الأكسجين، الهيدروجين، الكالسيوم، الفوسفور، الحديد... إلخ.

هذا ليس خطابًا إنشائيًا، بل حقيقة مثبتة بالتحاليل، بالأجهزة، بالمجاهر، وحتى بالقياسات الفلكية؛ فالتلسكوبات تؤكد أن نفس العناصر موجودة في الأرض.

لذلك، لم أفعل سوى أن أعود بالأمر إلى جذوره، إلى أصل الكائنات الحية كلها، كما تناولناه في المبحث السابق حين طرحت كيف وُجدت الشفرة الوراثية. لقد قلنا: نعم، المكوّنات موجودة في الطبيعة ، والذرات موجودة... لكن السؤال العقلاني: من رتب هذه الذرات لتكوّن ٣,١ مليار زوج قاعدي تمثّل الجينوم البشري؟

من جمع الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين والفوسفور ليكتب برنامجًا رقميًا ينسخ نفسه، وينتج بروتينات، ويدير مصانع خلوية دقيقة؟ والأعجب من ذلك: أن هذه الشيفرة موجودة في كل الكائنات الحيّة، ولكل كائن شيفرته الخاصة التي تميّزه وتُعطيه هويته ووظائفه. حتى أصغر الكائنات التي اكتشفها العلماء، وُجدت بداخله هذه الشيفرة العجيبة!

وأتحدّى أيَّ ملحدٍ أن يفسِّر كيف اجتمعت الذرّات عشوائيًا لتكتب «مكتبة معلومات» بحجم آلاف الكتب، موجودة في كل خليةٍ من خلايا الكائنات الحيّة.

فهذا هو ما أفعله: أرجِع بالكلام إلى الجذور الأولى؛ إلى الذرّات التي يتكوَّن منها الكائن الحي، فإذا بالمشهد ينكشف، وتظهر للعيان حقيقة هذا التصور، ومدى هشاشته عند التأمل الجاد.

وهذا—في الحقيقة—ما يتجنّبه كثيرٌ من الملاحدة؛ لأن الناس لو فكّروا بصدق في أصل النشأة وجذورها الأولى، فلن يجدوا في هذا الطرح ما يُقنع العقل، ولا ما يُشبع الفطرة.

وهذا من بديع الخطاب القرآني؛ إذ لا يشتّت الذهن في التفاصيل المربِكة، بل يردّ الإنسان مباشرةً إلى أصل الخلق، فيربط قلبه وعقله بالله، بوضوحٍ لا تعقيد فيه، وبحجّةٍ لا لبس فيها.

وهنا تظهر عظمة القرآن الكريم... لم يلجأ إلى زخارف لفظية ولا مصطلحات معقّدة، بل واجه الإنسان بالحقيقة مباشرة من جذوره:

﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ الكهف

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ —الصافات: ١١

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ –نوح: ١٧

القرآن وضع أمامك الحقيقة منذ اللحظة الأولى: نعم، الانسان أصله من تراب،لكنك لست مجرد ذرات متراكمة، نُفخت فيك روح، وغُرِس فيك عقل ، وأُعطيت إرادة حره ، هذه هي الرسالة الأصدق للهداية: خطاب يخاطب عقلك وقلبك معًا، ليست زخرفًا ولا تمويهًا، بل حقيقة محسوسة تعيشها وتشعر بها، وفي الوقت نفسه، تنسجم تمامًا مع ما كشفه العلم عن تكوين الإنسان وأصله المادي .

وإليك بعض الأمثلة السريعة على عظمة القرآن وعلو خطابه، وإلا فالأمثلة أكثر من أن تُحصى:

١- تأمل يسير من سورة يس:

قال تعالى :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

فاسأل أي ملحد: هل يمكن أن تتحول العظام البالية إنسانًا حيًّا من تلقاء نفسها؟ سيقول: مستحيل. فقل له: ومن الذي أنشأها أول مرة من تراب جامد لا حياة فيه؟!

وإذا كنت ترى أن إعادة العظام بعد فنائها محال، فكيف آمنت أن التراب الأصم عبر الزمن أنشأ مليارات البشر الأحياء؟!

٢– تأمل من مشهد النبات :

قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ • وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ • لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]

تأمل: ماء واحد ينزل على أرض واحدة، فإذا به يُخرج نباتًا متنوعًا مختلفًا في شكله وطعمه ورائحته ولونه: هذا عنب، وهذا تمر، وهذا تفاح، وهذا زيتون... فمن الذي أودع هذه القدرة في الأرض والماء؟ هل يستطيع بشر أن يصب ماءً على تراب، ثم ينتظر –ولو إلى الأبد– أن تنبت تفاحة أو ثمرة واحدة بغير بذرة خلقها الله؟! مستحيل. إنه فعل الحكيم القدير وحده.

٣– التحدي القرآني للعقول :

قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]

الحياة كلها سرٌّ إلهي.

هذا التحدي ليس مبالغة، بل حقيقة يشهد بها الواقع: لو اجتمع البشر جميعًا، بعقولهم وتقنياتهم ومعاملهم، على أن يخلقوا ذبابة واحدة —هذه المخلوقة التي نراها تافهة— لعجزوا عجزًا تامًا.

فإذا كان هذا حالهم مع ذبابة، فكيف بخلق إنسان؟!

ومن العجيب حقًا أنك ترى بعض الملاحدة ينكرون المعجزة، كتحوّل عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان، بدعوى أن هذا "خارق للعادة..." ثم في الوقت نفسه يؤمنون بما هو أعجب وأعظم خرقًا للعادة!

يؤمنون أن نفس هذه **المادة الصمّاء** —التي هي في حقيقتها مثل العصا: لا تعقل ولا تحيا— قد تحولت وحدها، وبلا عقل ولا إرادة، إلى **جميع الكائنات الحية!**

ليس مجرد ثعبان... بل إنسان بعقله، وإدراكه، ومشاعره، ونظامه المعقّد!

فأيُّ الأمرين أعجب؟ أن تتحول عصا إلى ثعبان بإرادة خالقٍ قادرٍ حكيم؟ أم أن تتحول المادة الصمّاء إلى حياة واعية بلا خالق ولا توجيه؟!

الحقيقة التي يغفل عنها كثيرون: أن ما يُستغرب في المعجزة، هو في الحقيقة قائم أمامنا كل يوم، لكننا ألفناه فلم نعد ننتبه له.

فالمعجزة لا تأتي لتُبهرك فقط، بل لتوقظك وتنبّهك: انتبه... ما تراه كل يوم ليس أمرًا عاديًا كما تظن!

فليس من "الطبيعي" أن ينزل ماءٌ على أرض، فتُخرج نباتًا حيًّا متنوعًا! وعندما ترى العصا تتحول إلى ثعبان، فاسأل نفسك: كيف تتحول المادة أصلًا إلى كائن حي؟! كيف تتحول ذرات صمّاء لا تعقل ولا تحيا، إلى إنسانٍ يرى، ويفكر، ويشعر؟! فإذا كنت تتعجب من تحوّل عصا إلى ثعبان، فالأَوْلى أن تتعجب من تحوّل التراب إلى إنسان!

هكذا، ببساطة ووضوح، يقودك القرآن إلى الله مباشرة، بلا تعقيد أو لفّ، بل بأدلة قاطعة دامغة تُخاطب جميع العقول والفطر.

إنه أقصر وأصدق وأعمق طريق للوصول إلى الله عز وجل، ويُظهر كيف يمكن للعقل البشري أن يستوعب الحقائق الكبرى بسهولة ويسر، دون الحاجة إلى تعقيدات فلسفية معقدة

***

الفصل الثاني: ما وراء المادة: الإرادة الحرة، العقل الواعي، الأخلاق، الفطرة

مدخل : سأمنحك كل التنازلات ...إلا هذا.

سأفترض معك — لأجل النقاش — أن الإنسان بكل أجهزته، وأنظمته، وتعقيده المبهر، مجرد »عناصر من تربة الأرض تجمّعت مع الوقت.« وبالتالي لحمك، ودمك، وعينك، وقلبك، ومخك... كل هذا — وفق هذا التصور — خرج من مادة الأرض بالصدفة!

بل وسأتنازل أكثر، وأفترض أن الشيفرة الوراثية —تلك المكتبة العملاقة المليئة بالمجلدات الدقيقة — قد كتبت نفسها بنفسها عشوائيًا!

بالمعنى البسيط: كأن ذرات الكربون، والهيدروجين، والكالسيوم... اجتمعت، وقررت أن تكتب ملايين الأكواد ذات المعنى، دون عقل، أو وعي، أو مبرمج. مستحيل طبعًا... لكن لأجل النقاش، سأعتبره مقبولًا.

لكن المشكلة القادمة أعقد بكثير.

حين نظرنا إلى جسم الإنسان من الداخل، لم نجد أجهزة وأعضاء فقط، بل وجدنا أشياء غير موجودة في الطبيعة أصلًا: عقلًا واعيًا، إرادةً حرة ، ضميرًا أخلاقيًا، ميلًا فطريًا نحو الخير، أسئلةً عميقة عن المعنى، والغاية، والمصير.

وهنا توقفت... وقلت: لعل المادة نفسها تحمل سرّ الإرادة؟!

فذهبت أدرس سلوك المادة في الكون:

- الأكسجين لا يختار أن يرفض الاتحاد مع الهيدروجين.
- الحديد لا يقرر أن يصبح ذهبًا.
- النار لا تقول: «لن أحرق اليوم لأنني حزينة.«
- لم أرَ شمسًا تملك إرادةً حرة.

إنها مجرد ذرات، تتكرر تفاعلاتها بالطريقة نفسها... لا حرية، ولا قرار، ولا ضمير.

المعضلة الحقيقية

اسمح لي أن أذكّرك بالقاعدة التي اتفقنا عليها منذ البداية: إذا أردنا أن نعرف أصل أي اختراع، نبدأ بتحليله لنرى عناصره.

- ان وُجدت هذه العناصر في الطبيعة، نستنتج أن أصلها من عناصر الطبيعة، تمامًا كما في المبنى الذي يتكوّن من الطوب، الأسمنت، الحديد، وغيرها.

لكن... إن لم نجد عناصره في الطبيعة أصلًا فالنتيجة القطعية أن هناك مكوّن فوق مادي من خارج الطبيعة (غيبي)زُرِع فيه.

وهذا بالضبط ما يحدث مع الإنسان: جسده :نعم، مكوَّن من عناصر الأرض (الكربون، الهيدروجين، الأكسجين...)

لكن إرادته الحرة، وضميره، وقيمه، وبحثه عن المعنى — تلك الأشياء التي نعلم، بفطرتنا، أنها موجودة فينا — ليست من مادة الأرض، ولا تخضع لقوانين الذرات.

فالنتيجة العقلية الحتمية: أن في الإنسان مكوّنًا فوق مادي، غيبيًا، مزروعًا فيه من خالقٍ حكيم.

والسؤال هل تستطيع أن تقول لي أيها الملحد :من أين جاءت الإرادة الحرة؟ من أين أتى الضمير والقيم؟ من أين خرج السؤال عن الله والآخرة والمعنى؟

هل تجرؤ أن تقول: "من المادة"؟ المادة لا تختار، ولا تقرر، ولا تعي.

وقد طرح بويد، اللاهوتي الأمريكي (هذا الاقتباس موجود في كتاب :*براهين وجود الله للدكتور سامي حفظه الله*) أربعة أسئلة نقدية لفحص هذه العبثية:

١. كيف أنتج العالم غير العاقل كائنات عاقلة؟
٢. كيف أنتج العالم الذي لا معنى له كائنات تبحث عن معنى؟
٣. كيف أنتج الكون اللاأخلاقي كائنات أخلاقية؟
٤. كيف خلق الكون كائنات تشتاق إلى ما هو أسمى وأعلى؟" انتهي

ويقول الدكتور هيثم طلعت حفظه الله: "إذا كنّا أبناءَ الطبيعة الخُلَّص، فكيف حصلنا على **خصائصَ لا تتصف بها أمُّنا ؟"!** انتهي ، والمقصود بـ"الأم" هنا — في كلام الدكتور هيثم — هي الطبيعة نفسها، التي يُفترض، وفق التصور الإلحادي، أننا ناتجها المباشر، ومع ذلك نحمل من الخصائص ما لا وجود له فيها.

تنويه قبل الدخول في الفصل الثاني

ما تشعر به في نفسك – من إرادة، وحرية، وضمير، وفطرة – هو أوضح برهان على أن الإنسان ليس مجرد حفنة من تربة اجتمعت صدفة.

بل هو مخلوق يحمل سرًّا أعظم :روح من أمر الله، هي التي تميّزه عن الكون كله، وتمنحه شرف الاختيار، ومسؤولية التكليف، ومعنى الوجود.

وهنا لا أحتاج إلى فلسفات مطوّلة أو جداول رياضية:

- هل أحتاج أن أشرح لك أنك حر في اختيارك؟ هذا أمر يدركه كل إنسان بذاته.
- وهل يحتاج المرء إلى برهان على وجود ضميره وهو يلومه إذا أخطأ؟

ولهذا عبّر علماؤنا بقولهم" :توضيح الواضحات من الفاضحات."

عندما تقول" :*أنا أريد" ، "أنا لا أريد" ، "أنا قررت" ، "أنا نادم* ..." فأنت في الحقيقة تتحدث عن شيء عميق يسكن داخلك، لا يحتاج إلى دليل خارجي على وجوده.

يكفي أن تصغي إلى نفسك بصدق، عندها سترى الحقيقة كما هي: أنك لست مجرد جسد من تراب، بل روح مكرّمة، خُلقت لتعرف ربك، وتعيش باختيارك، ثم تلقاه.

***

المبحث الأول : هل تختار بإرادتك؟ إذًا أنت لست مادة

دعنا نعيد السؤال من جذوره: المادة... هل تختار؟ هل لديها عقل؟ هل تغيّر سلوكها بإرادتها؟ الإجابة واضحة تمامًا :لا.

- ذرات الهيدروجين لا ترفض التفاعل ،النار لا تقرر من تحرق ،الجدار لا يعتذر، الشمس لا تؤجل شروقها ، المادة محكومة بقوانين ثابتة، متكررة، بلا وعي ولا حرية.

فإذا كانت المادة لا تملك إرادة؟

فكيف تُنتج كائنًا يملك إرادة!كيف تزرع الحرية في عالم لا يعرف الحرية أصلًا؟!

فالإرادة الحرة... أعجب ما فيك : اسأل نفسك: هل أستطيع أن أختار أن أذهب يمينًا أو شمالًا؟ هل أقول الصدق أم أكذب؟ هل أساعد أم أؤذي؟ هل أصلي أم أتخاذل؟

الإجابة: نعم. أنت تختار، تقرر، تحاسب نفسك بعد الخطأ، تندم أحيانًا، وتفرح باختيارك أحيانًا أخرى.

ببساطة: فيك شيء غير مادي، فيك حرية داخلية... وضمير حي... ووعي باختياراتك.

هنا يظهر السؤال العقلي القاطع: لو أن المادة لا تحتوي على إرادة، فكيف خرجت منها إرادة؟

القانون البسيط يقول :**فاقد الشيء لا يعطيه.**

- المادة لا تملك إرادة ⟵ لا يمكن أن تمنح إرادة.
- الطبيعة لا تختار ⟵ لا يمكن أن تخلق كائنًا يختار.
- الذرات لا تمتلك **وعيًا**⟵ لا يمكن أن تُنتج **عقلًا واعيًا**.
- النار لا تقرر ⟵ لا يمكن أن تخلق مخلوقًا يملك قرارًا.

فمن أين جاءت حرية الإرادة؟ من أين خرج الضمير؟ من زرع فيك الصراع بين الخير والشر؟ الجواب الوحيد :هناك مكوّن فوق مادي، روح غيبية من أمر الله، هي التي حملت لك سر الحرية والإرادة.

والأعجب ...أن هذه النتيجة لم نصل إليها نحن وحدنا.

بعد أن تتبّعنا كيف أن "المادة العمياء" لا تستطيع أن تفسّر وجود الإرادة الحرة، قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم: وماذا يقول الملاحدة أنفسهم عن هذه المعضلة ؟ المفاجأة: أنهم يعترفون بما استنتجناه بعقولنا.

نحن – حين فكرنا – قلنا: لو الإنسان مجرد ذرات اجتمعت صدفة، فمن المستحيل أن يكون لديه إرادة حرة، لأن الإرادة ليست موجودة في الطبيعة أصلاً.

والملاحدة أنفسهم وصلوا إلى النتيجة ذاتها... لكن بدلًا من التسليم بوجود خالق يزرع هذا البُعد فوق المادي فينا، اختاروا إنكار وجود الإرادة من الأساس!

الإلحاد وصدمة حرية الإرادة

المفكر الإلحادي أليكس روزنبرج ألّف كتابه الشهير ***The Atheist's Guide to Reality***.والكتاب ليس مجرد طرح عابر، بل يُعَدّ مرجعًا صريحًا يوضح اللوازم الفكرية للإلحاد، أي ما يترتب منطقيًا على إنكار وجود الخالق.

وليس هدفه الجدال مع خصوم الإلحاد، بل توجيه رسالة مباشرة للملاحدة أنفسهم، وكأنه يقول لهم: *"لقد اخترتم الإلحاد... وهذه هي لوازم مذهبكم التي لا مفر منها"!*

ومن أخطر ما قرره في هذا السياق قوله: *"في الحقيقة، لا وجود لحرية الإرادة... نحن فقط تفاعلات كيميائية". انتهي*

بمعنى: لو كنت ملحدًا صادقًا مع اختياراتك الفكرية، فعليك أن تنسى تمامًا أنك حر. عليك أن تؤمن بأنك مجرد آلة تسير وفق تفاعلات كيميائية، بلا قرار، بلا اختيار، بلا مسؤولية.

روزنبرج لم يأتِ بجديد عشوائي، بل التزم بالمنطق الطبيعي للإلحاد: لو كان الكون كله مادة صمّاء، والمادة لا تفكر ولا تختار، فلا بد إذن أن الإنسان أيضًا بلا اختيار، بلا حرية.

وانظر أيضًا إلى الفيزيائي الملحد ستيفن هوكينغ، الذي قال:

"من الصعب رؤية كيف يمكن للإرادة الحرة أن تعمل لو أن سلوكنا محكوم بقانون فيزيائي؛ لذا يبدو أننا لسنا أكثر من ***آلات بيولوجية وأن الإرادة الحرة مجرد وهم"***

(***Stephen Hawking, The Grand Design, New York: Random House Publishing Group, ٢٠١٠, p.٣٢***).

مأزق العدالة والمسؤولية

لكن هنا تبدأ الكارثة... إذا لم يكن للإنسان إرادة حقيقية، فكيف نحاسبه أصلًا؟

تخيّل قاتلًا يذبح الأبرياء، فتقول له" *:أنت مسؤول"*

فيجيبك بمنطق مادي صرف" *:آسف... لم يكن هذا قراري، إنها مجرد تفاعلات كيميائية دفعتني"* .

وتخيّل خائنًا يبرر غدره بنفس الجملة...

أو لصًا يسرق ثم يقول" *:لم أختر... أنا مجرد مادة صمّاء"* .

إذا صحّ هذا المنطق، ينهار كل شيء: لا عدالة، لا قانون، لا مسؤولية.

الندم يصبح وهمًا، والضمير خدعة، وكل ما نسميه "أخلاقًا" ليس إلا نتاج تطوّر أعمى بلا معنى حقيقي.

لكن لحظة... هل يستطيع أي إنسان أن يعيش بهذا التصوّر فعلًا؟

إذا لم تكن حرًّا: لماذا تشعر بالندم؟ لماذا يؤلمك الضمير؟ لماذا تعتذر؟ ولماذا يدور داخلك هذا الصراع المستمر بين الخير والشر؟

هذا الإحساس الداخلي ليس وهمًا عابرًا... بل تجربة يومية قاهرة.

الفطرة تكذب الإلحاد في كل لحظة، بل أنت الآن—وأنت تقرأ—تشعر أنك تختار: تكمل... أو تتوقف.

روزنبرج لم يكتب تلك الكلمات عن اقتناع قلبي، بل عن إلزام منطقي: "لو أنكرت الخالق... فلابد أن تقبل أنك بلا إرادة." ، لكن الإنسان—مهما حاول—لا يستطيع أن يعيش بهذا التناقض: ينكر الحرية في الفلسفة... ثم يثبتها في كل لحظة من حياته!

القرآن يؤكد حرية الإنسان واختياره

القرآن جاء ليؤكد الحقيقة التي تشهد بها فطرتك: أنك حر، مسؤول، مكرم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ *الإنسان: ٣*

أي أن الطريقين واضحان... والاختيار لك.

وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ *البلد: ١٠* طريق الخير وطريق الشر... وأنت صاحب القرار.

وقال: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ *الكهف: ٢٩* حرية كاملة... لكن مع تحمّل العاقبة.

ولأنك حر، فأنت مسؤول. ولأنك مسؤول، فأنت مكرم، ولست كآلة أو بهيمة. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ *(الإسراء: ٧٠)*

الخلاصة العقلية

١. الإرادة الحرة حقيقة أولية، معروفة بالفطرة وبالضرورة العقلية.

٢. المادة لا تملك إرادة، ولا تستطيع أن تمنحها لأي كائن.

٣. إنكار الإرادة يلغي المسؤولية الأخلاقية ويهدم معنى العدالة.

٤. الفكر الإلحادي يجد نفسه أمام مأزق: إما إنكار الحرية تمامًا، وهو ما يصطدم بالواقع والفطرة.

٥. وجود الإرادة الحرة يشكّل دليلًا حاسمًا على وجود خالق، وهب الإنسان العقل والضمير والحرية، لأنه لا توجد إرادة بلا واهب للإرادة.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا **(١)** إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا **(٢)** إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ **(٣)** الإنسان

***

المبحث الثاني : برهان العقل الواعي ؟

هناك سؤال بسيط في ظاهره... لكنه عميق إلى حدّ مدهش:

كيف وُلِد العقل؟

نحن لا نتحدث عن الجسد، ولا عن الخلايا، بل عن هذا الشيء الذي يفكّر الآن... الذي يسأل، ويحلّل، ويتأمل.

بحسب النظرة المادية، الإنسان في جوهره مادة، تشكّلت عبر سلسلة من التفاعلات العشوائية، لكن هنا يظهر السؤال الذي لا يمكن تجاوزه: كيف خرج من هذه المادة شيء ''يعرف''؟ كيف ظهرت فينا القدرة على التفكير، لا مجرد التفاعل؟

كيف نشأ الوعي... حتى أصبح الإنسان يسأل:

من أنا؟

لماذا أنا موجود؟

وماذا بعد الموت؟

هذه أسئلة تتجاوز الواقع المادي نفسه، فهل يمكن لمادة صمّاء—لا تعي ولا تدرك—أن تُنتج كائنًا يسأل عن الغيب، ويبحث عن المعنى، ويتطلّع إلى الخلود؟

هنا يتوقف التأمل... لأننا لا نتعامل فقط مع تفاعلات كيميائية، بل مع عقل ''يدرك...'' ووعي ''يشعر...'' ونفسٍ ''تسأل.''

العقل ليس مجرد أداة... بل نافذة على شيء أعمق.

بين المخ والعقل الواعي

هناك فرق جوهري لا يمكن تجاهله ولا الهروب منه:

•المخ :عضو مادي محسوس. مثل القلب والمعدة. يُرى بالعين، ويُوزن، وتُقاس شحناته الكهربائية، ويمكن أن تصفه بالأرقام والمواد والأنسجة.

•أما العقل ...فشيء آخر تمامًا لا يُوزن... لا يُقاس... لا يُرى تحت ميكروسكوب ومع ذلك هو أقوى ما فيك.

العقل هو الذي: يفكر... يخطط... يربط بين الأفكار... يتخيل ... يبتكر ... يميّز بين الخير والشر... ويحاكم الأشياء بمعنى وغاية وهدف.

وهنا يظهر السؤال الذي لا يمكن الهروب منه:

هل تستطيع أن تنكر أنك تمتلك عقلًا واعيًا؟

هل يمكنك أن تقنع نفسك أنك مجرد ''حفنة ذرات'' تتحرّك بلا قصد...

بينما أنت تعلم تمامًا أنك حين تكتب، أو تخترع، أو تقرّر... فأنت تفعل ذلك بإرادتك واختيارك؟

أنت لا ''تتفاعل'' فقط... بل تفكّر.

لا ‘‘تتحرّك’’ فقط... بل تختار.

لا ‘‘تُنتِج’’ فقط... بل تبتكر.

وهذا ليس ادعاءً نظريًا... بل تجربتك اليومية المباشرة، التي تعيشها في كل لحظة.

تجربة لا يستطيع أحد أن ينكرها عليك... ولا يمكنك أنت أن تهرب منها.

وهنا يطرح الفيلسوف الأمريكي جون سيرل **مشكلة الوعي** وتناقضه مع المذهب المادي الفيزيائي، قائلًا:

"أتباع المذهب الطبيعي منزعجون من وجود كيانات عقلية (أو ذهنية) غير قابلة للاختزال؛ لأنهم أخطأوا التفكير في هذا السؤال، إذ يظنون أنه متسق منطقيًا ويحتاج إلى جواب، وهو: كيف يمكن لأجزاء مادية صغيرة غير واعية أن تنتج وعيًا؟"انتهي

ويرى سيرل أن هذا السؤال نفسه غير متسق منطقيًا، **لأن المادة غير الواعية لا يمكن أن تُعطي ما لا تملك.**

(**Searle, J. (١٩٩٤)** ***The Rediscovery of the Mind***. **Cambridge, MA: MIT Press, p. ٥٥**)

وأما عن كوننا كائنات عاقلة تفهم الكون وتقيم حضارة، فيتساءل ستيفن هوكينج متعجبًا، فيقول:

"إن حقيقة أننا نحن البشر – **الذين هم في النهاية مجرد تجمعات من جسيمات الطبيعة الأساسية** – قد اقتربنا من فهم القوانين التي تحكمنا وتحكم الكون، تُعد انتصارًا عظيمًا". انتهي
(**Hawking & Mlodinow**, ***The Grand Design***, **p. ١٨١**)

مثال بسيط يفضح الحقيقة

رغم أن الوعي تجربة بديهية نعيشها في كل لحظة**...** ، لكن دعنا نقترب أكثر بمثال بسيط من حياتنا اليومية:

أنت تقرأ هذه الكلمات الآن، ما تراه أمامك ليس سوى أشكالٍ مادية: حروفٌ مصطفّة، حبرٌ على ورق، أو ضوءٌ على شاشة.

لكن ما الذي يحدث داخلك حقًا؟

أنت لا تتعامل مع أشكالٍ صامتة، بل **تفهم، وتربط، وتستحضر معنى يتجاوز هذه الرموز.** الحرف في ذاته لا يحمل معنى محسوسًا... هو مجرد شكل، ومع ذلك، يظهر في وعيك شيء لا يُرى ولا يُلمس: الفهم، فأين يوجد هذا ‘‘المعنى’’؟ وأين يحدث هذا ‘‘الإدراك’’؟

فلو قلنا إن كل ما يحدث هو مجرد تفاعلات مادية، فسنكون أمام صورة بسيطة جدًا: إشارات كهربائية تتحرك بين خلايا الدماغ، لكن هذه الإشارات في حد ذاتها لا تفهم شيئًا... هي فقط تنتقل.

هنا يظهر السؤال: كيف تتحول هذه الإشارات الصامتة إلى معنى مفهوم؟

الفكرة ببساطة: المادة تنقل... لكنها لا تعي.

نحن لا نعيش كإشارات تتحرك، بل **كأشخاص يشعرون ويفهمون ويختارون**، وهذا الجانب من حياتنا—جانب الوعي والمعنى—أعمق من أن يكون مجرد تفاعلات مادية فقط.

وبالتالي السؤال الآن ليس هل لدينا وعي بذواتنا؟ فهذا أمر بدهي لا يُنكر، بل السؤال الحقيقي هو :**كيف وُجد هذا الوعي أصلًا؟** كيف خرجت من مادة ميتة قدرةٌ على التفكير الحيّ؟ وكيف انبثق من ذرات لا وعي لها ولا إدراك عقلٌ يسأل عن الوجود، ويتأمل الغيب، ويبحث عن المعنى، ويرسم قوانين الكون؟

فالمادة — مهما طال عليها الزمن وتعقّد تركيبها — لا تُنتج إدراكًا ولا وعيًا؛ لأنها تفتقد ذلك أصلًا، وفاقد الشيء لا يعطيه.

نحن نعرف سلوك المادة: تتحرك وفق قوانين ثابتة، وتتفاعل بلا قصد ولا فهم ، أما الوعي، فشيءٌ مختلف تمامًا: إدراك، ومعنى، واختيار، لذلك، فوجود العقل الواعي ليس مجرد نتيجة لمادةٍ عمياء، بل هو شاهدٌ واضح على أن وراء هذا الوجود خالقًا عليمًا، أودع في الإنسان الفهم، والذكاء، والمعنى، والقدرة على السؤال.

"ننتقل الآن إلى فكرة أخرى للبرهان من رؤيه مختلفة".

حين تنظر إلى أي برنامج أو نظام ذكاء اصطناعي على جهازك، لا يخطر ببالك لحظة أن «الذرات رتّبت نفسها» وكتبت الأكواد وحدها. أول ما يقوله عقلك ببساطة: وراء هذا النظام عقل بشري صمّم، وبرمج، ونظّم، وربط بين أجزاء معقدة بدقة مذهلة.

الذكاء الاصطناعي — وهو مجرد محاكاة لقدرات الإنسان — لم يأتِ من فراغ، بل جاء من علماء ومهندسين وفِرق بحثية عملت لسنوات طويلة. فإذا كان نظامٌ يُقلّد العقل يحتاج عقلًا ليصنعه... فكيف بالعقل الحقيقي نفسه؟

هل يمكن لمادةٍ بلا وعي، أو لصدفةٍ عمياء، أن تُنتج هذا المستوى من الفهم والتعقيد؟

نحن لم نرَ يومًا نظامًا ذكيًا ينشأ من فوضى بلا توجيه، فكيف بالعقل البشري، وهو أعقد وأعمق من أي نظام صنعناه؟

فالعقل البشري هو أعقد منظومة نعرفها:

•شبكات عصبية تضم أكثر من مئة مليار خلية، ترتبط فيما بينها بتريليونات الوصلات، في شبكة تفوق أي نظام صنعه الإنسان تعقيدًا.

•كل خلية عصبية ليست مجرد وحدة بسيطة، بل نظام دقيق يستقبل ويعالج ويرسل الإشارات في جزء من الثانية.

•ذاكرة قادرة على تخزين بلايين المعلومات: أصوات، صور، وجوه، لغات، وتجارب تمتد عبر سنوات طويلة.

•قدرة مذهلة على التعلّم ، ووعي يتجاوز حدود المادة، فيسأل: من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وما غاية الوجود؟

فمن الصعب تصور أن «الزمن الأعمى» أو «العشوائية» وحدهما يمكن أن يُنتجا نظامًا بهذه الدرجة من الدقة والتعقيد؛ فالمعروف عن الزمن أنه يُفكّك ولا يُنظّم، ويُضعف ولا يُحكم البناء.

نحن نراه يُهلك الأجساد تدريجيًا، ثم يُحلّلها إلى تراب، ويحوّل العمران إلى أطلال، لا أن يرفعه من الفوضى إلى الإتقان، ونراه في أبسط صور الحياة: فالوردة تذبل بعد نضارتها، والثمار تفسد بعد نضجها، والحديد يأكله الصدأ مع الوقت، والآلات تتهالك كلما طال استخدامها.

فكل ما يمر عليه الزمن يتجه نحو التآكل والاضمحلال، لا نحو مزيد من التنظيم والكمال، فكيف يكون ما يُفسد بمرور الوقت هو نفسه ما أنشأ أعقد ما نعرفه: العقل الواعي؟

الخلاصة: العقلُ هديةٌ من الله

العقلُ هو هِبةٌ إلهية منحها الله للإنسان حين خلقه، وكرّمه، ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفتَه في الأرض.

ومن دلائل هذا التكريم أن الله أعطاه عقلًا يميّز ويتفكّر، ويتأمّل ويختار، ويهتدي إلى الحق إذا صدق في طلبه.

فالإنسان لم يُمنَح عينًا ميكروسكوبية كالتي تملكها الحشرات الدقيقة، ولا بصرًا تلسكوبيًا خارقًا كعين الصقر—ومع ذلك استطاع بعقله أن يصنع الميكروسكوب الكهربائي الذي يرى به بكتيريا

وفيروسات لم تكن تُرى قط، واستطاع أن يصنع التلسكوبات العظيمة التي تكشف «سُدُمًا» تحتاج إلى تضخيم قدرته البصرية ملايين المرات ليُدركها.

ولم يُمنَح الإنسان سمعًا خارقًا يسمع الذبذبات العالية والمنخفضة كما تفعل بعض الحيوانات، لكنه استطاع بعقله أن يخترع أجهزةً تُسمِعه أصواتًا قادمة من أميال، وكأنها تُقرع فوق طبلة أذنه، وأن يسجّل وقعَ أشعة الشمس نفسها.

وهنا يتجلّى المعنى الأعمق: إن هذا العقل الذي يكتشف ويُبدع، لا يمكن أن يكون صدفةً عمياء، ولا أثرًا بلا مُؤثِّر.

إن إبداع العقل شاهدٌ على مُبدعه، وآثار الحكمة دليلٌ على الحكيم، وكل ما في الإنسان من قدرةٍ على الفهم والتصميم والابتكار، ليس إلا أثرًا من آثار نفخة التكريم الإلهي فيه.

قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)

***

وقبل الانتقال إلى المبحث القادم، لنلخص سريعًا ما سبق، مع التركيز على الرد على خرافة التطور المادي الداروينيي، في أربع نقاط أساسية.

١- التركيب الوراثي المعقّد :

كل الكائنات الحية — من أبسطها إلى أعقدها — تحمل شفرة وراثية دقيقة مليئة بالمعلومات المنظمة.

هذه الشيفرة يستحيل أن تنشأ من مجرد ذرات كربون أو هيدروجين تجمّعت عشوائيًا؛ لأنها تحتوي على آلاف التعليمات المشفَّرة، وكأنها كتاب مكتوب بلغة محددة. فالعشوائية لا تكتب كتبًا، ولا الذرات العمياء تضع قوانين دقيقة.

٢- الوعي والإرادة الحرة :

الإنسان يمتلك وعيًا ذاتيًا وإرادة حرة حقيقية. وهذا بُعد لا يمكن تفسيره من خلال المادة الصمّاء، حيث لا وجود للإرادة الحرة في عالم الذرات والتفاعلات الكيميائية.

فالتطور المادي يعجز تمامًا عن الإجابة :من أين جاءت الإرادة الحرة؟ وكيف خرجت من ذرات لا تعرف حرية ولا اختيارًا؟

٣- العقل والإبداع :

الإنسان يمتلك عقلًا واعيًا قادرًا على التأمل، التحليل، واتخاذ القرارات المعقدة. هذا العقل لا يقتصر على مجرد معالجة المعلومات، بل يبدع ويبتكر، ويحوّل المعرفة إلى اختراعات وحضارات.

فكر في قدرة الإنسان على اكتشاف قوانين الطبيعة، ابتكار الأجهزة، تأليف الكتب، وابتكار اللغات لنقل الأفكار. كل هذه القدرات لا توجد لدى أي كائن آخر، فهي تتجاوز حدود المادة، وتدل على أن الإنسان ليس مجرد نتيجة للتفاعلات الكيميائية العشوائية، بل هو كائن ذو بُعد فريد وفائق التنظيم والإبداع.

إن العقل الإنساني قادر على ابتكار أفكار ومفاهيم تتجاوز ما تراه العين أو تدركه الحواس ، وتخطيط المستقبل، وحل المشكلات المعقدة بطريقة لا يمكن لأي حيوان محاكاتها. هذا يوضح بجلاء الفرق بين الإنسان وكل الكائنات الأخرى، ويؤكد أن وجود الوعي والإبداع مرتبط بالخالق الحكيم الذي وهب الإنسان هذه الموهبة الفريدة.

٤- قوانين الفيزياء ضد التطور العشوائي :

إنّ القانون الثاني للديناميكا الحرارية — وهو أحد القوانين القطعية في الفيزياء — ينصّ على أن الأنظمة الطبيعية تميل مع مرور الزمن إلى الفوضى والانحلال لا إلى التنظيم والتعقيد.

فكل نظام منظَّم يتجه نحو الاضطراب مع الزمن، ولا يمكن أن يتحول تلقائيًا من البسيط إلى الأعقد، أو من الفوضى إلى النظام، دون تدخّلٍ واعٍ وموجّهٍ خارجيٍّ يعيد ترتيب مكوّناته.

ولهذا يستحيل أن يتحول كائن بسيط — كالدجاجة أو الفأر — إلى إنسانٍ أعقد وأرقى.

ولهذا السبب، لا نجد حيوانًا ارتقى ليخترع أو يؤسس حضارة، أو يصنع لغةً ذات قواعد ومعانٍ مجردة كالإنسان.

فاللغة البشرية — بتركيبها وقواعدها ودلالاتها — تُعدّ من أعظم الشواهد على تفرّد الإنسان، إذ تمكّنه من التعبير عن الأفكار والمشاعر، ونقل المعارف، وبناء العلوم والفنون، بينما تبقى وسائل التواصل عند الحيوانات محدودةً في نطاق إشارات غريزية وأصوات بسيطة تعبّر عن حاجات فورية لا أكثر، ولا يمكنها بناء علم أو ثقافة أو حضارة.

والأشد استحالةً أن تتحول المادة الميتة الصمّاء مع مرور الزمن إلى معجزة اسمها الحياة، بما فيها من وعيٍ وإرادةٍ وعقل.

فالزمن لا يخلق حياة، والعشوائية لا تنتج نظامًا، وإنما الذي أوجد الحياة من العدم هو الخالق الحكيم الذي قدّر كل شيء فأحسن تقديره.

هذا القانون العلمي لا يثبت فقط استحالة التحول من الأدنى إلى الأعلى، بل يتفق أيضًا مع علم الحفريات الذي يبرهن بوضوح على غياب الكائنات الوسيطة.

ما المقصود بالكائنات الوسيطة؟

هي تلك الكائنات الافتراضية التي يُفترض — بحسب نظرية التطور العشوائي — أن تمثل مراحل انتقالية بين نوع وآخر، ككائن نصفه قرد ونصفه إنسان، أو نصفه سمكة ونصفه زاحف، فلو كان التطور صحيحًا، لكان من اللازم أن يمتلئ سجل الحفريات بملايين الكائنات الانتقالية، بحيث تمثل كل خطوة من خطوات التطور التدريجي المزعوم، لكن الواقع أن سجل الحفريات خالٍ تمامًا من أي كائن انتقالي، ولم يُعثر فيه إلا على كائنات مكتملة الأنواع منذ أول ظهورها.

وليس علم الحفريات وحده من يكشف هذا النقص، بل الواقع المشاهد أيضًا.

فنحن لم نرَ يومًا كائنًا حيًا في حالة انتقالية: لم يُشاهد إنسان له ذيل مثل القرود، ولا حيوان تطوّر مثلا عبر الزمن حتى أصبح قادرًا على اختراع التكنولوجيا أو إقامة حضارة. ولم تُرَ دجاجة تكتب كتابًا أو تخاطب فيلسوفًا بلغته.

بل إن كل نوع باقٍ على خصائصه وحدوده التي خُلق بها، دون أن يتجاوزها أو يتحول إلى نوع آخر.

(ما ذكرته آنفًا من علم الأحافير والواقع المشاهد وغيرهما، إنما هو لمحة سريعة وإشارة موجزة فحسب؛ فالأدلة على بطلان وخرافة التطور أكثر من أن تُحصَر في هذه الصفحات. غير أني التزمت في هذا الكتاب أن يكون مبسطًا قدر المستطاع. ولمن أراد التوسع والاطلاع على الأدلة الأخرى المفصلة، فليرجع إلى أعمال علمائنا الأفاضل، مثل الدكتور سامي العامري، والدكتور هيثم طلعت حفظهما الله، وغيرهما من الباحثين الذين نفع الله بهم الأمة)" .

تنويه :نشير هنا إشارةً عابرةً فحسب إلى أن الاستحالة لا تقف عند حدود تحوّل المادة العمياء إلى كائن حي معقد للغاية، بل تتجاوزها إلى السؤال الأكبر :وجود المادة نفسها من العدم !، وهي من أعظم المعجزات، كما يقول الله عز وجل :﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (مريم : ٩)

وهو ما سيأتي بيانه مفصّلًا في باب الخلق (الباب الثالث: خلق الكون) بإذن الله.

والآن، وبعد هذا التلخيص الموجز، نعود إلى موضوعنا الأساسي في هذا الفصل، وهو الحديث عن الأبعاد غير المادية في الإنسان، فقد تناولنا من قبل الإرادةَ الحرة، والعقلَ الواعيَ

المبدع، ونصل الآن إلى البعد الثالث الأسمى في الإنسان؛ ذلك البعد الذي يُظهر سموَّ روحه ورفعة معدنه، وهو بُعد القيم الأخلاقية.

***

المبحث الثالث: إذا كانت المادة لا تشعر – فمن أين جاءت الرحمة؟

برهان الأخلاق

حين نتأمل في أنفسنا كبشر، لا نجد فقط عقلًا يفكر وإرادة حرة تختار، بل نجد شيئًا أعجب وأعمق :الرحمة، والعدل، والتضحية، والضمير، والشعور بالذنب، والحب غير المشروط، والميل لنصرة المظلوم ورفض الباطل.

هذه الصفات لا تُرى ولا تُلمس، لكنها حاضرة في أعماق النفس الإنسانية بقوة تفوق المحسوسات.

مثل حيّ: الرحمة

انظر إلى الأم وهي تجري على طفلها الجريح، تحتضنه وتبكي من ألمه كأنه ألمها، وانظر إلى الأب الساهر بجانب ابنه المريض، يتألم بصمت ولا يقدر على النوم، بل وانظر إلى إنسان لا يعرفك، لكنه يُعرّض نفسه للخطر من أجل إنقاذك.

السؤال: من زرع قيمة الرحمة في قلب الأم؟ من أين جاء هذا الدافع الغريب الذي يجعل إنسانًا يضحي بنفسه من أجل آخر؟

الفكر المادي والإلحاد... والتناقض الكبير

الملحد، كما رأينا في البراهين السابقة، مجبر على الإيمان بأنه مجرد "تجمع عشوائي للطبيعه الماديه"، وأن كل مشاعرنا ليست إلا نتيجة حتمية لسلوك المادة.

لكن هذا التفسير يحمل تناقضًا واضحًا، لأن المادة – بطبيعتها – لا تملك أي قيم اخلاقيه كصفه الرحمة وحب العدل ورفض الظلم وغيرها فالمادة قد تتحرك أو تتفاعل أو تتفتت... لكنها لا تشعر، لا تحب، لا تعطف، ولا تحمل ضميرًا.

ولهذا، لا تتعجب أن الإلحاد مضطر – في جوهره – إلى إنكار وجود القيم الأخلاقية أصلًا، إلا إذا اعترف بوجود مصدر غيبي فوق مادي زرع فينا هذه القيم، والإرادة، والوعي، وسائر المعاني العليا.

وفي هذه الحالة، لو اعترف نقول له: **مبارك، لقد آمنت بالغيب!**

لكن لأنهم لا يؤمنون بالغيب، بل يؤمنون بالطبيعة وحدها – أي الكون بما يحتويه من مادة وطاقة لا أكثر – فقد اضطروا من البداية إلى خطوة أخطر: إنكار الإرادة الحرة.

ثم إذا استمروا في نفس البناء المنطقي، يصلون بالضرورة إلى إنكار القيم الأخلاقية ذاتها ، فتتحول الأخلاق عندهم إلى مجرد أوهام بلا **أصل مُلزِم ولا قيمة حقيقية.**

ورغم أن هذا الكلام قد يبدو للبعض "صادمًا" أو حتى "غير معقول..."

إلا أنه في الحقيقة ليس إلا النتيجة المنطقية الوحيدة المتسقة مع هذا المذهب إذا أُخذ بجدّية حتى النهاية، ولهذا فهم يتعمدون إخفاء هذه اللوازم عن العامة حتى لا تنفر الناس منهم.

ولذلك علق الدكتور سامي عامري فقال :

"الملحد الحقيقي كائن لم يكن ولن يكون ما كان الانسان الذي نعرفه هوا ذلك الانسان حتي قيل انه إذا أرادوا أن يحتفلوا بعيدٍ للملحدين، فليكن في الأول من أبريل، الموافق لكذبة أبريل". انتهي

حتى الفلاسفة الملحدون اعترفوا بالعجز

وقد أقرّ بهذا التناقض بعض رموز الإلحاد أنفسهم، مثل الفيلسوف أليكس روزنبرغ، الذي أوضح في كتابه ***The Atheist's Guide to Reality*** – وهو كتاب يشرح نتائج الإلحاد على فهم الواقع والقيم – أن:

"لا يوجد شيء اسمه الصواب أو الخطأ الأخلاقي. الحياة البشرية الفردية بلا معنى ولا قيمة أخلاقية نهائية. علينا أن نواجه حقيقة أن العدمية صحيحة".

كلامه هذا يكشف المأزق بوضوح: فإذا كان الإنسان – في نظرهم – مجرد نتاج لصدفة عمياء من الذرات والتفاعلات المادية، بلا قصد ولا غاية، فكل القيم الأخلاقية ليست إلا وهمًا، شعورًا عابرًا لا أصل له.

بل عبّر الفيلسوف الملحد جان بول سارتر عن حزنه لهذا الفراغ القيمي الملازم للإلحاد، فقال بصدق:

"إنّه لمن المحرج جدًا أن الله غير موجود؛ إذ إن كل إمكانية للعثور على **قيم في سماء الفكر تختفي مع اختفائه**".

(Existentialism is a Humanism, Yale University Press, p. ٢٨)

وهذا اعتراف ثمين: *حين تنكر وجود الله، تنكر معه كل أساس للقيم.*

لكن الحقيقة المباشرة التي نعيشها تُكذّب هذه الفكرة تمامًا

الرحمة... العدل... كراهية الظلم... احترام الضعيف... الشعور بالذنب عند الخطأ... هذه ليست أفكارًا فلسفية نقرأها في الكتب.

هذه بداهات داخلية، موجودة في كل الثقافات، وعند كل البشر، وفي كل الأزمنة.

أمٌّ تضم طفلها وتبكي لألمه، شابٌّ يقف دفاعًا عن مظلوم لا يعرفه، وإنسان يعترف بخطئه رغم قدرته على التبرير والهروب...

هذه المواقف ليست أفكارًا مجردة، بل مشاعر حيّة لا يستطيع الإنسان إنكارها، ولا يستطيع أن يعيش بدونها. وحتى لو حاول تجاهلها... فإن ضميره يظل يهمس له بالحقيقة.

فهل من المنطقي أن تكون هذه القيم النبيلة—كالرحمة والعدل والضمير—مجرد نتيجة لتفاعلٍ ماديٍّ أعمى؟ هل يمكن لذراتٍ صامتة أن تُنتج قلبًا يشعر، ويهتزّ لألم الآخرين؟

إن هذه المعاني لا تُرى ولا تُلمس، لكنها حاضرة في أعماق كل إنسان، تفرض نفسها عليه دون تعليمٍ مسبق.

فمن أين جاءت إذًا؟ من أين جاءت هذه الشرارة الأخلاقية التي لا تُختزل في مادة ولا تُقاس بميزان؟

الجواب الأقرب إلى الفطرة: أن هذه القيم لم تنشأ صدفة، بل زُرعت في داخل الإنسان، كأثرٍ من رحمةٍ وعدلٍ أسمى، **يوجّهه ويذكّره بما ينبغي أن يكون ، فالرحمة في الإنسان ليست مادة تُفسَّر تفسيرًا كيميائيًا، بل أثرٌ يدلّ على الرحيم سبحانه وتعالى..**

وقد بيّن لنا النبي ﷺ أن هذه الرحمة التي نراها في الدنيا ما هي إلا جزء صغير جدًا من رحمة الله تعالى، فقال:

"جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه". *(رواه البخاري ومسلم)*

فإذا كانت كل مشاهد الرحمة التي نعرفها في الأرض – كلها دون استثناء – ليست إلا جزءًا واحدًا فقط من مائة، فكيف تكون إذًا رحمةُ مَن أمسك عنده تسعةً وتسعين جزءًا؟ وكيف بعظمة أرحم الراحمين سبحانه، الذي وسعت رحمته كل شيء؟!

والآن ننتقل إلى رؤية البرهان، ولكن من زاوية أخرى...

المعضلة الثانية: نسبيّة الأخلاق عند غياب الإله

غياب المعايير الثابتة عند الماديين : حين يقول لك أحدهم" *لا وجود لرب*" ، فاسأله مباشرة: حسنا... من غير رب فوق الجميع، من الذي يحدد ما هو صواب وما هو خطأ؟ ومن يضع الميزان؟

إن لم يكن هناك إله، فلن يكون هناك "حق مطلق" ولا "خطأ مطلق."

وبالتالي يصبح واضع القوانين الوحيد هو البشر أنفسهم... والبشر محدودون، نسبيون، تحكمهم الأهواء والمصالح.

يعني: ما ينفعني = صواب، ما يضرني = خطأ ، ما يعجبني = مقبول، ما يضايقني = مرفوض.

لكن لو كل إنسان وضع لنفسه ميزانًا خاصًا، فأين القانون الذي يحكم بين الناس جميعًا؟ من يمنع القوي من استغلال الضعيف إذا رأى أن ذلك "حقه الطبيعي"؟

من دون ربٍّ أعلى، لا وجود لقانون أخلاقي ثابت، ولا لمعيار مشترك، ولا لعدالة حقيقية.

كل شيء يصبح نسبيًا، وهو ما يُعرف بالنسبيّة الأخلاقية: أن تتحول القيم إلى آراء متقلبة، لا حق فيها ولا باطل، ولا خير ولا شر مطلق يَسري على الجميع.

النسبيّة الأخلاقية... خطر على الحضارة

في الفكر الإلحادي، تصبح الأخلاق لعبة متغيّرة: تتبدل من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر، بل وحتى من شخص لآخر.

قد يرى أحدهم الغدر "ذكاء." ويعتبر آخر الخيانة "حرية شخصية." ويجعل غيره الكذب "وسيلة نجاح."

وطالما لا يوجد إله يقول: "هذا حلال وهذا حرام"، فمن يحاسب إذن؟ ومن يملك أن يقول: "هذا ظلم مطلق" أو "هذا شر مطلق"؟

الخلاصة :إذا غاب الله عن الصورة، غابت الأخلاق الحقيقية من الوجود، وبقيت "القيم" مجرد مصالح مؤقتة لا تردع ظالمًا ولا تنصف مظلومًا. وهذا ما نراه بوضوح في عالم اليوم، حيث تسود القوة والمصلحة بدل الحق والعدل.

النازية... حين سقطت الأخلاق مع غياب الإله

هذه ليست مجرد نظرية فلسفية تُناقَش في الكتب؛ بل واقع دموي عايشته البشرية.

فالنظام النازي نشأ من رؤية مادية داروينية ترى الإنسان مجرد "مادة متطورة"، وتعتبر الحياة صراعًا للبقاء للأصلح، وأن الضعفاء والفقراء والمرضى عبء على مسيرة التطور.

والنتيجة كانت كارثية: ملايين أُبيدوا في معسكرات الموت، أطفال خضعوا لتجارب طبية قاسية بلا رحمة، معاقون قُتلوا باعتبارهم "شوائب جينية." والحرب العالمية الثانية التهمت أكثر من ٧٠ مليون إنسان.

هذه التجربة تكشف بوضوح أن غياب الإيمان بإله يضع معيارًا أعلى للخير والشر، يؤدي في النهاية إلى سقوط القيمة المطلقة، وغياب الرحمة، وانهيار معنى الإنسان ذاته.

وقد عبّر الفيلسوف الملحد أليكس روزنبرغ عن هذا الانهيار القيمي بكل صراحة في كتابه *دليل الملحد إلى الواقع*، إذ أكد أن:

"لا وجود لخير مطلق ولا شر مطلق، وأن الإلحاد لا يعطي أساسًا لأي حكم أخلاقي."

وعندما سُئل عن مسائل مثل الإجهاض، أو القتل الرحيم، أو الانتحار، أو الضرائب، أو غيرها، هل هي محرّمة أو مسموحة أو واجبة، كانت إجابته صادمه : "**كل شيء جائز**".

(Alexander Rosenberg, The Atheist's Guide to Reality, pp. ٢–٣)

بل واعترف روزنبرج أنه يلزم من الإلحاد العجز عن إدانة مجرمي التاريخ الحديث مثل: هتلر، ستالين، ماو، بول بوت، أو غيرهم، لعدم وجود أرضية أخلاقية تسمح بذلك.

وكذلك يعترف جان بول سارتر –في آخر حياته – بأن الإلحاد يجرّ بالضرورة إلى إلغاء الخير والشر، ويقول: "لقد احتفظتُ في مجال الأخلاق بشيءٍ متعلّق بوجود الله، وهو الخير والشر كمُطلَقين... فالنتيجة الطبيعية للإلحاد هي النسبية".

Simone de Beauvoir, *La Cérémonie des Adieux*, p.٥٥١

✦الواقع يكشف الحقيقة: القيم الأخلاقية موجودة... وموضوعيّة

على اختلاف الشعوب والحضارات، يبقى هناك قاسم أخلاقي مشترك بين البشر جميعًا:

رفض الظلم، وكراهية الخيانة، واحترام الوالدين، واستنكار القتل بغير حق.

حتي الأطفال يشعرون بها قبل أن يتعلموا: يكذب... فيشعر بالخجل، يؤذي غيره... فيعرف أنه أخطأ، يمدّ يده لشيء ليس له... فيتردد، هذا هو الضمير :بصمة فطرية لا تفسير لها داخل عالم المادة.

وتأمّل مثالًا واضحًا: **رجل يقتل أمّه ويتلذذ بذبحها**.

هل نحتاج فلسفة أو قانونًا لنحكم على فعله؟ أبدًا.

ندرك فورًا أن هذا شر حقيقي، وأن القبح في هذا الفعل ليس ''رأيًا شخصيًا'' ولا ''اختلاف ثقافة''، بل حقيقة لا يستطيع العقل إنكارها.

هذا الإدراك الفطري العالمي يثبت أن الأخلاق ليست مجرد أذواق... بل حقائق موضوعية ثابتة: الظلم شر، العدل خير، الرحمة جمال، الخيانة قبح.

وهنا يظهر البرهان الحاسم: إذا كانت القيم الأخلاقية حقًّا موجودة وثابتة، فلا بد لها من مصدر أعلى، مشرّع فوق البشر، ليس مادّة ولا طبيعة عمياء.

فالمطلق الأخلاقي لا يصدر إلا عن إلهٍ حكيم، يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، ويزرع الرحمة في القلوب.

وبذلك... وجود الأخلاق الموضوعية في الإنسان هو أحد أقوى الأدلة على وجود الله.

✦المأزق الإلحادي: الاعتراف أم الإنكار...

الملحد يقف هنا أمام مأزق حقيقي لا مهرب منه:

•**إن قال إن الأخلاق نسبية**: فهذا يعني – بالضرورة – أنه لا يوجد أي فعل خاطئ موضوعيًا: لا قتل، ولا ظلم، ولا خيانة، ولا إبادة جماعية، وهي نتيجة لا يقبلها أي إنسان سوي بالفطرة.

ولنضرب مثالًا يكشف خطورة هذا القول: إذا رأى ملحد – لا يؤمن إلا بالمادة والكيمياء – رجلًا يتلذذ بذبح طفلٍ صغير، فبأي معيار مادي يستطيع أن يقول ''هذا خطأ''؟ الكيمياء لا تُصدر أحكامًا أخلاقية... والجزيئات لا تقول: هذا عدل وهذا ظلم،

وفق مبدأ ''النسبية الأخلاقية''، لا يمكنه الاعتراض على هذا الفعل .

ولهذا رأينا كبار الملاحدة يقعون في تناقضات مُحرِجة: يبرّرون الإجهاض والقتل الرحيم... وبعضهم – كما اعترفوا هم – لم يستطع حتى إدانة جرائم هتلر، لأنهم يزعمون أنه "لا توجد قيم مطلقة للخير والشر."

•**وإن قال إن هناك خيرًا وشرًا موضوعيَّين:** فقد اعترف — من حيث لا يشعر — بأن هناك قانونًا أخلاقيًا أعلى، والقانون لا يمكن أن يوجد بلا مشرّع أعلى، وهنا يظهر التناقض بوضوح: الملحد يُنكر وجود القيم المطلقة نظريًا... لكن إذا ظُلم، أو أُهين، أو سُرق حقُّه، انفجرت فطرته تصرخ: "هذا ظلم! أين العدل؟"

وكأنه يبحث عن نفس القيم التي أنكر وجودها قبل لحظات.

خاتمة المبحث: البرهان الأخلاقي دليل على وجود الله

يمكن النظر إلى البرهان الأخلاقي من زاويتين واضحتين:

الزاوية الأولى: المادة وحدها لا تُنتج قيمًا كالخير أو الشر، ولا قوانين الفيزياء تفسّر الرحمة أو العدل أو الضمير. هذه المعاني أعمق من أن تكون مجرد نتائج لتفاعلات مادية عمياء؛ إنها بصمة الله في فطرة الإنسان، وإشارة إلى أن وراء الكون خالقًا غرس هذه القيم في نفوسنا لتكون هاديًا وميزانًا.

الزاوية الثانية: إذا كانت الأخلاق مجرد عادات بشرية نسبية تتغير من مجتمع لآخر، فلا وجود لخير حقيقي ولا شر حقيقي، بل تصبح كلها آراء شخصية.

حينها يصبح العدل رأيًا، والظلم رأيًا، ولا يبقى معيار ثابت يُحتكم إليه.

لكن الواقع الإنساني يكشف العكس:

نحن ندرك بوضوح أن هناك فرقًا بين العدل والظلم، وبين الصدق والكذب، وبين الرحمة والقسوة. ووجود هذا الإحساس الأخلاقي الثابت في البشر يدل على وجود **ميزان أعلى من الإنسان**، ليس مصدره المادة، بل مصدره أمر إلهي يحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون.

فإذا غاب الله، غاب معه أي معيار موضوعي للخير والشر، وأصبحت الأخلاق مجرد تفضيلات نسبية لا قيمة ملزمة لها.

لأن المرجعية حينها ستكون للبشر المحدودين ، وهم نسبيون بطبيعتهم، تحكمهم الأهواء والمصالح، وهي متغيرة بطبيعتها.

وما نراه في العالم اليوم من اختلاف المعايير، وتبدّل القيم، كافٍ للدلالة على ذلك، فلا حاجة لإطالة البيان.

وفي هذه الحالة يتحول العالم إلى مادة بلا معنى أخلاقي، ويصبح الحكم فيه للقوة لا للحق، وتضيع الفطرة في فوضى النسبيّة.

ولا أظن أن عقلًا سليم الفطرة يمكن أن يقبل بهذا التصور إلى النهاية، حيث تُمحى حدود الخير والشر، ويضيع الإنسان في فوضى النسبيّة.

ومن هنا ومن هنا ندرك أن الإيمان بالله ضرورة فطرية وعقلية في آنٍ واحد؛ فهو وحده الذي يمنح الأخلاق معناها، **ويجعلها ملزمة**، ويثبت الفطرة التي فطر الله الناس عليها: **فطرة ترفض الظلم، وتحب العدل، وتبغض الغدر**.

كما قال الله تعالى:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ} [الروم: ٣٠]

ونلخص برهان الإرادة الحرة والأخلاق بقول روبرت هورتونه نامبرون – إقصائي في الرياضيات (حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كوريل – باحث في جامعة برنستون، وفي معهد برنستون للدراسات العليا)

"إني أعتقد بوجود الله لأنه وهبني التميز الأخلاق، فالجنس البشرى لديه إحساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب. وكما يقول لويس في كتابه «قضية المسيحية»: "قد تختلف أفكارنا ومع ذلك فإننا جميعاً ندافع عن حقوقنا ونُناشد العدل".

وأيضا إن اعتقادي في الله يقوم أيضاً على حرية الإرادة وذكائها – الإرادة الإنسانية التي وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التي تقود الإنسان إلى اتخاذ قرار معين، الإرادة التي هي أحد الأقسام الكبرى التي يقسم علماء النفس قوى العقل إليها (القوتان الأخريان هما الإدراك والشعور). فأنا عندما أرغب أو أريد شيئاً معيناً يتخذ عقلي قراراً به، وإرادتي هي التي تنفّذه.

ويختلف الإنسان في جميع هذه الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى؛ فهو خليفة الخالق على الأرض، ولعل هذا هو عين ما يعنيه القديس بول بقوله: «إن للإنسان نشأة مقدسة".«

انتهى كلام روبرت هورتونه نامبرون، وهو مقتبس من كتاب *الله يتجلّى في عصر العلم*.

ولذلك فإن القيم الأخلاقية هي جزءٌ من الخِلقة التي أودعها الله في الإنسان. فكلّ ضميرٍ يستيقظ عند رؤية الظلم، وكلّ قلبٍ يتحرك لنصرة الضعيف، وكلّ روحٍ تنفر من الغدر... هو شاهدٌ فطريٌّ على وجود إلهٍ حكيمٍ غرَس هذه المعاني في النفس ثم دعاها إلى السموّ بها.

وهذا المعنى يشهد له قول الله تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ — الشمس(١٠-٧)

فالله غرس في النفس نور التمييز بين الخير والشر، ومنحها حرية الإرادة، لتسلك بها دروب الفضيلة وتعلو بها في مراتب الكمال.

***

المبحث الرابع : الفطرة: صرخة القلب التي لا تُكذَّب

أولًا: ماهية الفطرة

الفِطرة هي الاستعداد الأولي الذي يولد به الإنسان لمعرفة الله، ومحبته، والإقرار بربوبيته. هي النقطة العميقة التي تبدأ منها الروح رحلتها في الوجود، قبل أن تغطيها ثقافات المادّية وصخب الأفكار وتراكمات الحياة.

ولهذا قال النبي ﷺ: "ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (متفق عليه)

فالأصل واحد :معرفة الله.

والتغيير يأتي من الخارج: البيئة، والتربية، والأفكار، والشبهات، والشهوات، أما الداخل... فمُهيّأ دومًا لتلقّي المعرفة الأعلى مهما تراكم عليه الغبار.

كلام ابن القيم في حقيقة الفطرة : يشرح ابن القيم – رحمه الله – هذه الحقيقة بأوضح بيان، فيقول:

»كل مولودٍ فإنه يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية؛ فلو خُلّي وعدم الموانع؛ لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة«...

وهذه ذات الفكرة التي عبّر عنها اللاهوتي جون كالفن بما سماه: **Sensus — divinitatis —** الإحساس الإلهي

وهو الشعور الداخلي العميق بوجود الله؛ ذلك الإحساس المتعالي عن المادّة، المغروس في أصل النفس، والذي يجعل وجود "ملحد صرف" أمرًا غير منسجم مع تكوين الإنسان نفسه.

ويؤكد الفيلسوف ألفين بلانتنغا أن الإيمان بالله موجود بالقوة في النفس، وينتقل من القوة إلى الفعل عندما يقع تماسّ بين طبيعة الإيمان الكامنة في الإنسان وبين العالم الخارجي؛ فيُستحثّ هذا الإيمان ليظهر ويعمل.

تغطية الفطرة — برهان كونها قيمة متعالية عن المادّة

الإنسان يولد على الفطرة، لكن هذه الفطرة قد تُغطّيها التربية والبيئة والشبهات والشهوات، وقد تُثقله تقلبات النفس والصراعات الداخلية.

ومع ذلك... فإن الفطرة لا تموت؛ بل تبقى كامنة تحت السطح تنتظر لحظة سقوط الأقنعة.

والمحنة — بما فيها من خوف واضطرار — تعمل في النفس عمل المطرقة على الجدار؛ تُسقط ما تراكم من الشبهات وتكشف الطبقة الأصلية تحتها :طبقة الفطرة.

ولهذا ينسى الإنسان عند الخوف الحقيقي كل ما تعلمه من فلسفات ونظريات، ويعود تلقائيًا إلى الحقيقة الأولى دون تعليم أو تفكير.

قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥)

تبيّن الآية أن المشركين، رغم عبادتهم للأصنام، كانوا إذا أحاط بهم الهلاك في البحر تركوا كل شيء ولجؤوا إلى الله وحده؛ لأن الشدة تكشف الصوت الأصيل داخل النفس.

فالفطرة، مهما غُطّيت بالشرك أو الجدل أو الفلسفات، تعود للظهور في لحظة الخوف الحقيقي حين تسقط جميع الأقنعة.

ولهذا لا ينادي أحد عند الموت" :يا مادة "!أو "يا صدفة"!

بل تخرج الصرخة المغروسة في الروح منذ بدايتها" :يا رب."!

فالفكر قد ينحرف... أما الفطرة فلا تخطئ طريقها.

قصة جعفر الصادق والسفينة

جاء رجل ينكر وجود الله إلى الإمام جعفر الصادق، فسأله:

هل ركبت سفينة يومًا؟ نعم، وهل لعبت بك الأمواج وظننت الهلاك؟ نعم.

في تلك اللحظة... هل كان في قلبك أملٌ أن هناك من سينقذك ؟ نعم، لكني لا أعلم من هو.

فقال له الإمام : "**ذلك هو الله... الذي تلجأ إليه فطرتك عند الشدة دون أن تدري.**" انتهي

الفطرة تعرف الطريق... حتى حين يضلّ الفكر. ولقد شهد التاريخ والحروب على هذه القاعدة: حين تنهمر القذائف ويقترب الموت، لا وقت للفلسفة ولا للنقاشات الوجودية. تصعد من القلوب صرخة واحدة" :يا رب"!

ولهذا قال قائد عسكري في الحرب العالميه الثانيه : "**لا يوجد ملحدون في الخنادق**".

التاريخ يشهد — العبادةُ فطرةٌ لا تزول

عبر تاريخ البشرية كلّه، منذ أوّل إنسان إلى آخر حضارة، لم تُعرَف أمّةٌ بلا عبادة.

كل الشعوب — بلا استثناء — آمنت بوجود قوةٍ أعلى:

•فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الشمس أو النار، ومنهم من عبد الملوك كفرعون. لكنَّ القاسم المشترك بين الجميع: أنّ الإحساس بوجود إلهٍ أعلى لم يغب عن الإنسان يومًا. وقد أكّد ذلك المؤرّخ اليوناني «بلوتارك» قبل ألفَي عام حين قال:

»يمكننا — لو عَبَرْنَا العالم — أن نجد مُدنًا بلا أسوار، ولا آداب، ولا ملوك، ولا ثروة، ولا نقود، ولا مدارس أو مسارح؛ ولكن لم يرَ الإنسانُ قط مدينةً بلا معابد أو عباد«.

فالعبادةُ ليست فكرة طارئة ؛ إنها جذور ممتدة في أعماق الروح، وغريزة مزروعة في صميم الإنسان ، ومن هنا كان الإيمان بوجود قوةٍ عاليةٍ فوق الطبيعة — قوةٍ تتجاوز الأسباب وتضبط الوجود — حقيقةً مشتركة بين البشر جميعًا، على اختلاف أمكنتهم وأجناسهم وعصورهم.

ويقول الفيلسوف الفرنسي برغسون: "لقد وُجدت — وتوجد — جماعاتٌ إنسانية بلا علوم ولا فنون ولا فلسفات؛ ولكن لم توجد قط جماعاتٌ بلا ديانة". انتهي

ويقول أرنست رينان في *تاريخ الأديان*:

»يمكن أن يضمحلَّ كلُّ ما نحبّه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة؛ ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجةً ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية«. انتهي

وهكذا... فإن منطق الفطرة نفسه يهدي إلى الله.

وليس هذا فقط... فحتى الأطفال مفطورون على الإيمان

فالعبادة ليست ظاهرة تاريخية فحسب، بل مزروعة في الإنسان منذ لحظته الأولى في الحياة.

وقد نشرت صحيفة تلجراف البريطانية في نوفمبر ٢٠٠٨م نتائج بحث أكاديمي عن الأطفال بعنوان: "الأطفال يولدون مؤمنين بالله."

وقد خلُص البحث إلى أن نزوع الأطفال إلى الإيمان بخالق وبحكمة وراء الكون نزوع عميق، ساكن في النفس الإنسانية، ومستغنٍ عن التلقّي الخارجي أو تأثير المجتمع.

وأورد البحث قول الدكتور جستن بارت ـــ الباحث في مركز الأنثروبولوجيا والدماغ بجامعة أوكسفورد ـــ إن الصغار لديهم قابلية كبيرة للإيمان بالله لأنهم يفترضون أن العالم مخلوق لغاية.

وأكد جستن بارت أن الإيمان الديني للأطفال عميق جدًا، حتى إنه لو تُرك أطفال في جزيرة نائية فسيتجهون تلقائيًا إلى الإيمان بالله، ف الواقع الطبيعي وحده محفّز على الإيمان، حتى دون أي تعليم خارجي.

وهنا ينتهي المحور الأول من المبحث، حيث رأينا أن الإنسان مزروع بداخله ميل فطري نحو اللجوء إلى الله، يظهر جليًا عند الشدة، وحتى الأطفال مفطورون على الإيمان كما ذكرنا.

والآن ننتقل إلى جانب آخر من نفس البرهان، نفس المبحث، لكن من طريق آخر، وهو الميل الفطري للإنسان نحو الأبدية.

فالإنسان يشتاق إلى الخلود، ويرفض أن يظل مجرد كائن زائل بلا معنى ولا غاية.

الفطرة ليست مجرد صرخة وقت الشدة... بل هي نداء داخلي دائم يشتاق إلى الأبدية.

الإنسان ليس مفطورًا على الإيمان بوجود إله فحسب، بل مفطور على الخلود، على الأبدية، الإنسان لا يكتفي بمجرد العيش، بل يريد أن يبقى.

في أعماق كل واحد منا هناك صرخة لا تهدأ: "أنا لم أُخلَق لأفنى".

الموت يطاردنا جميعًا، ومع ذلك، لا أحد يتعامل مع فكرة الفناء كما لو كانت أمرًا طبيعيًا مقبولًا.

حتى من يزعم أنه "يتصالح مع العدم"، تفضحه لحظة الحقيقة: قلبه يرفضه، وروحه تتمرد عليه.

وهذا دليل جوهري: لو كنا أبناء صدفة عمياء، ولو كانت نهايتنا التراب فقط... فمن أين جاء فينا هذا التوق العميق إلى الخلود؟ المادة لا تعرف معنى، ولا خلودًا، ولا تحلم بأبدية.

إذن، من أين جاء هذا الشوق الذي يسكن قلوبنا؟!

الخلود: زرعٌ إلهيّ في القلب

الحنين إلى الأبدية ليس وهمًا عابرًا... هو جزء أصيل من فطرة الإنسان.

مشهد الغريق يفضح الحقيقة: انظر إلى أي إنسان يغرق، حتى المنتحر الذي ألقى بنفسه في البحر هروبًا... حين يدخل الماء، يبدأ غريزيًا يصارع ليطفو ويمد يده طلبًا للنجدة، رغم أنه أقدَم على الانتحار، هذا يوضّح أن شهوة البقاء والخلود أقوى من أي قرار عقلي أو رغبة في الموت، وأن "حب البقاء" ليس فكرة مكتسبة، ولا ترفًا فلسفيًا، بل هو فطرة فطرنا الله عليها.

لذلك تجد القرآن يكشف لنا هذه الحقيقة، حين يروي عن غواية إبليس لآدم:

﴿هَل أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾]طه: ١٢٠[

آدم عليه السلام انجذب لهذا الاغراء لأنه – مثلنا – مفطور على طلب البقاء، على التطلع إلى حياة لا تنتهي، هذا الاشتياق للأبدية هو غرس إلهي في أعماق النفس.

وهم العدم... وصرخة الروح

من يُنكر الأبدية يعيش بلا معنى، حيث لو كان لا إله، فلا خلود ولو كان لا خلود، فلا غاية. وكل ما نبنيه من حضارات وأحلام وتضحيات... يصبح "لا شيء" !

ولذلك يقول الفيلسوف الملحد برتراند راسل بصدق مؤلم:

"حياتي كلها قائمة على أساس من اليأس، لأن كل أمالي وأحلامي ستُدفن تحت حطام هذا الكون الخَرِب".

الإلحاد يصطدم بالروح

المادّة — بطبيعتها — لا تعرف أبدية، ولا غاية، ولا معنى، لكن داخل كل إنسان شيءٌ لا يخضع لقوانين المادّة :الروح.

منذ اللحظة الأولى، تهمس الروح في أعماق الإنسان: "لم أُخلق لأفنى... إنني أبحث عن الخلود".

ولهذا يفشل الإلحاد أمام الفطرة مهما بدا قويًّا؛ فالملحد قد يصرّ بلسانه" :*لا شيء بعد الموت*"، لكن أعماقه تقول شيئًا آخر تمامًا: "*هناك غاية... وهناك استمرار... وهناك حياة بعد هذه الحياة*".

إن الشوق إلى الأبدية ليس خيالًا فلسفيًا ولا فكرة اخترعها البشر، بل هو صوت فطري مزروع في كل روح، لا يستطيع أحد إسكاتَه مهما حاول.

ولا يفسّر هذا الصوت شيءٌ سوى الإيمان بالله؛ فهو سبحانه خالق الروح، وهو الذي أودع فيها حبّ البقاء، ووعدها بحياةٍ لا موت بعدها:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧–٣٠)

أمّا الإلحاد، فإنه ينكر وجود الروح لأنها ليست مادة وبذلك يعجز — بالضرورة — عن تفسير أشواقها، وخوفها، وأحلامها، وحنينها إلى الخلود.

ونختم بما ذكره الدكتور سامي عامري بين نظره الإسلام والإلحاد، وهذا سيكون مبحثًا في آخر الكتاب إن شاء الله، ولكن نذكر هنا مقاله ليتضح أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا ويرضي بلا إله.

يقول الدكتور سامي:

"يُقرر القرآن في صريح آياته أنَّ الإنسانَ زرعٌ عظيمٌ في هذا الوجود؛ خُلِقَ ليعمر الأرض ويتعارف مع الخلق، ويعبد الرب، وهو إلى التنعيم إن استقام ولم يُعقب على فطرته بحُكْم.

وأما في سفر الإلحاد؛ فالإنسانُ يُولَدُ ليكون **جيفةً إثر ترقٍّ بيولوجي**؛ مبدؤه جنبات الرحم، ونهايته مع انقطاع الأنفاس... **خُلِقَ ليَمُوت، ويموت لأجل لا شيء**... أنفاسٌ تلهث إلى القبر بلا رجاء، وخطوات تسير به حثيثًا إلى الفناء... الموت: **انتصار حتمي للكيمياء على البيولوجيا بعودة الإنسان إلى التراب**... قوانين صامتة تحرك الوجود بلا عينين، وانحدار سريع وحثيث إلى هاوية الفراغ".

ويقول أيضًا: "فِطرة الإنسان من فِطرة الوجود، فكلٌّ يسير في فلك واحد، في طريق واحد. أما **الإلحاد فهو التعبير عن عشوائية الوجود وتشتّته الكريه، الذي يُكدِّر صفوه الأول**". انتهي

فهل ترضى فِطرتك بما يقتضيه هذا العبث؟ هل ترضى أن تحيا بلا غاية، وبلا خلود، وبلا عدلٍ تُستردُّ فيه الحقوق؟ هل يطمئن قلبُك إلى العدم؟ وهل يقبل إنسان — أيّ إنسان — أن تكون نهايته فراغًا باردًا لا معنى له؟ أخبرني: كيف يمكن للإنسان أن يعيش مطمئنًا وهو يعتقد أنه

لا جزاء ولا حساب، وأن كل ما يقع في الدنيا من ظلم وقهر ومآسٍ سينتهي إلى «لا شيء»؟!

الفطرة — بطبيعتها — لا تستقرّ ولا تهدأ إلا بالآخرة؛ هناك فقط يكتمل العدل، وتستعيد النفوس حقّها، وتطمئن الأرواح إلى مصيرها.

ولهذا لا نجد عند الملاحدة حقيقةً ما يطمئن الفطرة، بل نجد التوتر الوجودي، والخوف من العدم، والبحث المستمر عن معنى لا يقدّمه الإلحاد.

وقد وقف كثيرٌ من كبار الملاحدة أمام هوّة العدم مرعوبين، يُعلنون — من حيث لا يشعرون — أن فِطرتهم تأبى هذا الفراغ، وأن قلوبهم تنجذب بقوة إلى معنى أعلى، إلى إله، إلى غاية.

فهذا ألبير كامو، أحد أعمدة الوجودية الملحدة في القرن العشرين، يقول:

»**ثِقَلُ الأيام مخيفٌ لكل امرئ يعيش وحده... من غير إله ومن غير سيّد**«.

ويعترف أيضًا: "**لا شيء بإمكانه أن يُخمد الجوعةَ لما هو إلهيٌّ في قلب الإنسان**"«. انتهي

إنها شهادة الفطرة، شهادة الروح التي لا تستطيع — مهما غُطِّيت — أن تنكر حاجتها لربها، ولا شوقها للخلود، ولا رفضها للعدم.

ويقول الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت:

»إني — مع شعوري بالنقص في ذاتي — أحسّ في الوقت نفسه بوجود ذاتٍ كاملة، وأراني مُضطرًّا إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذاتُ الكاملة ، المتحلية بجميع الصفات الكاملة، وهي الله«. انتهي

خاتمه المبحث

ويُلخّص ابن القيم – رحمه الله – حقيقة الفطرة وحاجة القلب إلى الله بقوله:

»في القلب شعث لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا، وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبته ودوام ذكره... ولو أُعطيَ الدنيا وما فيها لم تُسدّ تلك الفاقة أبدًا«. انتهي

هذه هي الفطرة... القيمة المتعالية على المادّة... والصرخة الصادقة التي لا تكذبها النفس مهما حاول الفكر أن يغطيها أو يطمس نورها.

لقد غرس الله في داخلنا الشوق إليه، وغرس في قلوبنا حبّ الأبديّة لنرجو ما عنده، ولذلك يرفض الإنسان — بفطرته — فكرة الفناء، ويرفض أن يكون مجرد "ماده" بدأت من العدم لتنتهي إلى عدم.

فأعمق ما في الإنسان يصرخ بأن للحياة معنى، وأن وراء هذا الوجود غايةً وهدف وحساب.

كيانك كله يشهد بأنك مفطور على عبادة الله، مخلوقٌ له، محتاجٌ إليه، فقيرٌ بين يديه، وتشتاق روحك أن تعود إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢)

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧—٣٠

الفصل الثالث حين يتكامل الخلق ويهتدي من تلقاء نفسه

المبحث الأول : برهان الزوجية والتكامل في الخلق

بعد كل ما رأيناه من الإعجاز في خلق الإنسان، ومن ذلك النظام الداخلي الدقيق الذي يعمل رغم أنه ابن تربه الأرض، ومن الشيفرة الوراثية التي تُعد أعظم برنامج عرفه الكون، ومن العقل الواعي، والإرادة الحرة، والضمير الأخلاقي الذي لا تملكه المادة، ومن النداء الفطري الذي يصرخ من أعماقك عند الشدة: "يا رب..."

لكن الإعجاز لا يتوقف عند خلق كائن حي واحد، بل يتضاعف حين نجد أن الخلق جاء في نظام زوجي متكامل ، وهنا يظهر برهان آخر أكثر وضوحًا على الحكمة الإلهية في الخلق :**برهان الزوجية والتكامل**.

حيث نجد أن الخلق جاء في نظام زوجي متكامل، كأن هناك تصميمًا ثنائيًا متقابلًا يعمل بانسجام مطلق: **ذكر و أنثى**

جسدان مختلفان تمامًا، نفسيتان متباينتان، تركيبات هرمونية وغريزية متعاكسة**...**

لكنها تصنع منظومة واحدة لا تعمل إلا إذا اكتمل الطرفان.

ولو لم يُخلق الذكر والأنثى في نفس الحقبة، وفي نفس البيئة، وبنفس الخصائص المتقابلة، وفي نفس نظام التكاثر لانقطعت الحياة من أول لحظة.

فهل يُعقل أن ''الطبيعة العمياء'' رتّبت كل هذا بلا قصد، بلا حكمة، ولا علم؟

مشهد عقلي مبسط: القفل والمفتاح

تخيّل الآتي:

- في صحراء (١)، تجمعت ذرات حديد صدفة فكوّنت مفتاحًا.
- وفي صحراء (٢)، بعد آلاف الكيلومترات، تجمعت ذرات أخرى فكوّنت قفلًا.
- وبعد فترة زمنية، التقى المفتاح بالقفل، وفتح القفل تمامًا... وكانا متطابقين بنسبة **١٠٠!%**

هل يُعقل هذا؟ بالطبع مستحيل .

فإذا كان هذا مستحيلًا في قطعة حديد بسيطة، فكيف بكائنين حيّين كاملين... جسدًا ونفسًا وروحًا؟

("قاعدة عقلية بدهية : "كلما زاد التعقيد، امتنعت العشوائية". فإذا كان من المستحيل تكوين ساعة صدفة، فإن تكوين شيء أعقد مثل الهاتف المحمول من تلقاء نفسه يصبح أمرًا مستحيلًا أكثر فأكثر وهكذا وهذه القاعدة نتأكد منها يقينًا من خلال مراقبتنا لسلوك الطبيعة المادية أمام أعيننا!).

والآن، ننتقل إلى التكامل العجيب بين الذكر والأنثى

التصميم هنا ليس شكليًا فقط، بل شاملًا:

أولًا: التكامل الجسدي الدقيق

الذكر صُمّم ليعطي: خصيتان و قناة منوية وملايين الحيوانات المنوية وهرمون التستوستيرون

الأنثى صُممت لتستقبل وتحتضن وتُربي: مبيضان و رحم و بويضات و جهاز هرموني حساس

كل جهاز في أحدهما، مصمّم بدقة ليقابل جهازًا في الآخر... كأن كل منهما "نصفُ كتلة هندسية" لا تكتمل إلا بالثاني.

ثانيا : معجزة التلقيح — اللقاء الذي لا يخطئ موعده

الحيوان المنوي مبرمج ليسبح لمسافة ضخمة بالنسبة لحجمه، نحو هدف محدد، البويضة تُطلق إشارات كيميائية توجّهه وتستقبله في الوقت المناسب، وعند دخول واحد فقط... تُغلق فورًا كأنها تقول" :هذا هو."

من الذي كتب هذا السيناريو؟ مَن أخبر كل طرف متى ينطلق؟ ومتى ينتظر؟ ومتى يفتح ومتى يغلق؟

وهذا الإعجاز يتكرر بنفس الدقة في كل جيل، منذ آلاف السنين بلا انقطاع

ثالثا. البرمجة الهرمونية

- في البلوغ، يتفجر التستوستيرون في جسد الذكر: صوت أخشن، عضلات أوضح، ميول للقيادة والمنافسة.
- في الأنثى، يتفجر الإستروجين والبروجستيرون: صوت أنعم، جسد أنثوي، ميل للاحتواء والعاطفة.

من دفع كل واحد للآخر دون وعي منهما، ويدفعهما بالفطرة نحو التكامل ؟!

رابعًا: التكامل النفسي والروحي — المعجزة التي لا تُرى

الإعجاز في الزوجية لا يقتصر على الجسد ووظيفته، بل يتجاوز ذلك إلى النفس العميقة عند كلٍّ من الرجل والمرأة.

فلكلٍّ منهما تركيب نفسي خاص، ونزوع داخلي مميّز، صُمِّم ليكتمل بالآخر.

فالذكر يميل بطبيعته إلى الفعل والمبادرة والحماية وتحمل المسؤولية، ويرتاح حين يُطلَب منه ويُقدَّر دوره.

بينما تميل الأنثى فطريًا إلى الحنان والاحتواء والدعم، وتطمئن حين تجد الأمان والمودة والحب.

وهكذا، نجد أن كل نفس خُلِقت وفيها فراغ لا يملؤه إلا الآخر؛ نظام نفسي داخلي يعمل في صمت، ويدفع الإنسان نحو التكامل، ليس تكاملًا جسديًا فقط، **بل تكاملًا نفسيًا وروحيًا وعاطفيًا**.

وهذا ما عبّر عنه القرآن بأوجز وأعمق بيان: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]

فالمودة والرحمة ليستا مجرد مشاعر عابرة، بل نظامٌ دقيقٌ مُحكم، يُستكمل به الإنسان، وتستقر به النفس، ويقوم عليه كيان الأسرة.

وتأمّل هذه المشاعر العميقة التي تنشأ بين الزوجين: حبٌّ، وتعلّق، وسكينة، وارتباطٌ قلبيٌّ يتجاوز حدود الجسد.

كيف تتحول ذراتٌ لا تعقل ولا تشعر، إلى هذه المشاعر الحيّة التي تهزّ القلب، وتربط إنسانًا بإنسان بهذا العمق والود؟!

إنها ليست تفاعلات مادية عمياء، بل رزقٌ يُلقى في القلوب، وتصميمٌ نفسيّ وروحيّ مقصود.

ولذلك قال النبي ﷺ معبّرًا عن حبه للسيدة خديجة رضي الله عنها— في أصدق تعبير عن هذه الحقيقة:— "إني رُزِقتُ حبَّها" صحيح ابن حبان

وهكذا يتبيّن أن مشاعر الحب بين الزوجين ليست أمرًا عابرًا، بل آيةٌ قائمة بذاتها، وإعجازٌ خفيٌّ يُتمّ التكامل النفسي والروحي، كما يُتمّ التكامل الجسدي والوظيفي.

نلخّص: استحالة الصدفة في ظهور الزوجيّة

الإعجاز ليس في وجود ذكرٍ وأنثى فحسب، بل في أن كليهما: خُلقا في اللحظة نفسها، وُجدا في المكان نفسه، صُمِّما ليُكمّل أحدهما الآخر بدقّة، وزُرعت فيهما غريزة داخلية تدفعهما

إلى الالتقاء والاتحاد،وأُلقيت بينهما مشاعرُ المودّة والحبّ والسكينة، لتجعل هذا الاتحاد رغبةً وطمأنينة، لا مجرّد تفاعلٍ ماديّ.

فلو وُجد أحدهما قبل الآخر بملايين السنين، لانقرضت الحياة قبل أن تبدأ أصلًا.

ومن هنا يتبيّن أن جوهر الإعجاز هو أن الذكر والأنثى جاءا معًا، في وقتٍ واحد، بتصميمٍ واحد، ومن خالقٍ واحد.

النتيجة الكبرى :

اليوم نحن أكثر من ثمانية مليارات إنسان، كل واحدٍ منا وُجد لأن هناك ذكرًا وأنثى التقيا، واجتمعا بمودّةٍ وحبّ، كل جيل يخرج من زوجين يُكمّل أحدهما الآخر، وهذا التكرار الدقيق مستمر منذ بداية الخلق إلى يومنا هذا، فهل يُعقل أن تكون ذراتٌ عمياء رتّبت كل هذا؟!فإذا كان العقل لا يقبل أن يُصنع قفلٌ ومفتاحٌ بالصدفة فيتطابقان، فكيف بزوجين حيّين، متكاملين جسديًا ونفسيًا وعاطفيًا، يُنتجان حياةً جديدة، ويتكرّر هذا الإعجاز مع كل جيل؟

وقد لخّص القرآن هذا الإعجاز بآيةٍ جامعة مانعة:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥–٤٦]

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن الإعجاز في الزوجيّة ليس مقصورًا على الإنسان وحده، بل إن الكون كلّه قائم على هذا المبدأ العام: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] **ليبقى التفرد بالوحدانيّة المطلقة للخالق سبحانه وحده.**

وسنبيّن — بحول الله — في ختام الباب الثالث، حين تكتمل الصورة عن الكون والإنسان والكائنات الحيّة، ملامح هذه الزوجيّة العجيبة التي تجمعهم جميعًا.

***

المبحث الثاني: من خلية بلا عقل إلى إنسان مكتمل

برهان الهداية الفطرية في خلق الإنسان

كيف تُهدى خلية صغيرة لا عقل لها، ولا وعي، ولا إرادة... ثم تقوم — بلا خطأ ولا ارتباك — ببناء أعقد مخلوق في الكون :الإنسان؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي يقودنا مباشرة إلى قلب برهان الهداية الفطرية.

تمهيد البرهان

في عالم الأحياء، نرى مخلوقات في غاية البساطة؛ خلايا دقيقة لا تمتلك عقلًا، ولا تفكيرًا، ولا وعيًا، ومع ذلك تسلك سلوكًا منظمًا غائيًا، كأنها تعلم ما يجب أن تفعل، ومتى تفعله، وكيف تفعله.

• الخلية تعرف أين تذهب ،وتعرف متى تنقسم،وتعرف متى تتوقف، وتعرف وظيفتها قبل تتشكّل أعضاؤها أصلًا.

السؤال الأساسي

من الذي يوجّه هذه الخلايا، ويعطيها القدرة على القيام بأعقد المهام في مراحل تكوين الإنسان... وهي بلا عقل ولا وعي؟

هل الطبيعة العمياء الغير عاقلة تُنتج سلوكًا منظمًا؟

القرآن يختصر القضية كلها في آية واحدة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠)أي أن كل خلية خُلقت ثم هُديت لوظيفتها بدقة وإحكام .

جوهر البرهان : من النطفة الأولى إلى اكتمال الجسد، تعمل مليارات الخلايا في تناغم مذهل: خلية تُصبح دماغًا، وأخرى قلبًا، وثالثة عظمًا، ورابعة عينًا... وكل واحدة تعرف طريقها ووظيفتها.

مراحل البرهان : "من نطفة... إلى إنسان عاقل"

المرحلة الأولى: النطفة — البداية التي لا تُرى

•البداية ليست أكثر من نقطة دقيقة لا تُرى بالعين، تتكوّن من اتحاد حيوان منوي من الذكر مع بويضة من الأنثى.

•الحيوان المنوي نفسه أشبه بـ "كبسولة مبرمجة"؛ يسبح في سباق يشارك فيه ملايين، لكن واحدًا فقط يصل إلى البويضة ، وما إن يخترقها حتى تغلق البويضة أبوابها فورًا، وكأنها تقول: "اكتمل المقصود."

السؤال: من الذي أعطى الحيوان المنوي قدرة السباحة وسط ملايين العوائق؟ ومن الذي علّم البويضة أن تُفعّل آلية دفاعية فور حدوث الإخصاب؟ هذا ليس عبثًا... إنه نظام محكم من اللحظة الأولى.

وفي ذلك يعلق الدكتور سامي عامري — حفظه الله — في مقال حديث نشره على تويتر، حيث يقول:

المرحلة الثانية: الانغراس — البحث عن الغذاء

بعد أن اجتمع الحيوان المنوي مع البويضة، تكوّنت الخلية المخصبة الأولى (الزيجوت)، والتي تبدأ بالانقسام تدريجيًا لتكوّن كتلة صغيرة من الخلايا. هذه الخلية (النُّطْفَة) تبدأ رحلتها نحو الرحم، وكأنها تعرف هدفها مسبقًا.

وعند وصولها إلى بطانة الرحم، تبدأ الخلية المخصبة بالانغراس داخل جدار الرحم، فتتعلّق به وتبدأ في امتصاص الغذاء اللازم لنموها وبقائها على قيد الحياة. ومن هنا تنتقل من مرحلة النُّطفة

إلى مرحلة العَلَقة؛ وسُمّيت علقة لأنها تتعلّق بجدار الرحم وتعتمد في غذائها على ما يحيط بها من دمٍ وغذاء.

ولذلك نتأمل الإعجاز القرآني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]

فهي مراحل متتابعة، كل مرحلة في وقتها وبوظيفتها، في نظامٍ دقيق يدل على هدايةٍ سابقة وتدبيرٍ محكم، لا عبث فيه ولا مصادفة.

السؤال: من علّم هذه الخلية المخصبة طريقها نحو الغذاء، وحدّد لها موضع رزقها بدقة؟

يقول الله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]

المرحلة الثالثة: الانقسام — بلا قائد ولا مدير!

•تبدأ الخلية الأولى في الانقسام بسرعة مذهلة: ٢، ثم ٤، ثم ٨، ثم ١٦... حتى ملايين الخلايا.

العجيب أن هذه الخلايا لا تتشابه:

- بعضها يصبح خلايا دماغ، بعضها خلايا قلب، بعضها خلايا كبد، وبعضها عظام، جلد، أعصاب، عضلات... كل خلية تعرف وظيفتها ومكانها بدقة مطلقة.

مثال مذهل: خلايا العين — وهي خلايا متخصصة جدًا — تهاجر إلى موقعها الصحيح في الوجه. ولو وضعت هذه الخلايا في القدم مثلًا؟ ستنمو، لكن بدون أي وظيفة!

هل يوجد "مصنع" يعمل فيه ملايين العمال، كل واحد يعرف دوره ومكانه وزمنه بدون قائد، ولا مدير، ولا غرفة تحكم؟!

هذا ما يحدث داخل جسدك منذ اللحظة الأولى لتكوينك.

وفي وسط هذا المشهد المذهل من الانقسام والتنظيم، لا تتحرك الخلايا بلا هدف، بل تعمل وفق الشيفرة الوراثية (**DNA**) التي سبق أن بيّنا إعجازها في سابقا، هذه الشيفرة هي "كتاب التعليمات" الذي يحدد لكل خلية وظيفتها، وطريقها، وتوقيت عملها:

متى يبدأ القلب بالنبض، متى تتصل الأعصاب ببعضها، متى تتكون العظام، ومتى تُغلق الجمجمة...

وكل خلية جديدة تحصل على نسخة مطابقة من هذا الكتاب بدقة مدهشة، ولو حدث خطأ واحد في النسخ لاختل البناء كله.

فمن الذي كتب هذا الكتاب؟ ومن علّم الخلية أن تقرأه وتطبقه دون عقل ولا وعي؟ أهي الطبيعة العمياء؟ أم الخالق العليم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟

المرحلة الرابعة: القلب ينبض!

•في الأسبوع الرابع تقريبًا، يبدأ هذا القلب الصغير — الذي لا يتجاوز رأس الدبوس — بالنبض.

وكأنه "محرك مركزي" تلقّى أمر التشغيل، فيضخ الدم ويوصل الغذاء والأكسجين إلى الخلايا.

من الذي علّمه كيف يضخ الدم؟ ومن الذي أرشده إلى شبكة أوعية لم تتشكّل بعد بشكل كامل؟

إنه ليس مجرد عضو، بل أوّل إشارة إلى أن هناك مَن يُدير هذا الخلق خطوة بخطوة.

✦المرحلة الخامسة: برمجة دقيقة للدماغ والأعصاب — أعجب معجزات الخلق

في الأسابيع التالية يبدأ الجهاز العصبي في التشكل... وهنا ندخل أعقد مرحلة في بناء الإنسان:

•تتكون مئات الملايين من الخلايا العصبية، ثم تتصل ببعضها عبر شبكات أعقد من أعقد الحواسيب التي صنعها البشر.

•كل خلية عصبية تعرف "متى" تنقسم، و"إلى أين" تهاجر، و"مع من" تتصل، و"كيف" تعمل.

ليس هناك خلية تتوه، أو تتصل بالخطأ، أو تعمل خارج وقتها — وكأن هناك مهندسًا خفيًا يدير عملية البناء.

•الدماغ في هذه المرحلة ليس مجرد لحم رمادي... إنه مصنع تشغيل ذاتي:

- تُنشأ شبكات الذاكرة.
- تُبرمج مراكز السمع والبصر واللمس.
- تُبنى الوصلات التي ستتحكم في الحركة والتنفس ونبض القلب بعد الولادة.

والأعجب: أن معظم هذه الوصلات تتكون قبل أن يرى الجنين ضوء الحياة أصلاً.

إنها برمجة مسبقة، دقيقة إلى حدّ مذهل.

المرحلة السادسة: اكتمال الأعضاء — معجزة التنسيق

ومع مرور الشهور، ينمو الجنين عضوًا عضوًا: العين تتشكل من خلايا لا تبصر أصلًا، ثم تُربط بالعصب البصري الموصول مباشرة بالدماغ! ، الأذن تُنحت لتلتقط أدق الموجات الصوتية بعد الولادة ،العظام تُكسى باللحم في توقيت دقيق حدّده القرآن (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا) ،الأعصاب تمتد لتربط كل عضو بغيره، في شبكة لا يتوقف عملها لحظة.

إنها ليست عملية نمو عشوائية... بل هندسة كاملة محكمة.

المرحلة السابعة: الولادة — الخروج إلى الحياة

بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل، يتهيأ الجنين للانتقال من "عالم الرحم" إلى "عالم الحياة:"

- يبدأ الرحم بالانقباض بآلية تلقائية.
- يتخذ الجنين وضعية معينة — الرأس إلى أسفل — وكأنه تلقّى أمرًا بالتوجّه نحو بوابة الخروج.
- يُفتح مجرى الولادة تدريجيًا، وتتم العملية كلها بدون وعي من الأم أو الجنين.

كل قطعة، وكل حركة، وكل توقيت... تمّ وفق نظام دقيق لا يعرف العبث طريقًا إليه.

هذا ما وصفه القرآن بدقة مذهلة:

﴿فَجَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٣—١٤)

فالخلاصة أن:

هذه الرحلة من نطفة ميكروسكوبية إلى إنسان كامل تصرخ بحقيقة واحدة لا مفر منها:

- خلية بلا عقل، ولا وعي ...مستحيل أن تهتدي بنفسها لكل هذه المهام.
- ملايين الخلايا تعمل بانسجام عجيب، كل خلية تعرف مكانها، توقيتها، ووظيفتها بدقة لا تخطئ.
- كل ذلك يتم بتسلسل محكم، وبنظام مكرر، وبنفس الدقة في كل مولود، منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، كأن وراءه علمًا يُقدّر، وحكمةً تُدبّر، وقدرةً تُوجّه، إنها الهداية الربانية، والبرمجة الإلهية التي شهد بها القرآن:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وهنا تتجلّى الحقيقة واضحةً لا لبس فيها: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧—١٩]

***

خاتمة الباب: الإنسان... شاهد من داخله

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

بعد هذه الرحلة في أعماق خلق الإنسان، لا يمكن لعقل منصف أن يمرّ بهذه الحقائق دون أن يتوقف ويتأمل: كيف لمادة صمّاء، لا عقل لها ولا إرادة، أن تنتج هذا النظام الدقيق، والبناء المتكامل، والتصميم المذهل في جسد الإنسان؟

كيف تُكتب *الشفرة الوراثية* في كل خلية بدقة مدهشة، وتُنسَخ مرارًا بلا خطأ، كأنها تعي ما تصنع وتدرك وظيفتها؟

كيف تنبثق *الإرادة الحرة* من ذرات لا إرادة لها؟ من أين جاء فينا القرار والاختيار والنية؟

بل كيف وُجد هذا *العقل الواعي* الذي لا يكتفي بأن يعقل نفسه، بل يفكر ويبدع ويخترع، وهو — بزعم الماديين — ابن المادة؟ ثم من أين جاءت الأخلاق والضمير؟ من أين ظهر فينا الشعور بالعدل والخير والرحمة، حتى عند مَن لا يؤمنون بإله؟ من أين هذا القانون الأخلاقي الداخلي الذي نحاكم به أنفسنا وغيرنا؟

وفوق ذلك... ما سرّ هذا *النزوع الفطري* الكامن في أعماق كل إنسان نحو البحث عن الغاية، وعن الحق، وعن المطلق... نحو الله؟

ولم ينتهِ العجب عند هذا الحد... فالمادة العمياء كان يُفترض — إن صحّت دعاوى الماديين — أن تُنتج أشكالًا مبعثرة لا رابط بينها، ولكنها أخرجت من اللحظة الأولى ذكرًا وأنثى متكاملين، لولا اجتماعهما لانقطع النسل من بدايته.

ثم هذه النطفة الضئيلة، التي لا عقل لها ولا بصر، كيف اهتدت في ظلمات الرحم إلى أن تبني جنينًا متكامل الأعضاء، ثم طفلًا حيًّا، ثم شابًا ناطقًا مدركًا؟!

فكيف حدث كل هذا؟ أهي صدفة؟ أم مادة صمّاء أو قوانين عمياء؟ الجواب: لا هذا ولا ذاك.

بل هو جواب واحد يفرضه كل منطق، ويؤيده كل واقع، ويهتف به كل عقل سليم: أن في داخل الإنسان دلائل ناطقة لا يمكن تفسيرها إلا بوجود خالق عليم، حكيم، رحيم، مدبّر، هو الذي خلق فسوى، وقدّر فهدى.

وهكذا، لم يكن هذا الباب مجرد عرضٍ لفكرة نظرية، بل دعوة صادقة لأن نتأمل ما نراه ونعيشه في أنفسنا كل يوم. فإذا كانت عظمة الصنعة تدل على عظمة الصانع، فأي صنعة أعظم من صنعة الإنسان نفسه؟

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)

وهكذا يصبح كل إنسان، بمجرد كونه "إنسانًا"، آية تمشي على الأرض، تشهد بلسان حالها أن وراء هذا الخلق حكمة، ووراء هذا النظام هداية، ووراء هذا الوجود خالقًا... لا إله إلا هو.

والآن... انظر للطفل، انظر له جيدًا:

هذا الكائن الباسم، بكل تفاصيله، بجسده، بعينيه، بجلده، بابتسامته، بضحكته، ببراءته... ألا يكفي أن يكون دليلًا ناطقًا على عظمة الخالق سبحانه؟

هل خرج هذا الطفل من تربة الأرض وحدها؟ هل اجتمع الكربون والهيدروجين فصار ضاحكًا، شاعرًا، واعيًا؟ هل كتبت المادة هذا الجمال؟ هل صنعت الذرات هذه المعجزة المتكررة كل يوم؟

وأيضًا هناك معجزات أعظم لم نذكرها ... وعلى رأسها :**معجزة اللغة**.

كيف لهذا الصغير، في سنوات قليلة فقط، أن يتعلم النطق والتعبير والتواصل بلغات متعددة، بل ويتحدث البشر جميعًا بآلاف اللغات المختلفة عبر الأرض؟! وهنا يصدح القرآن بالحقيقة الخالدة: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: ٣-٤].

ولك – يا من تُنكر – طلب أخير: انظر إلى هذه الصورة وتأمل بصدق... كيف وُجد هذا الكائن؟ تفكّر بعقلك، واسأل نفسك بهدوء: هل المادّة العشوائية قادرة على إنتاج شيء كهذا؟

لك حرية الاختيار بعد ذلك، **مع أني أعلم أنك – بحسب مذهبك – لا تؤمن حتى بحرية الاختيار**، لأن الإرادة ليست من عالم المادة... ولا مكان لها في الذرات، لكن – على كل حال – انظر بعمق، وتأمل، وستكتشف أن هذه الصور تنطق بأكثر مما تقوله آلاف الصفحات، فقط أنصت لها بصدق... وستخبرك بالكثير

ولا أجد ختامًا أروع من ثلاث آيات من كتاب الله من سورة السجدة: **(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)(٩)**

***

الباب الثاني
حين تنطق المخلوقات بالهداية... أدلّة الله من عالم الحيوان والنبات

في هذا الباب، لا نعرض مشاهد من عالم الحيوان للدهشة أو التسلية فقط، بل نعرضها لنفتح نافذة على آية عظيمة من آيات الله في خلقه.

نحن لا ننظر إلى النحلة، أو النملة، أو العنكبوت، أو السمكة القنّاصة، أو حتى زهرة الأوركيد ككائنات غريبة فحسب، بل ننظر إليها كشهود ناطقة بالحكمة، وهداية مزروعة في الفطرة، وبرمجة تفوق أعقد أنظمة البشر:

- كيف خدعت زهرة الأوركيد ذكر النحل، فجعلته يلقّحها وهو يظن أنها أنثى؟
- كيف جمعت زهرة المطرقة بين الخداع البصري والكيميائي والهندسي في ساق واحدة؟
- كيف صار اليعسوب طيارًا دقيقًا يفوق الطائرات المقاتلة؟
- كيف تنكّر عنكبوت الأوركيد بهيئة زهرة لينصب فخًا قاتلًا؟
- كيف بنت النملة نظام تواصل بيولوجي مذهل يشبه شبكات الإنترنت؟
- كيف أتقنت السمكة القناصة قوانين الانكسار وأصابت فريستها من تحت الماء بدقة لا يقدر عليها الإنسان إلا بعد دراسة فيزياء الضوء؟
- كيف حسبت النحلة طريقها بأقصر مسار، وحلّت معضلة رياضية يعجز عنها الكمبيوتر؟

هذه الكائنات لم تتعلم من كتب، ولم تتلقَّ تدريبًا، ولم يشرح لها أحد ما تفعل، بل وُلدت مبرمجة، ملهَمة، مهدية.

إنه ليس مجرد سلوك، بل برهان، وليس مجرد غريزة، بل دليل على وجود خالق أعطى كل شيء خلقه ثم هداه.

هذا الباب هو دعوة للتأمل، لرؤية خيوط الهداية التي تصل ما بين الإنسان والحيوان لتقول بصوت واحد :وراء هذا الخلق هادٍ حكيم.

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

تمهيد بالقصة: الطفل حديث الولادة

تخيل معي طفلًا حديث الولادة منذ لحظات، هل يمكنك أن تعطيه مشرطًا وتطلب منه أن يجري عملية قلب مفتوح؟

بالطبع لا، لماذا؟ لأنه ليس لديه عقل ناضج، ولا فهم، ولا خبرة، ولا تعليم، ولا حتى وعي يجعله يفتح عينيه ويرى الدنيا بوضوح.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

حسنًا، لو الإنسان – الذي لديه عقل ولسان ومدارس – يحتاج وقتًا لكي يتعلم، فماذا عن الحيوانات والحشرات والنباتات؟

- فهي لا تمتلك عقلًا مثل الإنسان، ولا لغة، ولا إدراك، بل أضعف من الطفل حديث الولادة بمراحل، ومع ذلك نراها تقوم بسلوكيات معقدة، دقيقة، مدروسة، منذ أول لحظة في حياتها، فتجد الكائن الذي لا يملك عقلًا يقوم أحيانًا بأفعال تحتاج إلى: تخطيط هندسي ، حيلة عسكرية ، دقة طبية ، وبرمجة ذكية وهذا يجعلنا نسأل:

- من علّم هذه الكائنات؟ من فهمها كيف تتصرف هكذا؟ من برمجها على هذه التصرفات بدون تعليم أو تجربة؟ وكيف أن سلوكها يخدم هدفًا واضحًا بدقة مدهشة؟

ملاحظة :هذه المشاهد من عالم الحيوان والنبات تُكمّل برهان الهداية الذي لاحظناه عند الإنسان نفسه، مثل خلية الإنسان في رحم أمه، التي تهتدي تلقائيًا في الظلام المطلق، تتغذى، تنمو، وتؤدي وظائف معقدة دون وعي أو تعليم مسبق. وسبحان الله، هذه الهداية الدقيقة مستمرة في كل كائن حي، شاهدة على قدرة خالق عليم حكيم.

تنويه مهم قبل أن نبدأ: الأمثلة التي سنعرضها هنا ليست حكايات عشوائية، ولا مبالغات إنشائية، بل حقائق موثوقة، مبنية على دراسات علمية ومراجع معتبرة.

وقد نُقلت هذه المادة عن كتاب» :*براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم – باب الغريزة* « للدكتور سامي عامري – حفظه الله– ، وهو عمل اعتمد على أبحاث دقيقة، ومصادر موثّقة، وشهادات لعلماء في مجالاتهم ، ولذلك، فكل مشهد سنذكره يستند إلى حقيقة علمية، لا إلى خيال،وما قد يُنقل من أقوال دون ذكر مصدرها تفصيلًا، فمرجعها موجود في هذا الكتاب.

الفصل الأول: فنّ الخداع عند الزهرة والعنكبوت

أولًا: زهرة أوركيد النحل

زهرة أوركيد النحل

إبداع إلهي يحبس الأنفاس

هل ترى هذه الزهرة؟ ليست مجرد نبات جميل، بل خدعة مذهلة موجهة لذكر النحل.

قلّدتها بالكامل: نفس الشكل واللون، نفس الملمس والرائحة الكيميائية، وحتى توقيت الظهور... متزامن مع موسم تزاوج النحل.

زهرة الأوركيد... أنثى النحل المزيّفة

ظاهرة زهرة الأوركيد تكشف عن خالق حكيم، وفكرة ليست علمية فحسب، بل آية من آيات الإبداع التي حيّرت الماديين أنفسهم مثل داروين وريتشارد دوكينز وغيرهم.

نبدأ الحكاية بهدوء: النبات بطبيعته ثابت لا يتحرك، ومع ذلك يريد أن يتكاثر. لذلك يجب أن ينقل حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى ليحدث التلقيح.

في بعض النباتات تنتج حبوب لقاح كثيرة جدًا، وتتركها للرياح.

قد تأخذ الرياح بعض اللقاح وترميه في أي مكان، وإذا صادف ووصل إلى زهرة أخرى، يكون ذلك حسنًا.

لكن هذه الطريقة مرهقة جدًا وغير فعالة، لأن نسبة النجاح فيها ضعيفة جدًا. فكر النبات — مجازًا — وقال: بدل أن أضيع جهدي دون فائدة، لماذا لا أستخدم الحشرات؟ حيث الحشرات بطبيعتها تحب الرحيق، فتبدأ النباتات بإفراز مادة سكرية لجذب الحشرة.

تأتي الحشرة لتأكل، وفي نفس الوقت تلتصق حبوب اللقاح بجسمها، وعندما تذهب إلى زهرة أخرى... يحدث التلقيح.

صفقة ممتازة: الحشرة تأخذ طعامها، والنبات يحصل على نقل دقيق ومجاني للّقاح.

لكن هناك مشكلة: الرحيق مكلف جدًا للنبات، لأنه يستهلك طاقة ضوئية ومواد غذائية.

ومع ذلك قرر النبات استثمارًا ذكيًا، يضمن التلقيح بدقة.

ولكن هذا ليس العجيب حقًا...

زهرة الأوركيد... قصة مختلفة تمامًا

هناك نوع من زهرة الأوركيد قام بشيء شبه مستحيل: بدل أن يفرز الرحيق ...قرر أن يخدع الحشرة.

هذه الزهرة قلّدت شكل أنثى النحل بالكامل، ليس هذا فقط، بل قلّدت في:

- **الشكل ، اللون ، الملمس ،الرائحة ،الكيميائية ،وحتى توقيت الظهور مع موسم تزاوج النحل ، فأصبحت الزهرة نسخة طبق الأصل من أنثى النحل.**

يرى الذكر هذه الزهرة، يظنها أنثى حقيقية، ويحاول التزاوج معها، وفي لحظة "التزاوج"، تلصق الزهرة حبوب اللقاح على جسمه، بعد أن "يُخدع"، يطير إلى زهرة أخرى من نفس النوع، ويكرر نفس القصة ...وينقل اللقاح بدقة مذهلة.

الزهرة قامت بخدعة متقنة جدًا، تجعل ذكر النحل يظنها أنثى، وكأنها فنانة كيميائية وتشريحية وتوقيتية.

سؤال للعقل: أنت كبني آدم، بعينين وعقل ومخبر وتحاليل، إذا أعطيناك صورة لأنثى النحل، وقلنا لك: "اصنع تمثالًا يشبهها بالضبط"، هل تستطيع أن تصنع:

- شكلاً مطابقًا؟ نفس ملمس الشعر؟ نفس الرائحة الكيميائية؟ نفس توقيت الظهور؟

وتقنع به ذكر النحل أنه أنثى؟

مستحيـل!

فكيف لزهرة، لا ترى، ولا تفكر، ولا تشم، ولا تملك عقلًا، أن تقوم بهذا بالضبط؟

الاستنتاج : هذه الزهرة ليست مجرد مخادعة، بل إبداع إلهي متقن.

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

٢– قصة زهرة المطرقة: عندما يصبح النبات مهندسًا ميكانيكيًا وكيميائيًا في نفس الوقت

الزهرة صُممت جزءًا منها لتشبه أنثى نوع معين جدًا من الدبابير

وقامت بتركيب ميكانيكي مذهل

الإعجاز: قصة زهرة المطرقة

عندما يصبح النبات مهندسًا ميكانيكيًا وكيميائيًا في نفس الوقت

تعالَ نرى معًا أغرب خدعة هندسية في عالم النبات.

زهرة تسمى «أوركيد المطرقة (**Hammer Orchid**) «قررت ألا تفرز رحيقًا، ولا تجذب الحشرات بالطعام... بل قررت أن تلعب خدعة معقّدة جدًا على مستوى الشكل، الرائحة، الحركة، والتوقيت.

الهدف : الزهرة تريد أن تتلقح، ولكي يحدث ذلك يجب أن تجذب ذكر نوع محدد من الدبابير.

فما العمل؟

الخدعة البسيطة (التي هي في الواقع معقدة للغاية)

١.**– تقليد الأنثى بدقة خارقة** حيث صُمّم جزء من الزهرة ليشبه أنثى ذلك النوع من الدبابير في: **الشكل ، اللون ، الحجم ، الملمس ، الرائحة الكيميائية**

تخيل زهرة لا ترى، ولا تملك عقلًا، ومع ذلك صنعت نسخة تخدع الذكر فعلاً.

٢– **تركيب ميكانيكي مذهل** :

الجزء الشبيه بالأنثى موصول بـ ذراع مرن يشبه الزنبرك:

- إذا وقف عليه جسم خفيف يبقى ثابتًا.
- إذا وقف عليه ذكر الدبور (بوزنه المعروف) تعرف الزهرة أن هذه هي اللحظة.

٣- الضربة المفاجئة

عندما يقترب الذكر ويشم رائحة الأنثى ويُخدَع، يقفز فوق الجزء الشبيه بالأنثى، وقتها ينزل الذراع الزنبركي بسرعة محسوبة ويضرب الذكر في نقطة محددة داخل الزهرة.

٤- نقطة التلقيح الدقيقة

النقطة التي يصطدم بها الذكر ليست عشوائية، بل مُصممة بدقة:

- تلتصق بها حبوب اللقاح على جسمه.
- تلتصق في مكان يضمن أن ينقل اللقاح بدقة إلى زهرة أخرى لاحقًا.

سلوك الذكر المخدوع

المضحك أن الذكر لا يتعلّم من المحاولة الأولى، بل يكرر الخضوع للخدعة مرات عديدة لأن الزهرة تضبط الرائحة، الشكل، التوقيت، وحركة الضربة بحيث تكون كل مرة في المحاذاة المثالية مع نقطة التلقيح.

لحظة سريعة جدًا، لكنها محسوبة بدقة لا تُوصَف.

السؤال الكبير :مع عقلنا ووعينا وأدواتنا، من المستحيل خداع حشرة بهذه الدقة حيث لا نقدر أن نصنع نموذجًا يخدع ذكر دبور من حيث الشكل، الرائحة، والحجم، ثم يطبق عليه ضربة ميكانيكية محسوبة بدقة لصق اللقاح.

فكيف لزهرة — لا ترى، ولا تسمع، ولا تفكر — أن تنفذ خدعة ميكانيكية وكيميائية وهندسية بهذا الاتقان؟ هل تعتقد أن هذا ممكن أن يحدث صدفة؟ أم أن وراء كل ذلك خالقًا حكيمًا لا حدود لقدرته؟

٣- عنكبوت يتنكر في شكل زهرة الأوركيد

صورة لعنكبوت يشبه زهرة الأوركيد تمامًا، من أنواع العناكب التي تتخفّى ضمن الإزهار لخداع الحشرات بالتمويه الكامل

في إحدى غابات آسيا تقف زهرة "الأوركيد "الجميلة، بألوانها الزاهية ورائحتها الجذابة، تجذب الحشرات من بعيد، لكن... هناك مخلوق غريب واقف بلا حراك فوق الزهرة.

هل تظنه جزءًا منها؟ لا... إنه العنكبوت الماكر.

خطة خداع مذهلة

العنكبوت لم ينتظر أن يبني شبكة ويصطاد بطريقة عادية، بل قرر أن يقوم بخدعة عبقرية:

- غير شكله بالكامل، لون جسمه، ملمسه، ونمط جلده، ليشبه تمامًا بتلات زهرة الأوركيد.
- وقف في نفس المكان الذي تقف عليه الحشرات عند شرب الرحيق.

فتأتي الحشرة البريئة وتظن: "ها، زهرة"! فتقف عليه، وفجأة... ينقض عليها.

السؤال الكبير من أين جاءته هذه الفكرة؟ هل حضر دورات تمويه؟ هل شاهد فيديوهات تعليم خداع بصري؟ **لا شيء من ذلك.**

العنكبوت يولد وهو يعرف بالضبط ما يفعل، يتحرك في الوقت والمكان المناسب، ويتنكر بتفاصيل أدق من خيالنا.

هذا ليس مجرد "تمويه"، بل برمجة إلهية: من الذي أوحى للعنكبوت أن يفعل ذلك؟ ومن الذي زرع في جسده القدرة على تغيير الشكل واللون؟ ومن الذي هداه إلى التواجد في المكان المناسب في الوقت المناسب؟

الفصل الثاني: كائنات بلا عقل وتصرفات تفوق العقل

١-اليعسوب (الطائرة الصغيرة)

اليعسوب: الطيار البارع في عالم الحشرات

هناك مخلوق صغير جدًا، شكله جميل وألوانه لامعة، اسمه :اليعسوب، لكن... ليس مجرد مخلوق جميل، بل أحد أعظم الطيارين على وجه الأرض.

اليعسوب صياد ماهر، يعيش على اصطياد فرائسه من الحشرات الصغيرة جدًا ،والغريب أن هذه الفرائس سريعة جدًا في الطيران، ومع ذلك... يمسكها اليعسوب بدقة مذهلة.

ليس لأنه يطير في اتجاهها فقط، بل لأنه يقوم بمناورة عسكرية متطورة:

- يحسب موقع الفريسة وسرعتها واتجاهها.
- يغير اتجاهه ليأتي عليها من الجانب أو الخلف، من دون أن تشعر به.
- وفي اللحظة المناسبة... يهجم عليها في الجو ويصطادها، بدقة لا توصف.

رأي الخبراء مجلة **New Scientist** قالت:

"اليعسوب يقوم بمناورات في الطيران معقدة للغاية، لدرجة أن الطيارين العسكريين لا يستطيعون محاكاتها إلا في أحلامهم".

وعالم من جامعة أسترالية أضاف:

"ما يفعله اليعسوب يحتاج إلى أجهزة متطورة وغالية جدًا لكي نقلده... ومع ذلك لا نضمن النجاح".

لماذا هذا مذهل؟ لأن الطيران وتغيير الاتجاه والسرعة يتطلب:

- حساب زاوية الطيران.
- تقدير المسافة والسرعة.
- مراعاة اتجاه الرياح.

وهذا أمر صعب حتى على البشر المدربين ...فكيف يفعله مخلوق صغير لا يملك عقلًا بشريًا؟

نحن أحيانًا نظن أن الطيران أمر عادي لأننا نرى الطيور كل يوم، لكن الحقيقة أن طيران الحيوانات، ومن ضمنها اليعسوب، أعقد وأدق بكثير من الطائرات التي نصممها.

وأتحدّى أي أحد أن يؤمن أن الطائرات التي اخترعها البشر يمكن أن تنتجها العشوائية.

الخلاصة

من الذي علّم اليعسوب أن يطير بهذه الطريقة المعجزة؟ من الذي علّمه الحساب والمناورة والمفاجأة؟

وصدق الله العظيم: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

يعني ...ربنا خلق كل مخلوق بإمكانياته المناسبة، وهداه لاستخدامها بالطريقة الصحيحة.

٢ –" الإنترنت النملي" من علم النمل البرمجة؟

تخيل أنك جالس في بيتك، فتفتح هاتفك، وتجد الإنترنت يعمل بشكل جيد ، لكن السؤال : كيف يعمل هذا الإنترنت؟ يعمل عبر إشارات، وخوادم، وسلوك ذكي بين الأجهزة بعضها البعض، تواصل سريع، فعّال، ومنظّم.

حسنا... ماذا لو أخبرتك أن هناك كائنًا صغيرًا جدًا، لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولا يملك هاتفًا ولا كمبيوتر، ولكن لديه "نظام تواصل" أقوى وأذكى من الإنترنت المنزلي نفسه؟ من هو هذا الكائن؟ **النمل**.

علماء من جامعة ستانفورد وقفوا مندهشين وهم يرون مستعمرات النمل تتواصل بسرعة، ودقة، وتنظيم مذهل ،لكن كيف؟ تعال وشاهد:

أول طريقة: كأنهم يرسلون لبعض "رسائل"SMS "

النمل يفرز مواد كيميائية تسمى الفيرومونات، وهي كالروائح التي لها معنى.

يعني، عندما تجد نملة طعامًا، تترك وراءها "خط رائحة كيميائي"، والنمل الآخر يشم هذه الرائحة ويفهم الرسالة: *"هنا يوجد طعام... اتبعني"!*

ثاني طريقة: أجهزة استشعار داخل جسم النملة(sensors)

كما نركب في الروبوتات أجهزة استشعار، النملة خلق الله لها حواس تستطيع بها قياس الحرارة، الرطوبة، وما حولها، وعندما تلتقي نملتان، يلمسون قرون الاستشعار ويتبادلون المعلومات.

ثالث طريقة: "الاهتزاز" أو "الفايبريشن"

النملة تهز جسمها أو الأرض حولها، والنمل البعيد يشعر بالاهتزاز، ويفهم أنه إنذار أو تنبيه.

تخيل شبكة اتصالات لاسلكية مبنية على الاهتزاز!

المدهش عندما شاهد العلماء الإنترنت النملي، بدأوا يصممون خوارزميات للشبكات وتوزيع المهام في الكمبيوتر، ليس من عندهم، بل بتقليد النمل! **أي أن النمل علم مهندسي البرمجة.**

السؤال الكبير ؟ النمل لم يخترع هذا النظام، بل هو "برمجة إلهية"؛ كما أن الكمبيوتر يحتاج نظام تشغيل مبرمج، النمل أيضًا يعمل بفضل نظام زرعه الله فيه منذ البداية.

- **السمكة القناصة – دقة فيزيائية تفوق الخيال**

السمكة القناصة – دقة فيزيائية تفوق الخيال

من أعجب المخلوقات التي أظهرت دلائل "الهداية البرمجية "من الله عز وجل، هي سمكة صغيرة تعيش في المياه العذبة أو المالحة، تُعرف باسم السمكة القناصة.(**Archerfish**)

ما الذي تفعله؟ هذه السمكة لا تأكل من داخل الماء، بل تصطاد الحشرات التي تقف فوق أغصان الأشجار المجاورة للبرك والأنهار، فتقوم بضرب دفقة من الماء من فمها بدقة شديدة لتصيب الحشرة، فتسقط في الماء، ثم تسبح لتلتهمها.

أين الإعجاز ؟ **معادلات فيزيائية معقدة**

لكي تُصيب السمكة الحشرة بدقة، عليها أن تحل – بشكل فطري – **معادلة فيزيائية معقدة لتصحيح زاوية الرؤية**، لأن الضوء ينكسر عند انتقاله من الماء إلى الهواء (ظاهرة الانكسار – **Refractive Index**).

وبسبب هذا الانكسار، موقع الحشرة الظاهر للسمكة ليس موقعها الحقيقي، ومع ذلك تصيبها بدقة مذهلة دون أي حساب واعٍ.

•**تقدير المسافة والضغط المناسب**

السمكة تُقدّر المسافة بين موقعها وموقع الحشرة:

- لو الحشرة بعيدة ⟵ تضرب بدفقة ماء أقوى
- لو الحشرة قريبة ⟵ تضرب بدفقة ماء أخف

أي أنها تتحكم في ضغط الماء وسرعته حسب بعد الهدف.

•تتعلم من الخطأ السمكة تُصحّح طريقها تلقائيًا إذا أخطأت في المرة الأولى، وتتحسن في المرات القادمة.

كيف استفاد العلماء منها؟ استلهم العلماء من السمكة خوارزميات للرؤية الحاسوبية (**Computer Vision**)، ونموذج السمكة ساعد في تطوير طرق تحديد الأهداف وتتبعها بدقة في الكاميرات والروبوتات.

الخلاصة : سمكة لا تسمع، ولا ترى كما نرى، ولا تمتلك عقلًا بشريًا، ومع ذلك تتصرف بدقة يفشل فيها أكبر فيزيائي أو مهندس.

4- النحلة... مهندسة الرياضيات التي حيّرت العلماء

مثال عامل توصيل البيتزا

تخيّل معي هذا المثال: أنت تعمل في محل بيتزا صغير، ويصلك خمسة طلبات من خمسة بيوت مختلفة في المدينة ثم يخبرك صاحب المحل قائلاً:

"استمع جيدًا... الزبائن جائعون، ومطلوب منك توصيل الطلبات بسرعة، على أن يذهب كل

بيت مرة واحدة فقط، ثم تعود إلى المحل في النهاية، هنا ستتساءل: من أين أبدأ؟ وما الطريق الأنسب؟ هل أبدأ من البيت الأول ثم الثاني والثالث؟ أم أبدأ من الثالث ثم الخامس ثم الأول؟ ستبدأ بمحاولة طرق مختلفة في ذهنك، لكن دائمًا يساورك السؤال: "أي الطرق هو الأقصر؟"

لأن اختيار طريق خاطئ يؤدي إلى:

- طول المسافة بشكل غير ضروري، برودة الطعام، استهلاك المزيد من الوقود، واستياء الزبائن.

المشكلة تتعقد :

في البداية قد تقول: "لدي خمسة أماكن فقط... ما عدد الاحتمالات؟"

لكن عند الحساب تبين المفاجأة:

- إذا كان لديك خمسة أماكن ⟵ عدد الترتيبات = ١٢٠ احتمال.

٥! = ٥ × ٤ × ٣ × ٢ × ١ = ١٢٠

- إذا كان هناك ستة أماكن ⟵ ٦! = ٧٢٠ مسار مختلف.
- إذا كان هناك عشرة أماكن ⟵ ١٠! = ٣,٦٢٨,٨٠٠ مسار مختلف!

ويزداد التعقيد بشكل كبير مع زيادة العدد.

أصعب مسائل علم الحاسوب

وهذه ليست خيالًا، بل واحدة من أصعب مسائل علوم الحاسوب، وهي ما يسميه العلماء: "مشكلة البائع المتجول.(**Travelling Salesman Problem**) "

حتى أقوى أجهزة الكمبيوتر تحتاج وقتًا طويلًا جدًا لحساب الطريق الأمثل.

فمن أجل حل هذه المشكلة، يحتاج عامل التوصيل إلى:

- خريطة دقيقة، برنامج **GPS** ، جهاز حاسوب لحساب أسرع طريق، أو تجربة جميع الاحتمالات المتعددة حتى يجد الطريق الأمثل.

تجربة علمية مذهلة : قرر العلماء اختبار ذلك في جامعة *رويال هولواي* بلندن:

- وضعوا غرفة فارغة، وزرعوا فيها مجموعة من الزهور الصناعية بشكل عشوائي، وركبوا كاميرا لمراقبة كل حركة.

دخلت نحلة لم ترَ هذه الزهور من قبل، دون أي خريطة أو تجربة سابقة.

المفاجأة كانت: بدأت النحلة بالتنقل بين الزهور، وبعد عدد قليل من المحاولات، استطاعت اكتشاف أقصر طريق يمر على كل الزهور مرة واحدة، وتعود إلى خليتها بأقل استهلاك للطاقة.

ببساطة، النحلة حلّت واحدة من أصعب مسائل علوم الحاسوب، التي تحتاج ملايين العمليات الحسابية والمعالجات الضخمة، وهي تمتلك عقلًا صغيرًا جدًا، بدون تدريب، تعليم، أو كتب رياضيات.

والأعجب من ذلك: عندما أضاف العلماء زهرة جديدة في مكان مختلف، أعادت النحلة حساب مسارها بالكامل، واختارت أقصر طريق مرة أخرى.

أي أنها لم تحفظ الطريق فقط، بل أعادت الحسابات من البداية وفق التغيرات.

سؤال للعقل " من علم النحلة هذا؟ من زرع فيها هذه الخوارزميات؟

من حسب لها المسافات والزوايا واستهلاك الطاقة؟ من برمج عقلها الصغير على واحدة من أعقد المسائل الرياضية في العالم؟ هل حدث ذلك بالصدفة؟ أم كما قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]

﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]

***

خاتمة الباب

"هداية لا تعرف الصدفة"

بعد أن تأملنا هذه النماذج المدهشة من عالم الحيوان والنبات، ندرك أن ما نراه ليس عشوائية ولا فوضى، بل كل مشهد هو برهان ناطق على وجود خالق عليم هادٍ.

هذه الهداية الفطرية لا تُفسَّر إلا بوجود من قال للشيء كن، إنها هداية فطرية، لا تعلم، برمجة، لا عبث.

وهكذا، تصبح هذه الكائنات الصغيرة أعظم مناهج في الإيمان، وتصبح الطبيعة كلها معرضًا لآيات الله

تنويه

الكون مليء بالعجائب... وسلوك الحيوانات والنباتات بحر لا ينتهي من الإبداع والدقة والإلهام. وما ذكرناه هنا ليس إلا أمثلة قليلة من هذا الجمال المدهش.

فسبحانك ربي، كيف لنا أن نُحصي عجائبك؟! وكما يقول الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله: "**الطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق**".

الباب الثالث
هذا الكون... دقّة في التصميم، وجمال في التكوين

مقدمة

حين ترفع بصرك قليلًا عن نفسك وعن المخلوقات من حولك، وتترك ضجيج الحياة جانبًا، ستجد نفسك وجهًا لوجه أمام أوسع وأعجب مشهد :الكون الفسيح.

وهنا تتفجّر في قلبك وعقلك أسئلة لا يملك إنسان أن يتجاهلها: من أين بدأ هذا الكون؟ كيف خرج إلى الوجود؟ أيمكن أن يولد من العدم؟ أيمكن أن ينبثق بلا مُوجد، بلا عقل، بلا قصد؟

هذه الأسئلة ليست رفاهية فكرية، بل هي أصل كل تفكير فلسفي وعلمي وديني.

ولهذا سنبدأ في الفصل الأول برحلة إلى "بداية الكون"، نستعرض فيها الدليل العقلي والعلمي على الخلق، ونرى كيف يعترف العلم نفسه أن لهذا الكون بداية لا يملك تفسيرها إلا وجود الخالق.

لكن الرحلة لا تقف هنا... فإذا تجاوزنا سؤال البداية، اكتشفنا شيئًا أعجب: أن هذا الكون لم يُلقَ عبثًا، بل بُني وفق نظام محكم، بلغة دقيقة يفهمها العقل البشري، حتى كأن بين "العقل" و"الكون" علاقة القفل بالمفتاح. هل يمكن أن يكون هذا التطابق العجيب مجرد صدفة؟ أم أنه شاهد جديد على القيوم سبحانه؟ وهذا ما سنعرضه في الفصل الثاني.

ثم نواصل النظر فنرى أن الكون لم يُخلق ليُفهم فحسب، بل ليُعاش فيه: حرارة محسوبة، قوانين ثابتة، مسافات مضبوطة، موارد مجهّزة بدقة، وزوجية مدهشة بين احتياجات الجسد وبين ما يوفّره الكون من طعام وشراب ونور وهواء... كل هذا بانتظام مذهل. وهنا سنقف مع المبحث الثاني من الفصل الثاني.

لكن الأعجب والأعمق أن هذا الكون لم يُعدّ لبقاء الجسد فقط، بل لبهجة الروح أيضًا: ألوان تبهج العين، أصوات تسحر الأذن، مشاهد تحرّك الوجدان... وكأن الكون كله لوحة فنية كُتبت لأجلك. فهل الذرات الصماء عرفت ذوقنا؟ هل الزمن الأعمى خطط ليُسعدنا؟ الجواب الواضح: لا. وهذا ما سنناقشه في الفصل الثالث.

وهكذا، فإن الباب الثالث من كتابنا ليس مجرد تأملات كونية، بل رحلة عقلية وروحية تكشف أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا، عليمًا، جميلًا، وضع توقيعه على كل ذرة ونظام ومشهد، لتشهد القلوب والعقول أنه سبحانه هو وحده المقصود بالعبادة والشكر.

الفصل الأول
بداية الكون: الدليل العقلي والعلمي على الخلق "حين بدأ كل شيء"

ليس الحديث عن بداية الكون ترفًا فكريًا ولا سؤالًا فلسفيًا هامشيًا، بل هو أصلُ الأسئلة كلِّها؛ فمنه يتحدّد فهمنا للوجود والمعنى والغاية.

فقبل أن نسأل: كيف يعمل الكون؟ أو لماذا نحن هنا؟ يظل السؤال الأسبق هو:

من أين جاء هذا الكون؟ هل هو أزليّ بلا بداية؟ أم خرج إلى حيّز الوجود في لحظة معيّنة بعد أن لم يكن؟

لقد شغل هذا السؤال عقل الإنسان عبر العصور، وتناوله العلم الحديث بجدّية كبيرة، حتى أصبح البحث في بداية الكون من أهم موضوعات الفيزياء الكونية المعاصرة.

واللافت أن العقل الصريح والعلم الحديث — كلٌّ من زاويته — يلتقيان عند حقيقة واحدة سنسعى لإثباتها بهدوء وتجرد: **أن للكون بداية محددة، وأن له عمرًا معلومًا.**

وقبل عرض الأدلة العقلية والعلمية على ذلك، لا بد أولًا من توضيح ما نعنيه حين نقول: إن للكون بداية.

أولًا: معنى أن يكون للكون بداية

أي أن الكون لم يكن موجودًا منذ الأزل، بل هو وجودٌ حادث، ظهر في لحظة معيّنة بعد أن لم يكن موجودًا أصلًا، أي لم يكن ممتدًا بلا بداية في الماضي. وبمعنى أدق، للكون نقطة بدء واضحة، وقبل هذه النقطة لم يكن هناك شيء على الإطلاق: لا زمان، ولا مكان، ولا مادة، ولا طاقة، ولا حتى القوانين الفيزيائية التي تحكم الكون اليوم، وإنما كان عدمًا محضًا.

وبعبارة أبسط: الكون لم يكن موجودًا دائمًا، بل له تاريخ بداية محدّد، وُجد بعد أن لم يكن شيئًا على الإطلاق. تمامًا كأي شيء نعرف له تاريخ بداية؛ فالإنسان لم يكن موجودًا قبل ولادته، وكذلك الكون لم يكن موجودًا قبل لحظة بدايته، بل وُجد بعد أن لم يكن. وله عمر محدّد، ويقدّر العلم الحديث عمر الكون بنحو ١٣,٨مليار سنة.

وإذا كان للكون بداية — وهذا ما سنُثبته عقلًا وعلمًا — فإن هذه الحقيقة وحدها كافية لإلزام العقل بنتيجة لا مهرب منها:

أن للكون مُبدِئًا أوجده.

فالشيء الذي لم يكن موجودًا لا يمكن أن يُوجِد نفسه، والعدم لا يصنع شيئًا، لأنه لا يملك شيئًا ليصنع به. فمن المحال عقلًا أن يخرج شيء من لا شيء، كما يستحيل أن يخرج الواحد من الصفر.

وهذا الحكم ليس دينيًا خاصًا، ولا استنتاجًا فلسفيًا نظريًا،

بل هو من أوضح البديهيات العقلية التي يستوي في فهمها الفيلسوف والعامي،ويُسلِّم بها كل إنسان في حياته ؛ فكما يستحيل أن يخرج كنز من العدم، أو أن تظهر سيارة فجأة بلا مصنع ولا صانع، كذلك يستحيل أن يخرج هذا الكون بكل ما فيه من نظام ودقة وقوانين من العدم المحض.

وقد لخّص القرآن هذا البرهان العقلي المحكم في آيات قليلة، جامعة مانعة، فقال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: ٣٥–٣٦)

فالمؤمن يرى الأمر بوضوح؛ فالكون بدأ، وكل ما له بداية لا بد أن يكون له مُبدِئ حكيم، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (يونس: ٣٤)

غير أن هذا الفصل لن يعتمد على الإيمان وحده، ولا على التسليم المسبق، بل سنسير بالعقل الصريح، والعلم الحديث، خطوةً خطوة، لنثبت أمرًا واحدًا فقط:

أن هذا الكون ليس أزليًا، وأنه بدأ في لحظة محددة، وأن خروجه إلى الوجود بعد أن لم يكن يستلزم بالضرورة مُبدِئًا خارجًا عنه، عليمًا، حكيمًا.

الدليل العقلي الأول: استحالة عبور اللامتناهي

لو افترضنا أن الكون أزليّ بلا بداية، فهذا يعني أن الزمن ممتد إلى الماضي بلا حد، وأن عدد اللحظات والأحداث التي سبقت اللحظة الحالية لا بداية لها. وبعبارة أوضح: قبل هذه اللحظة التي نعيشها الآن، مرّ عدد لا متناهٍ من اللحظات السابقة.

لكن هنا تظهر مشكلة عقلية لا يمكن تجاوزها؛ إذ إن الوصول إلى اللحظة الحاضرة يفترض أن الزمن قد قطع كل تلك اللحظات السابقة واحدة بعد الأخرى. غير أن عبور عدد لا نهائي من الأحداث أمر مستحيل عقلًا؛ لأن ما لا نهاية له لا يمكن تجاوزه للوصول إلى لحظة معينة.

فلو كان الماضي لا بداية له، لما أمكن للحظة الحاضرة أن تأتي أصلًا، ولظلّ الوصول إلى "الآن" مؤجَّلًا إلى ما لا نهاية. لكن الواقع يخبرنا بعكس ذلك؛ فنحن نعيش الحاضر فعلًا، والزمن قد وصل إلينا.

ومن هنا يتبيّن أن فرضية أزلية الكون تؤدي إلى تناقض عقلي واضح، فوجود اللحظة الحاضرة يقتضي أن الزمن لم يكن ممتدًا بلا بداية، بل له نقطة بدء حقيقية وعمر محدّد بدأ منه في الماضي حتى وصلنا إلى الحاضر الذي نعيشه.

مثال توضيحي

تخيّل أنك واقف في الشارع، وفجأة ترى رجلًا يركض، أنفاسه متقطعة، ووجهه يتصبّب عرقًا، وهو يعدّ بصوت واضح:

«!٠ ... ١- ... ٢- ... ٣- ... ٤- ... ٥- ...»

فتسأله بدهشة: *"منذ متى وأنت تجري؟"* فيجيب بثبات غريب: "منذ الأزل... منذ زمن لا بداية له" ، عندها يفرض العقل سؤاله الحاسم: وكيف وصلت الآن؟ كيف قطعت عددًا لا نهائيًا من اللحظات حتى تبلغ النقطة؟

إنه أمر مستحيل؛ فمن يبدأ من «اللانهاية السالبة» لن يصل أبدًا إلى اللحظة الحالية مهما حاول ، فاللانهائي لا *ينتهي*، ولا يمكن عبوره خطوة خطوة:

«!٠ ١- ٢- ٣- ٤- ٥- ..... -∞»

ربط المثال

نحن نعيش لحظة حالية قابلة للرصد والقياس. كل لحظة سبقتها سلسلة من اللحظات.

السؤال الجوهري:

هل يمكن أن تكون هذه السلسلة بلا بداية؟

إذا كان الماضي أزليًا، فإن الوصول إلى الحاضر يتطلب عبور عددٍ لا نهائي من الأحداث الماضيه، وهو أمر مستحيل.

صوره مقتبسه من كتاب الدكتور سامي حفظه الله (براهين وجود الله) لشرح الدليل

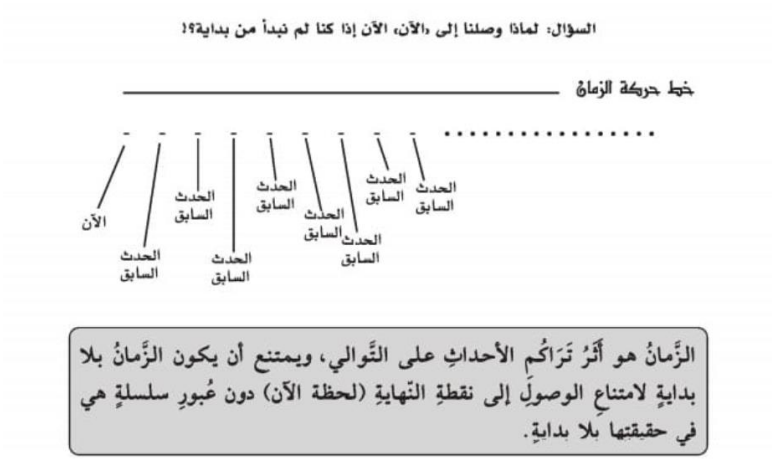

توضيح الدليل اكتر

لو كان الكون أزليًا بلا بداية، فهذا يعني أن عمره لانهائي.

والعمر اللانهائي يعني—بالضرورة—استحالة الوصول إلى أي مرحلة من مراحل تاريخ الكون، سواء ميلاد النجوم أو تشكل المجرات أو ظهور الأرض.

ومن المعلوم أننا لم نصل إلى شكل الكون الحالي إلا بعد أن نشأت مجرتنا، ثم تشكلت الشمس، وولدت الأرض، ثم أصبحت قابلة للحياة.

هذا وحده يعني أن الكون قطع سلسلة من الأحداث الكونية المتتابعة ليصل إلى المرحلة التي نحن فيها اليوم.

لكن... كيف يمكن للكون أن يصل إلى اللحظة الحالية التي نحن فيها الآن إذا كانت قبلها سلسلة لا نهائية من المراحل؟!

وكيف نصل إلى تكوين الشمس إذا كان يسبقها عدد لا نهائي من الأحداث التي يجب عبورها أولاً؟ وكيف تولد الأرض بعد ذلك إذا كان هناك عمر لانهائي قبلها يفصلنا عن هذه المرحلة؟

انظر إلى التسلسل المنطقي والبديهي لتاريخ الكون كما نعرفه:

- بداية الكون
- تشكل المجرات الأولى

- ولادة النجوم الثقيلة
- تشكل مجموعتنا الشمسية
- ظهور الأرض
- ظهور الحياة
- ثم نحن الان في عام ٢٠٢٦

هذا تسلسل زمني—ومكاني—واضح.

ولكي تظهر أي مرحلة من هذه المراحل، لا بد أولاً من اجتياز المراحل التي قبلها.

لكن لو كانت المراحل السابقة لا بدايه لها... فلن نصل إلى اللحظة الحالية.

فكما يستحيل على الرجل الذي يبدأ من «ما قبل اللانهاية» أن يصل إلى الرقم(٠) ، يستحيل على الكون أن يصل إلى اللحظة الحالية لو سبقتها سلسلة لا بداية لها من الأحداث.

(وسيأتي توضيح هذه النقطة أكثر في الدليل العقلي الثالث من منظور أخر).

شهادة فيلسوف ملحد على قوة البرهان

وقف الفيلسوف الأمريكي الملحِد جون هوسبرز أمام هذا الدليل قائلًا:

"كيف وصلنا إلى اللحظة الحالية إذا كانت سلسلة لا نهائية من الأحداث قد سبقت اللحظة الحالية؟ كيف أمكننا الوصول إلى اللحظة الحالية — التي نحن فيها الآن بداهةً — إذا كانت قد سبقتها سلسلة لا نهائية من الأحداث؟" ثم لم يُجب... معترفًا ضمنيًا بأن الإشكال لا جواب له. انتهي

نقطة عقلية أخرى بالغة الدقة: استحالة حدوث لحظات جديدة إذا كان الماضي بلا بداية (على فرض أزلية الكون).

القول بأن الماضي لا بداية له يعني — بالضرورة — استحالة الوصول إلى أي لحظة حاضرة، فضلًا عن إضافة لحظات جديدة أو وقوع أحداث مستقبلية.

لماذا؟ لأن اللانهاية لا يمكن قطعها ولا اجتيازها خطوة خطوة، وما لا يمكن اجتيازه لا يمكن أن نصل بعده إلى شيء.

الزيادة لا تكون إلا على شيء له بداية. ، أما ما لا بداية له، فلا يمكن أصلًا أن يُضاف عليه شيء جديد.

تخيّل سلسلة من الحلقات، كل حلقة لا تُضاف إلا بعد اكتمال ما قبلها.

لو كانت السلسلة لها أول حلقة — حتى لو كانت طويلة جدًا — فإضافة حلقة جديدة أمر ممكن دائمًا.

لكن لو افترضنا أن السلسلة بلا أول حلقة، ممتدة إلى الوراء بلا بداية، فهنا تظهر المشكلة: لن نستطيع إضافة أي حلقة جديدة؛ لأن إضافة حلقة تتطلب أن تكون كل الحلقات السابقة قد اكتملت، وما لا بداية له لا يكتمل أصلًا، وما لا يكتمل لا يمكن أن يُضاف إليه شيء.

فاللانهاية ليست رقمًا نصل إليه ثم نكمله، بل هي شيء لا يمكن الانتهاء منه أصلًا.

فكيف نصل إلى "الآن" إذا كان قبلها عدد لا نهائي من اللحظات؟ وكيف يأتي "بعد" إذا لم ينتهِ "قبل"؟

وبنفس المنطق تمامًا: لو كانت سلسلة أحداث الكون بلا أول لحظة، فكيف وصلنا إلى هذه اللحظة التي نعيشها الآن؟ كيف يولد إنسان اليوم؟ كيف يموت آخر؟ كيف يحدث اكتشاف جديد؟ كيف يتمدّد الكون لحظة بعد لحظة؟

كل حدث جديد نشهده هو دليل على أن ما قبله قد انتهى، وأن سلسلة الماضي ليست مفتوحة بلا حد.

بصورة أبسط: الزمن يُعاش لحظة بعد لحظة.

ولو كان قبل كل لحظة عدد لا نهائي من اللحظات، فلن نصل أبدًا إلى أي لحظة لاحقة،لكننا وصلنا. ونعيش. وتتجدد الأحداث، إذن: الماضي ليس لانهائيًا.

ولهذا قال الإمام ابن حزم رحمه الله هذه القاعدة المحكمة:

"ما لم يوجد إلا بعد ما لا نهاية له فلا سبيل إلى وجوده أبدًا؛ لأن وقوعه يدل على نهاية لما قبل، وما لا نهاية له فلا بعد له".

أي: مجرد وجود شيء الآن يعني أن ما قبله قد انتهى، وما لا نهاية له لا يمكن أن ينتهي، فلا يمكن أن يأتي بعده شيء.

فالخلاصة العقلية الواضحة:

وجود اللحظة الحاضرة نفسها، وتجدد الأحداث من حولنا، ووجود حاضر ومستقبل للكون، كل ذلك يشهد بالضرورة أن ماضي الكون محدود، أي أن له عمرًا محددًا، وبداية حقيقية خرج منها إلى الوجود.

وهنا يظهر السؤال الحتمي الذي لا مهرب منه: إذا كان للكون بداية، فمن المستحيل عقلًا أن يكون قد خرج من العدم المحض بلا سبب، لأن العدم لا يُنتج شيئًا، ولا يُعطي وجودًا، ولا يُنشئ نظامًا.

فلا بد — بالضرورة العقلية— من مُبدِئ حكيم، أوجد الكون بتقدير، وأقامه على نظام دقيق، حتى وصلنا إلى هذه اللحظة التي نعيشها اليوم.

الدليل العقلي الثاني: القول بأزلية الكون ينتج عنه محالات لا يقبلها العقل

إن العقل حين يتأمل تاريخ الأحداث في الكون، يجد أن عددها يزداد كلما اقتربنا من اللحظة الحالية. وهذا وحده يكشف بوضوح أن للكون بداية محددة، وأن القول بأزليته يوقع صاحبه في تناقض لا يستطيع العقل السليم أن يتقبّله.

١.الفرق بين عدد الأحداث في الماضي القريب والبعيد

لو نظرنا إلى عدد الأحداث في الكون: من لحظة بداية الكون حتى سنة ١٠٠٠ميلادية، ثم من لحظة البداية نفسها حتى سنة ٢٠٢٦ميلادية، فهل سيكون العدد واحدًا؟ قطعًا :لا.

فالفترة من سنة ١٠٠٠ إلى ٢٠٢٦ شهدت أحداثًا ضخمة ومتراكمة:

حروب واتساع إمبراطوريات واندثار أخرى، اختراعات واكتشافات غيّرت شكل العالم، ولادات ووفيات لا تُعد ولا تُحصى، توسّع مستمر للكون، حركة هائلة للمجرات والنجوم...

إذن: عدد أحداث الكون حتى ٢٠٢٦ أكبر بكثير من عددها حتى سنة ١٠٠٠، وهذا ما يثبته الواقع، والمنطق، والمشاهدة.

٢.التناقض العقلي مع القول بأزلية الكون

إذا قال قائل: "الكون أزلي، بلا بداية"، فهذا يعني أن عدد الأحداث في الماضي لانهائي.

وبالتالي يصبح: عدد أحداث الكون قبل سنة ١٠٠٠ = ∞ وأيضا عدد أحداث الكون قبل سنة ٢٠٢٦ = ∞ ، وبهذا يصبح الاثنان متساويين!

وهذا مستحيل، لأن الواقع يقول: **عدد الأحداث قبل ٢٠٢٦ أكبر بكثير من عددها قبل سنة ١٠٠٠.**

ازليه الكون تقتضي أن يكون الاثنان "لا نهائيًا" أي متساويين... بينما الفرق بينهما في الحقيقة = أكثر من ألف سنة مليئة بمليارات الأحداث؟!

هذا تناقض صريح لا يمكن للعقل قبوله.

جوهر المحال العقلي :

كيف يمكن أن يكون الماضي لانهائيًا، وفي الوقت نفسه نرى أن عدد الأحداث حتى ٢٠٢٦ <عدد الأحداث حتى ١٠٠٠؟!

إنها مسألة لا يستقيم معها عقل.

لا يمكن الجمع بين "لانهاية ثابتة" وبين "زيادة متراكمة." وإذا ظهر التناقض... فالأصل الخطأ. والمحال العقلي هو :القول بأزلية الكون.

الدليل العقلي الثالث: استحالة أزلية الكون من منظور السببية

الكون ليس مجرد تتابع أحداث عشوائية تمر عبر الزمن، بل هو منظومة مترابطة من الأسباب والنتائج. كل جزء فيه يؤثر ويتأثر وفق قانون ثابت لا يتخلّف :السبب يسبق النتيجة، والنتيجة لا تظهر إلا بوجود سبب سابق لها .وهذا القانون — قانون السببية — هو الأساس الذي يقوم عليه العقل والعلم معًا.

الفكرة الأساسية

كل حدث في الكون، صغيرًا كان أو كبيرًا، لا يمكن أن يقع إلا بوجود سبب يسبقه:

- حركة النجوم والكواكب، نشوء الكائنات الحية، ولادة الأفكار، الاكتشافات العلمية، وحتى أبسط تفاصيل حياتنا اليومية.

لا شيء ينشأ من العدم، ولا نتيجة بلا سبب.

تطبيق ذلك على الكون

عندما ننظر إلى الواقع من حولنا نجد نتائج كونية هائلة: نجوم، كواكب، مجرات، حياة، قوانين دقيقة، وتطور علمي مستمر.

كل هذه النتائج قائمة على سلسلة طويلة من الأسباب التي سبقتها.

وهنا يفرض العقل سؤاله الحاسم: هل يمكن أن تكون هذه السلسلة بلا بداية؟

إذا افترضنا أن الكون أزلي بلا نقطة بدء، فهذا يعني وجود سلسلة من الأسباب لا أول لها، وهنا تظهر المفارقة العقلية بوضوح:

- كل نتيجة تحتاج سببًا.
- وكل سبب يحتاج سببًا قبله.

- فإذا لم توجد بداية... فلن توجد نتائج.
- وإذا لم توجد نقطة انطلاق... فلن نصل إلى أي حدث حاضر.

وبالتالي: القول بأزلية الكون يساوي القول باستحالة وجود أي شيء الآن، وهو ما يخالف الواقع بداهة.

"مثال يوضّح استحالة وجودنا وفق مبدأ السببية في حال كان الكون أزليًا بلا بداية، إذ يلزم عن ذلك تسلسلٌ سببيٌّ لا نهائي في الماضي".

تخيّل جنديًا يقف الآن وينفّذ أمرًا: يضغط على الزناد.

يسأل العقل فورًا: لماذا ضغط الجندي الزناد؟ الجواب: لأنه تلقّى أمرًا من قائده المباشر.

ولماذا أصدر القائد هذا الأمر؟ لأنه تلقّاه من قائد أعلى منه.

ولماذا أصدر القائد الأعلى هذا الأمر؟ لأنه تلقّاه من رتبة أعلى...

وهكذا سلسلة أوامر مترابطة، كل أمر فيها يعتمد على أمر سابق له.

الآن اسأل السؤال الحاسم: ماذا لو قيل لك إن هذه السلسلة بلا بداية؟ أي أن كل قائد تلقّى الأمر من قائد أعلى منه إلى ما لا نهاية، دون قائد أول.

النتيجة العقلية الحتمية: لن يُنفَّذ أي أمر أصلًا؛ لأن تنفيذ الأمر يتوقف على صدوره، وصدوره يتوقف على من قبله، وما لا بداية له لا يصدر أصلًا، وما لا يصدر لا يُنفَّذ، لكننا نرى الجندي قد نفّذ الأمر بالفعل.

إذن لا بد من قائد أول أصدر الأمر ابتداءً، فأطلقت كلمته سلسلة الأوامر حتى وصلت إلى الجندي.

وبنفس الضرورة العقلية: كما يستحيل تنفيذ أمر عسكري بلا قائد أول، يستحيل وجود الكون، أو الأرض، أو الإنسان، بلا سبب أول أطلق سلسلة الأسباب والنتائج.

مثال حيّ من واقع كوكب الأرض

خذ سلسلة الأحداث التي أدت إلى ظهور الحياة المعقدة على الأرض:

- الحدث :(**A**) ظهور حياة واعية.

يعتمد على

- : الحدث :(**B**) وجود عناصر كيميائية معقّدة كالكربون والحديد.

يعتمد على

- : الحدث :(C) انفجار نجوم قديمة كوّنت هذه العناصر.

وهذه بدورها تعتمد على أحداث أسبق، حتى نصل في النهاية إلى الحدث الأول :نشوء الكون نفسه.

إذا افترضنا أن هذه السلسلة أزلية بلا بداية، يصبح ظهور أي حدث حاضر — مثل الحياة أو وجود الإنسان — مستحيلًا عقلًا.

لماذا؟ لأن الوصول إلى نتيجة حاضرة يتطلب المرور عبر عدد لا نهائي من الأسباب السابقة، وما لا نهاية له لا يمكن اجتيازه.

تمامًا كمن يقول إنه كان يجري من الأزل ثم وصل إلينا الآن.

نقول له فورًا: هذا مستحيل، لأن المسافة التي لا بداية لها لا يمكن قطعها.

وهكذا الكون تمامًا: لا يمكن الوصول إلى الحياة، ولا إلى الأرض، ولا إلى الإنسان، ولا إلى أي نتيجة حاضرة، إذا كانت سلسلة الأسباب ممتدة بلا بداية.

صوره توضح الدليل

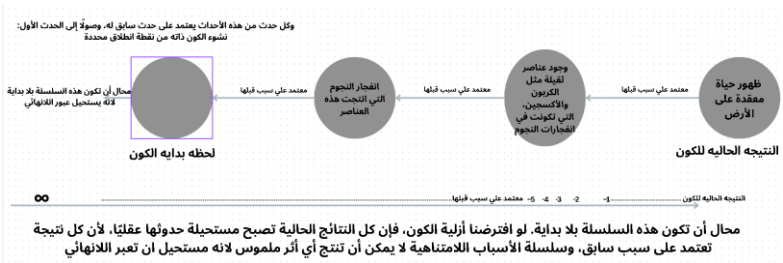

الخلاصة العقلية للدليل الثالث:

الكون قائمٌ على قانون السببيّة؛ فكلّ نتيجة تحتاج إلى سبب يسبقها وجودًا.

والقول بأن سلسلة الأسباب أزلية بلا بداية يعني استحالة ظهور أي نتيجة في الحاضر؛ لأن الواقع لا يمكن أن يصدر عن سلسلةٍ لا أول لها، كما يستحيل الوصول إلى الحاضر من خطّ يبدأ من "اللّا بداية."

ولكنّنا نرى نتائج حاضرة أمام أعيننا: حياة، قوانين، حركة، ونظام.

وهذا وحده دليلٌ قطعيّ على أنّ لهذه السلسلة بداية حقيقية، وأنّ وراءها سببًا أول أطلق حركة الوجود، وأوجد الكون بحكمته وقدرته.

وبهذا يثبت العقل أنّ الكون ليس أزليًا... بل له بداية، وأنّ كل ما له بداية لا بد له من مُحدِثٍ خالق، هو الذي ابتدأ الوجود وأقام النظام.

ويمكن صياغة هذا الدليل بطريقةٍ أخرى، بأسلوب الفلاسفة — كأرسطو وابن سينا — على النحو الآتي: إنّ الوجود كلَّه في حركةٍ دائبةٍ مستمرّة، وهذه حقيقة يشهد بها الحسّ والعلم معًا؛ فالكواكب تدور في أفلاكها، والمجرّات تتمدّد، والعناصر تتفاعل، والأجسام تتحوّل من حالٍ إلى حال. فالكون — بحسب المشاهدة والتجربة — لا يعرف السكون التام.

لكن هذه الحركة لا يمكن أن تُعلَّل بذاتها؛ إذ يستحيل عقلًا وعلمًا أن يحدث التغيّر من غير سببٍ محرّك. فكل حركة، من حيث هي حركة، تحتاج بالضرورة إلى محرّك يسبقها ويمنحها بدايتها واتجاهها ومقدارها.

وهذا ما تقرّره الفيزياء الحديثة بوضوح من خلال قانون نيوتن الثاني، الذي يُجمع عليه الفيزيائيون؛ إذ ينصّ على أن الجسم لا ينتقل من السكون إلى الحركة، ولا يغيّر سرعته أو اتجاهه، إلا إذا أثّرت فيه قوة.

ومعنى ذلك أن الجسم لا يمكن أن يبدأ الحركة من تلقاء نفسه، لأن بداية الحركة تحتاج دائمًا إلى قوة خارجية.

وللتوضيح: لو رأيتَ كتابًا ساكنًا على المكتب، ثم خرجتَ من الغرفة، فوجدته بعد ذلك قد انتقل إلى الدرج، فإن العقلَ يحكم — بالضرورة — أن قوّةً ما أثّرت فيه ونقلته، إذ يستحيل أن يتحرّك الكتاب من تلقاء نفسه. وهذا ما نعرفه من سلوك المادة أيًّا كانت؛ فالصخرة لا تتحرّك إلا بدافع، والتربة لا تنتقل إلا بالرياح، والكواكب لا تجري في أفلاكها إلا بقوى تضبط مساراتها.

وهذا تمامًا ما قرّره الفلاسفة قديمًا: السكون هو الأصل، أمّا الحركة ففرعٌ يحتاج إلى سببٍ مؤثّر.

وبما أنّ الكون كلَّه — من الذرّة إلى المجرّة — في حركةٍ ظاهرة لا تنقطع، كان من المحال أن تبدأ هذه الحركات بلا قوّةٍ سابقة تُحدثها؛ فلا بد إذن من محرّكٍ أول خارج الكون ذاته، يمنح الوجود دفعة البداية.

ولا يجوز عقلًا أن يُقال إن الأجسام الساكنة هي التي حرّكت الأجسام المتحرّكة في الكون؛ لأن الساكن — بالضرورة — غير متحرّك، ولو حرّك غيره لكان متحرّكًا، فإن قيل: هو متحرّك، عُدنا إلى السؤال نفسه: من الذي حرّكه؟!

فنحن أمام قسمةٍ عقليةٍ واضحة: الأجسام لا تخرج عن كونها إمّا ساكنة أو متحرّكة، والساكن لا يُنشئ حركة، والمتحرّك لا بدّ له من محرّك، فمن الذي حرّك الكون؟

ولتقريب ذلك إلى الذهن: نرى التربة تتحرّك بفعل الرياح، والرياح تتحرّك بسبب فروق الضغط والحرارة، والحرارة ناشئة عن طاقة الشمس، والشمس نفسها في حركةٍ منتظمة داخل مجرّتها، والمجرّة تتحرّك ضمن بنية كونية أوسع.

فكل حركةٍ في الكون مردّها إلى حركةٍ قبلها، وقوّةٍ أسبق منها.

ولا يمكن للعقل أن يقبل بأن تظلّ هذه السلسلة دائرةً داخل الكون إلى غير بداية؛ إذ لو كانت كذلك لما وُجدت حركة أصلًا !

فلا بدّ — ضرورةً عقلية — من محرّكٍ أول خارج هذه السلسلة كلّها، لا يستمدّ حركته من غيره، ولا يحتاج إلى محرّك، بل تستمدّ منه كلّ حركةٍ وجودها وانتظامها، وبه بدأت سلسلة الأسباب والحركات ابتداءً.

وهو ما سمّاه أرسطو: المحرّك غير المتحرّك، وسمّاه ابن سينا: واجب الوجود الذي لا يفتقر في وجوده إلى غيره، وهو عندنا: الله ربّ العالمين.

فهو سبحانه الذي أطلق حركة الكون، وأقام قوانينه، وسخّر نظامه، وبدأ سلسلة الأسباب التي يستحيل على العقل أن يفسّر وجودها أو انتظامها إلا بوجوده.

وفي ختام فصل الخلق سنجيب — بإذن الله — عن شبهة:

»فمن خلق الله؟« إجابةً عقليةً مفصّلة، تُظهر بطلان السؤال نفسه وتكشف تهافته من جذوره.

تنبيهٌ واجب: نحن لا نصف ربَّنا جلّ وعلا إلا بما وصف به نفسَه في كتابه، وبما صحّ عن نبيّه ﷺ؛ فكيف لمخلوقٍ محدودٍ، ناقص العلم، أن يخوض في وصف الإله المطلق؟ وقد تفضّل علينا سبحانه بالوحي ليُعرّفنا بذاته وصفاته على الكمال، فحسبُنا ما أخبر به ربُّنا عن نفسه، ففيه غاية الهداية.

ملخّص المحالات العقلية الثلاث لإنكار بداية الكون

إن القول بأزلية الكون لا يؤدي إلى إشكالات بسيطة، بل إلى ثلاث محالات عقلية قاطعة، والعاقل لا يمكن أن يؤمن بمحال عقلي... لأن ذلك يعني التنازل عن العقل نفسه.

١- استحالة عبور اللانهائي

الزعم بأننا وصلنا إلى اللحظة الحاضرة بعد المرور بعدد لا نهائي من اللحظات زعمٌ مستحيل؛ لأن اللانهائي لا يمكن عبوره أصلًا.

ويدخل في هذا أيضًا :استحالة إضافة أي لحظة جديدة فوق سلسلة لا نهائية، لأن ما لا بداية له

لا يقبل الزيادة.

فالوجود الحالي — بكل ما فيه من أحداث — شهادة واضحة أن الماضي ليس بلا بداية.

٢- مساواة مرحلتين مختلفتين تحت كلمة "اللانهائية"

إذا كان الماضي لانهائيًا بلا بداية، فسيكون عدد الأحداث قبل سنة ١٠٠٠ مساويًا لعدد الأحداث قبل سنة ٢٠٢٦... لأن "كلاهما لانهائي."

لكن الواقع يكذّب هذا مباشرة: فالأحداث قبل ٢٠٢٦ أكثر بكثير.

هذا التناقض يُثبت أن الماضي ليس لانهائيًا، لأنه لو كان كذلك لما أمكن المفاضلة بين أي مرحلتين في الزمن.

٣- إبطال السببية التي يقوم عليها العقل والعلم

كل نتيجة تحتاج سببًا.

ولو كانت سلسلة الأسباب أزلية بلا بداية، لاستحال ظهور أي نتيجة في الحاضر، لأن النتائج لا تظهر من سلسلة بلا نقطة انطلاق.

وإنكار البداية يعني عمليًا إنكار السببية نفسها... وإنكار السببية هو نسف لأساس العلم الذي يقوم كله على البحث عن الأسباب.

الاستنتاج النهائي

الإيمان ببداية الكون لزوم عقلي لا مفر منه.

فالكون لم يكن موجودًا ثم وُجد. ولا بد له من مُؤجِّد أوجده من العدم، وأبدعه على غير مثال سابق. خالق حكيم، قال للوجود" :كُن"، فكان.

وهنا تنتهي الأدلة العقلية، لكن العقل ليس هو الوسيلة الوحيدة ؛ فالعلم الحديث بدوره أكد هذه النتيجة نفسها، إذ توصل كبار علماء الفيزياء إلى أن للكون بداية محددة.

والآن... لننتقل إلى رؤية الأدلة العلمية التي تثبت هذه الحقيقة.

الدليل العلمي الأول: القانون الثاني للديناميكا الحرارية – الكون يموت ببطء

من أهم وأوضح القوانين في الفيزياء الحديثة :القانون الثاني للديناميكا الحرارية.

يطلق عليه العلماء أحيانًا :قانون الفناء البطيء، لأنه يصف بدقة ما يحدث لكل نظام مغلق مع مرور الزمن:

- العشوائية (الإنتروبيا) تزداد بمرور الوقت.
- الطاقة المنظَّمة تتبدّد تدريجيًا.
- الحرارة تنتقل دائمًا من الأجسام الساخنة إلى الأجسام الباردة، حتى تتساوى الحرارة وتصل كل الأشياء إلى حالة سكون حراري تام.

بمعنى أبسط: الكون يسير دومًا من حالة النظام إلى الفوضى، من الطاقة إلى الاستهلاك، من الحرارة إلى البرودة، من الحركة إلى التوقف.

أي :الكون يموت ببطء.

وفي النهاية، سيأتي يوم: تنطفئ فيه النجوم، تنهار فيه الشمس، تتجمّد الكواكب، وتنعدم الطاقة القابلة للاستخدام، فتنتهي الحياة تمامًا، وتدخل المادة والزمان في حالة "**الموت الحراري**."

علاقة القانون ببداية الكون

لو كان الكون أزليًا (بلا بداية، موجود منذ الأزل)، فهذا يعني أنه مرّ عليه زمن لا نهائي.

وحينها، كان يجب أن يكون الموت الحراري قد حدث بالفعل منذ عصور سحيقة: أي انتهت الطاقة القابلة للاستخدام ، تجمّدت الكواكب، وانطفأت النجوم.

لكن هذا لم يحدث: الشمس ما زالت تشع ضوءًا وحرارة، النجوم ما زالت تنير، هناك حياة، وهناك حركة، وهناك طاقة تنتقل.

إذن النتيجة المنطقية: الكون ليس أزليًا، بل له بداية محددة، انطلق منها استهلاك الطاقة قبل زمن محدود.

المثال الأول: كوب الشاي الساخن

تخيَّل أنك دخلت غرفة مغلقة فوجدت على الطاولة كوب شاي يغلي ويتصاعد منه البخار.

أول ما يتبادر إلى ذهنك فورًا: "من حضَّر هذا الشاي الآن أو منذ وقت قريب؟"

لأنك تعرف بالبداهة أن:

- الشاي لا يمكن أن يظل ساخنًا إلى الأبد.
- كلُّ كوب شاي بمرور الوقت يفقد حرارته تدريجيًا حتى تتساوى حرارته مع حرارة الغرفة، وعند تساوي حرارتي الوسطين — الشاي والغرفة — تصل المنظومة إلى حالة تُسمّى التموّت الحراري (الترموديناميكي)، حيث يتوقف انتقال الطاقة تمامًا..

- وكلما طال الزمن، زادت سرعة بروده حتى يصبح في النهاية "فاترًا" ثم "باردًا"(*التموّت الحراري*) تمامًا.

الآن، لو قال لك أحدهم: *"هذا الكوب موجود هنا منذ خمس ساعات وهو كما تراه ولم يبرد"!*

ستضحك وترد فورًا: *"مستحيل! كان قد برد فورًا! لا يمكن أن يظل ساخنًا طوال هذه المدة"*.

ربط المثال بالكون (فالفيزياء لا تُفرّق في قوانينها بين كوب الشاي والشمس؛ فالقانون واحد، يعمل على الصغير كما يعمل على الكبير".)

الكون كله يشبه كوب الشاي هذا:

- الشمس مثل "الكتلة الساخنة" التي تشع ضوءًا وحرارة باستمرار.
- النجوم الأخرى مثل "أكواب شاي" عملاقة تستهلك وقودها النووي وتضيء.
- الكواكب والأقمار تمتص وتفقد حرارة.

وكل هذه الأجرام تسير وفق نفس القانون: الحرارة تتناقص مع مرور الزمن، والطاقة المفيدة تتبدّد تدريجيًا حتى تصل إلى حالة *التموّت الحراري*، وحينها يتوقف انتقال الطاقة، وتصبح هذه المرحلة نهاية العملية في العالم كما نعرفه..

فلو كان الكون موجودًا منذ الأزل (أي منذ زمن غير محدود): لكانت النجوم كلها قد استهلكت وقودها منذ زمن بعيد، ولانطفأت الشمس منذ عصور سحيقة ، ولكان الكون كله قد برد وتجمد، كما يفعل كوب الشاي بعد فترة طويلة.

لكن الواقع أمامنا الآن: الشمس لا تزال مشتعلة وتبث الدفء ، النجوم لا تزال تتلألأ في السماء، الحرارة والطاقة لا تزال متوفرة ضمن النظام..

إذن المنطق يقول: تحضير "كوننا" لم يكن منذ الأزل، بل في وقت محدد من الماضي، قريب نسبيًا على مقياس الزمن الكوني.

المثال الثاني: السيارة والوقود

الكون في حاجته إلى الطاقة أشبه بالسيارة في حاجتها إلى الوقود.

إذا رأيت سيارة تسير في الطريق، تعلم فورًا أن خزانها قد مُلئ بالبنزين منذ وقت محدد نسبيًا، لأنها طوال سيرها كانت تستهلك هذا الوقود.

ولو كانت السيارة تسير منذ زمن لا نهائي، لكان الوقود قد نفد منذ زمن بعيد وتوقفت السيارة.

وبالمثل: ما دام الكون لا يزال يتحرك، وما دامت طاقته لا تزال متوفرة للاستفادة، فهذا يعني أن تعبئته بالوقود (أي خلقه) كان في وقت محدد من الماضي، لا منذ الأزل.

القانون الثاني للديناميكا الحرارية ليس قاصرًا على جهازٍ بعينه أو تجربة محدودة، بل هو قانون شامل يحكم الكون بأسره بلا استثناء.

إنكار هذا القانون يعني الإيمان بأمور مستحيلة، مثل أن يظل كوب الشاي ساخنًا بلا سبب، أو أن تولد الفوضى نظامًا تلقائيًا، أو أن ذرات الشاي البارد ستسخن وتعود إلى حالة الحرارة الأصلية تلقائيًا.

وقد عبّر العلماء عن ذلك بوضوح فقال آرثر إدنجتون الفلكي والفيزيائي الشهير: "**إنه القانون الأول في كل العلوم، وأي نظرية علمية تتعارض معه لا تملك أي أمل في البقاء، ومصيرها الانهيار الحتمي**".

تنويه مهم:

عندما نتحدث عن القانون الثاني للديناميكا الحرارية، فإننا نقصد النظم الطبيعية المغلقة ذاتيًا، أي التي تعمل من تلقاء نفسها دون أي تدخل خارجي.

. أي أننا نقصد:

- الكون كما هو، من دون أي تدخل من قوة خارجة عنه.
- الشاي على الطاولة، بلا تدفئة أو تبريد من أي مصدر خارجي.

الفكرة الأساسية هنا: كل نظام طبيعي يترتب عليه أن الطاقة المنظمة تتحول تدريجيًا إلى فوضى مع مرور الوقت، ولا يمكن عكس هذه العملية من تلقاء نفسها.

ولو قال أحد: "لكن يمكنني أن أسخن الشاي دائمًا"، نرد عليه: نعم، لكن هذا التسخين ليس من تلقاء الشاي نفسه، بل يحتاج إلى تدخل خارجي—غلاية، موقد، كهرباء... وهكذا.

وبالمثل، فإن الكون لا يمكن أن يلد نفسه أو يبدأ من العدم من تلقاء ذاته، بل لا بد له من خالقٍ عليمٍ حكيم، أوجده من العدم، ووضع له قوانينه، وأحكم نظامه. وكل ما نشهده من طاقة وحركة وانتظام إنما هو شاهد على قيُّوميّة الخالق سبحانه، الذي أنشأ الكون ويمسكه بقدرته.

وسنفصّل – إن شاء الله – في الفصل القادم قيُّوميّة الله عز وجل للكون و تدبيره وحفظه.

شهادة العلماء

١- يقول عالم الكونيات أندرو فلينكن:

»القانون الثاني للديناميكا الحرارية هو الدليل القاطع على بداية الكون ونهايته الحتمية«. انتهي

"وهنا تظهر نقطة جوهرية جديدة: نهاية العالم التي يؤكدها علماء الفيزياء اليوم تمثّل دليلًا إضافيًا على أن للكون بداية؛ فما لا بداية له لا يمكن أن تكون له نهاية، وكونُ كونِنا متجهًا نحو نهاية محتومة يعني بالضرورة أن نهاية العالم دليلٌ قطعيّ على بدايته".

٢- ويقول الفيزيائي باري باركر موضحًا أثر القانون الثاني:

»يشير هذا القانون بوضوح إلى أن للكون —— وللزمن نفسه —— بداية. فلو كان الكون أو الزمن أزليَّيْن، لكان التبادل الحراري قد اكتمل منذ تلك العصور السحيقة، ولما بقيت شمسٌ ولا نجمٌ، بل لكان الكون كله قد برد حتى درجة الصقيع«.

ثم يضيف: »إن القانون لا يكتفي بأن يقرر أنّ الطاقة تتبدد، بل يثبت أن الكون يسير نحو نهاية محتومة: الموت الحراري«. انتهي

ويقول عالم الفيزياء النظرية بول ديفيس —— في بيانٍ بالغ القوة:

»إذا كان للكون مخزونٌ محدود من النظام، وهو يتغير دون رجعة نحو الاضطراب ليبلغ في النهاية التوازن الترموديناميكي؛ فيلزم من ذلك أمران:

الأول: أنّ الكون سوف يموت في نهاية المطاف، وهذا ما يُعرف بالموت الحراري.

والثاني: أنّ الكون لا يمكن أن يكون موجودًا منذ الأزل؛ إذ لو كان كذلك لبلغ توازنه الترموديناميكي النهائي منذ زمن غير متناهٍ في الماضي.

الخلاصة: الكون لم يوجد منذ الأزل«. انتهي

يقول إدوارد كيسل، رئيس قسم علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو

"القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ الرأي القائل بأزلية الكون. فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة.

ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، ويحدث الموت الحراري، وينضب معين الطاقة. وفي هذه المرحلة، لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية، ولن يبقى أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيميائية والطبيعية مستمرة، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا، وإلا لَفقد طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود.

وهكذا توصلت العلوم، دون قصد، إلى أن لهذا الكون بداية. وهذا يثبت وجود الله، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه، ولا بد له من مبدع أو محرك أول، أو خالق، هو الإله". انتهي

الدليل العلمي الثاني: تمدد الكون

الكون ليس ثابتًا... بل يتوسع.

تخيّل بالونة تكبر أمامك تدريجيًا؛ أول سؤال سيخطر ببالك: من الذي بدأ ينفخها؟ ومتى بدأت تكبر؟

هذا بالضبط ما رصده العلماء عبر أقوى التلسكوبات الفضائية: الكون يتمدد لحظةً بلحظة، والمجرات تبتعد عن بعضها بسرعات مذهلة.

الأدلة الرصدية الحديثة مثل: تلسكوب هابل(**Hubble**) ، تلسكوب بلانك الفضائي (**Planck**) ، تحليل إشعاع الخلفية الكونية(**CMB**)

أجمعت على أن الفضاء نفسه يتمدد، كما لو كنت تنظر إلى بالونة تتسع باستمرار.

...ما علاقة التمدد بوجود بداية؟

إذا كان الكون أزليًا ويتمدد منذ مالانهاية، فهذا يعني — لو كان ذلك صحيحًا — أنه كان يجب أن يصل الآن إلى حجم لا نهائي.

لكن هنا يظهر التناقض العقلي:

- شيء يتمدد عبر الزمن ← لا بد له من نقطة بداية.
- شيء بلا بداية ← لا يمكن أن يزداد عليه أصلًا؛ لأن الزيادة تعني وجود ‘‘قبل’’ و ‘‘بعد.’’ وهذا يناقض فكرة اللابداية كما وضحنا سابقا

إذن: استمرار التمدد مع غياب البداية = استحالة عقلية.

والعلم يقطع هذا الجدل:

- معدل التمدد مقاس بدقة.
- والرصد الكوني الحديث يؤكد أن حجم الكون محدود، وليس لانهائيًا.

- نقطة بداية الكون محددة زمنيًا ≈ **١٣,٨** مليار سنة.

سبق القرآن لهذه الحقيقة

قبل أن يكتشف العلماء تمدد الكون بقرابة ١٤ قرنًا، قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)

وهي إشارة صريحة إلى توسع السماء، وهو نفس المبدأ العلمي الذي توصّل إليه البشر حديثًا، مُظهِرًا جانبًا من الإعجاز العلمي لكتاب الله.

الدليل الثالث: الليل العظيم

هل جرّبت يومًا أن ترفع رأسك إلى السماء في ليلةٍ هادئةٍ مظلمة، بعيدًا عن صخب المدينة وأضوائها؟

تنظر فتجد السماء سوداء واسعة، تتناثر فيها نقاط ضوء قليلة...

مشهد مهيب وهادئ، لكنه في الحقيقة يحمل برهانًا عظيمًا على أن لهذا الكون بداية.

الفكرة ببساطة: الضوء يسير بسرعة هائلة تبلغ نحو ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، يصل من الشمس إلى الأرض في ثماني دقائق، ومن القمر في أقل من ثانية.

ومع هذه السرعة المذهلة، كان من الطبيعي — لو كان الكون أزليًا — أن تكون السماء كلها مضيئة؛ لأن الكون مليء بالمليارات من النجوم، وكل نجم يرسل ضوءًا في كل اتجاه.

لكن السؤال المحيّر: إذا كان الكون موجودًا منذ الأزل، فلماذا السماء مظلمة؟

كان المفترض — لو امتد الزمن إلى ما لا نهاية — أن يصل إلينا ضوء كل نجم مهما كان بعيدًا، لأن الزمن اللامتناهي يكفي لوصول الضوء من أبعد نقطة في الكون.

ومع مرور زمن لانهائي، كان يجب أن تتشبع السماء تمامًا بالنور، فلا يبقى فيها أي موضع مظلم كما نراه اليوم.

وهذا ينسجم مع ما أثبته العلماء من خلال تحليل الإشعاع الكوني الخلفي: (**CMB**)

فالضوء القادم من أبعد وأقدم مناطق الكون لم يصلنا بعد، لأن عمر الكون محدود.

ولو كان الكون لانهائيًا في الزمن، لغمر هذا الإشعاع السماء كلها بضوءٍ شديد الإشراق، بدل هذا السواد العميق الذي نراه.

إذن: السماء مظلمة اليوم ← دليلٌ واضح على أن الكون له بداية، وأنه لم يُمنح زمنًا لانهائيًا يسمح لكل ضوء النجوم أن يصل إلينا أو يملأ السماء بالكامل.

لكن الواقع أمامنا يقول العكس: السماء مظلمة، والنجوم متفرقة، والضوء لم يصل من أغلبها بعد.

وهذا يعني أن الكون ليس أزليًا، بل بدأ في لحظة محددة انطلقت منها موجات الضوء والطاقة، وبعضها ما يزال في طريقه إلينا حتى الآن.

وبذلك يصبح ظلام الليل ذاته برهانًا عقليًا وعلميًا على أن لهذا الكون بداية.

لو كان أزليًا، لكان الليل مستحيلًا أصلًا، ولعشنا تحت سماء مشتعلة بالنور من كل الجهات.

وقد لفت إلى هذا المعنى عدد من العلماء، ومنهم الفيلسوف أنتوني كيني الذي قال: "**ظلام السماء ليلًا برهان على أن الكون لم يكن موجودًا إلى ما لا نهاية، بل له بداية محددة في الزمن**". انتهي

فسبحان من جعل الليل بظلمته آيةً تنطق بالحقيقة: أن هذا الكون له بداية محددة، وأن وراءه خالقًا عظيمًا أوجده، ونظامًا محكمًا أقامه بحكمةٍ وقدرةٍ وإتقان.

ومع أن هناك نظريات علمية أخرى أثبت بها العلماء أن للكون بداية—— مثل نظرية الانفجار العظيم، ومعادلات النسبية العامة لأينشتاين التي قادت إلى حتمية بداية الزمان والمكان—— إلا أن ما سبق ذكره هنا، ولله الحمد والمنة، كافٍ وشافٍ من الناحية العقلية والعلمية، ولا داعي لذكر تلك التفاصيل الإضافية حتى لا يطول المسار دون حاجة.

لكن نختم فنقول: لقد صار من المسلَّمات عند العلماء اليوم أن كل ما في هذا الكون—— من نجومٍ ومجراتٍ وكواكب —— له بداية ونهاية، وقد رُصدت بالفعل بالتلسكوبات مراحل نشأة النجوم وتطورها وانفجاراتها ، والكون في حقيقته ليس كيانًا قائمًا بذاته استقلالًا، **بل هو مجموع هذه الأجزاء المتغيّرة.**

فإذا ثبت يقينًا أن كل جزءٍ من أجزائه له بداية زمنية، فكيف يُتصوَّر أن يكون المجموع بلا بداية؟! إن هذا من التناقض الواضح؛ إذ يستحيل أن تكون كل الآحاد (الأجزاء) حادثة، ثم يكون مجموعها قديمًا أزليًا!

ولتقريب الصورة: لو نظرنا إلى جدارٍ أمامنا، لوجدناه مكوَّنًا من طوبٍ وأسمنت. فإن كان كلٌّ من الطوب والأسمنت حادثًا له بداية زمنية، فمن المحال أن يكون الجدار——**وهو مجموعهما**——أزليًا بلا بداية؛ لأن الجدار ليس شيئًا مستقلًا عن أجزائه، بل لا وجود له أصلًا إلا بها، فلا يُتصوَّر وجود الجدار دون طوبه وأسمنته، ولا يُتصوَّر أن يكون أزليًا وأجزاؤه حادثة.

وهكذا الكون تمامًا: ما دام مركبًا من أشياء حادثة ومتغيرة (النجوم المجرات ....)، فلا يمكن إلا أن يكون حادثًا مثلها، له بداية محددة، ووجوده دليلٌ قاطع على مُوجِدٍ أوجده.

ونختم بإ**جماع العلماء** :

حاليا، علماء الكونيات والفيزياء الفلكية متفقين على حقيقة واحدة: الكون له بداية حقيقية... خرج من العدم.

لورانس كراوس (فيزيائي ملحد): "كل الأدلة الفيزيائية اليوم تشير إلى أن الكون له بداية".

ستيفن هوكنج (أشهر علماء الفيزياء النظرية(ملحد)): "الانفجار العظيم هو بداية الزمان، ولا يوجد شيء قبله".

خلاصة الأدلة العقلية والعلمية :

بعد عرض الأدلة العقلية والعلمية، ثبت أن الكون ليس أزليًا، بل له بداية محددة في الماضي. وما له بداية لا بد له من مُبدِئ، إذ يستحيل عقلًا أن يخرج الوجود من العدم.

وبما أن الكون وُجد بعد أن لم يكن، فلا بد من سبب خارج عنه أوجده، غير خاضع للزمان والمكان، لأن الزمان والمكان نفسيهما من مخلوقاته، عليم بالقوانين التي تضبط هذا الكون، حكيم في تصميمه وتنظيمه.

وبذلك لا يبقى أمام العقل إلا هذا الاستنتاج الضروري:

أن للكون خالقًا أوجده بعد أن لم يكن موجودا، وهو ما عبّر عنه القرآن بأبلغ بيان: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأخيرًا، بعد أن ثبت بالعقل الصريح والعلم الحديث أن للكون بداية، وأن كل ما له بداية لا بد له من خالق، يَبرز سؤالٌ يتردّد كثيرًا: «ومن خلق الخالق؟«

وهذا السؤال في جوهره باطل منطقيًا، فهو يتضمن تناقضًا داخليًا؛ إذ إذا افترضنا أن الخالق مخلوق، لم يعد خالقًا أزليًا، وبذلك يلغى تعريفه نفسه.

وتكون قد جمعت بين نقيضين: إنه خالق ومخلوق في نفس الوقت!

وهذا يشبه قولك: "أريني دائرة مربعة" أو "أعطني مثلثًا بأربع أضلاع." كلام بلا معنى، لأنك تطلب اجتماع شيئين يستحيل جمعهما في كيان واحد.

الله خالق... أي غير مخلوق.

ولو افترضت أنه مخلوق، فهو لن يكون إلهًا أصلًا. فالخالق الحقيقي هو الذي وجوده واجب بذاته، لم يأتِ بعد العدم، ولم يخلقه أحد.

السؤال عن "من خلق الله؟" يشبه السؤال: "من أكبر من أكبر رقم؟"

السؤال نفسه معطل منذ البداية! لأنك إذا وجدت رقمًا أكبر، فمعنى ذلك أن الرقم الذي قبله لم يكن أكبر رقم أصلًا. بعبارة أخرى، أنت بذلك تنقض كلامك بنفسك.

نفس الفكرة بالضبط عندما تسأل: "من خلق الخالق؟" لأنك بهذا حولت الخالق لمخلوق... وسألت: من خلقه؟ وهذا تناقض عقلي، مثل السؤال عن "أكبر من أكبر رقم."

وليس مجرد تناقض عقلي، بل هذا مستحيل عقلًا من الأساس، لأن العقل يرفض فكرة التسلسل السببي اللانهائي.

يعني لا يصح أن تقول : كل خالق له خالق، وده له خالق، وده له خالق... وهكذا إلى ما لا نهاية.

كمثال للتوضيح، يمكن العودة إلى مثال الجندي الذي ذكرناه.

تخيّل جنديًا في ساحة القتال ينتظر أمرًا من قائده ليطلق النار. لكن القائد نفسه ينتظر أمرًا من قائده، والقائد الأعلى ينتظر من فوقه... وهكذا بلا بداية.

هل الجندي سيُطلق النار؟ مستحيل!

كل واحد متعطل، غير قادر على الحركة، لأنه مربوط بالذي قبله ،ومادامت السلسلة لا بداية لها، فلن يصل أي فعل إلى التنفيذ أبدًا.

النتيجة: الفعل مستحيل الحدوث... أبدًا!

الدليل من الفعل نفسه

لكن لو حصل الفعل بالفعل (والجندي أطلق النار)، فهذا دليل قاطع أن هناك واحدًا أخيرًا أمر، ولم يكن ينتظر أمرًا من أحد.

بنفس المنطق، لو قلنا إن الله له خالق، وخالقه له خالق، بلا بداية، فلن يكون الكون موجودًا أصلًا.

لكن الكون موجود، وقد بدأ. إذن لابد من وجود فاعل أول، خالق لا ينتظر أمرًا، ولا يحتاج من خلقه، بل هو الذي بدأ كل شيء من العدم بإرادته.

تأمل هذه الصورة جيدًا، فهي توضح لك الكثير وستكشف استحالة التسلسل السببي اللانهائي.

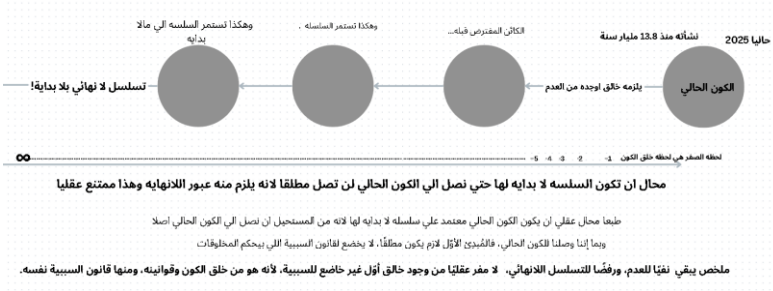

هل قانون السببية ينطبق على الله؟

قانون السببية الذي نعرفه ينص على أن: "كل حادث له سبب " ، والحادث هو ما له بداية وما لم يكن ثم كان.

أما الله سبحانه وتعالى فليس حادثًا، بل هو الأزلي الذي لم يسبقه عدم، وهو الذي أوجد الزمن والمكان وقوانين الكون، بما فيها قانون السببية نفسه؛ لذلك لا يجوز عقلاً أن نُخضع الخالق لقانونٍ هو الذي وضع أساسه.

فالسببية هي قانون داخل الكون الحادث، وكل قانون داخل الكون لا يمكن سحبه على من هو خارج الكون.

توضيح بالمثال: تخيل أنك صنعت دمى تتحرك بواسطة نابض داخلي (زمبلك).

هل يعني هذا أن صانع الدمى (أنت) أيضًا تتحرك بنابض (زمبلك)؟ بالطبع لا.

ولو قالت الدمية: "**الذي صنعني بالنابض... هل هو أيضًا مصنوع من نابض مثلنا؟**"

فهذا سؤال باطل، لأنها تطبّق قانونًا داخل اللعبة على مَن هو خارج اللعبة.

وهكذا تمامًا السؤال: ‘‘من خلق الله؟”

هو سؤال باطل منطقيًا، لأنه يفترض أن الله حادث (له بداية)، بينما تعريف الله الخالق أنه الأزلي الذي لا بداية له

فالسؤال يشبه القول: ‘‘ما شكل المثلث ذي أربعة أضلاع؟” هذا ليس سؤالًا... بل تناقض لفظي.

وقد ذكر العلماء أمثلة توضّح الفكرة بجلاء:

تخيّل أنك وضعت كتابًا على مكتبك ثم خرجت، وعدت فوجدته داخل الدرج. هنا ستجزم أن أحدًا نقله، لأنك تعرف أن الكتاب بطبيعته لا يتحرك من تلقاء نفسه؛ لكن لو خرجت ثم عدت فوجدت صديقك الذي كان جالسًا على الكرسي قد جلس على الأرض، فلن تسأله: *"من الذي حرّكك؟"* لأنك تعلم أن الإنسان كائن حيّ عاقل، يتحرّك بإرادته واختياره ، **وهذا يوضّح أن الحكم على الشيء يكون بحسب طبيعته.**

ربط المثال بقضية الخلق

الكون محدود، وله بداية. وكل ما له بداية لا يمكن أن يوجد من العدم بنفسه، لأن العدم لا يُنتج شيئًا.

فالضرورة العقلية تقتضي أن كل محدود يحتاج إلى مُحدِد، وأن المحدود لا يمكن أن يوجِد نفسه.

بل إن المحدود يلزمه مطلق —كضرورة عقلية — كما بيّنا سابقًا؛ منعًا للتسلسل اللانهائي، الذي هو محال عقليًا كما أوضحنا.

تنويه : مثال الكتاب السابق يذكّرنا بما ذكرناه في الدليل العقلي الثالث عند الفلاسفة ، حيث إن المادة من حيث هي مادة لا تتحرّك بذاتها، بل تحتاج دائمًا إلى مُحرِّكٍ خارجٍ عنها.

وبما أنّ الكون كلَّه مادةٌ متحرّكة، فإن العقل يقطع بضرورة وجود مُحرّكٍ أول خارج الكون نفسه، به بدأت الحركة، وانتظم النظام، واستحال تفسير ذلك بغيره.

وبعد ثبوت أن الكون محدود، وأنه محتاج بالضرورة إلى مُطلق، ينتقل العقل إلى قاعدةٍ أخرى لا تقلّ بداهةً عنها، وهي أن: المحدود لا يمكنه — بحكم طبيعته — أن يُدرك حقيقة المطلق، ولا أن يُحيط به.

وهذه ليست دعوى إيمانية مجرّدة، بل قاعدة عقلية ورياضية معروفة، يقرّرها علماء الرياضيات بوضوح: لا يمكن للجزء المحدود أن يحتوي أو يُحيط بالغير المتناهي.

ويُعبَّر عن ذلك في الرياضيات بعلاقة الاحتواء: **finite set ⊂ infinite set**

أي لا يمكن للجزء المحدود أن يحيط بالمجموع غير المنتهي.

وكانت تُرسم في الرياضيات بدائرة صغيرة داخل دائرة كبيرة، وبديهيٌّ أن الدائرة الصغيرة لا يمكن أن تدرك أو تحيط بالدائرة الكبرى.

وكذلك العقل البشري — مهما بلغ — فهو عقلٌ محدود كما نعلم.

ومن هنا يتجلّى الانسجام التام بين العقل الصريح والوحي الصحيح، في قول الله تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)

فعدم إدراك المحدود للمطلق ليس نقصًا في العقل، بل هو ضرورة عقلية تفرضها طبيعة المحدود نفسه.

ومن هنا كانت مهمة الرسل الأولى هي تعريف الناس بالله عزّ وجلّ؛لأن الإنسان لا يمكنه أن يعرف ربّه حقّ المعرفة إلا بالوحي، إذ إن الله سبحانه هو الذي يعرّفنا بنفسه، وبأسمائه وصفاته على وجه الكمال.

ومن هنا كانت معجزةُ القرآن العظمى أنه لم يأتِ فقط بالتشريع والهداية، بل جاء بتعريف الإنسان بربّه؛ تعريفًا يليق بجلاله، ويُظهر كمال أسمائه وصفاته، ويضع العقل في موضعه الصحيح: فيتدبّر في المخلوقات ليصل إلى الخالق، ولا يُفرغ طاقته فيما لا يقدر عليه، فيُهلك نفسه ويضلّ عن سواء السبيل.

وانظر إلى الأعرابي — بفطرته السليمة وعقله الصافي— كيف عبّر عن هذه الحقيقة بأوضح بيان، حين سُئل :بمَ عرفت ربّك؟ فقال: البَعرةُ تدلّ على البعير، وأثرُ القدم يدلّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، ألا تدلّ على اللطيف الخبير؟!

الخلاصة : الكون — بكل ما فيه من قوانين وزمان ومكان — لابد له من موجِد مطلق ، أوجده من العدم، وعيّن له قوانينه، وحدّد بدايته.

أما الله سبحانه وتعالى فهو: قائم بذات ، خالق الكون وما فيه من قوانين تحكمه ،ولذلك لا ينطبق عليه سؤال" :*من خلقه؟*" كما أنك لا تسأل" :*من خلق قوانين الطبيعة قبل وجود الطبيعة؟*"

لأن السؤال نفسه باطل من أساسه.

وهذا ما علمنا به النبي ﷺ، إذ بيّن أن هذا السؤال هو من وساوس الشيطان. فقال ﷺ: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ« (رواه البخاري ومسلم)

وفي رواية أخرى، علّمنا النبي ﷺ أن نردّ بقوة التوحيد:

»قولوا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]

فالوحي الشريف يؤكّد ما شهد به العقل: أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، الغني عن كل سبب، والسبب الأول لكل موجود.

ومن العجائب حقًا — أنك تجد بعض الملاحدة إذا قلت له: العدم عاجز عن خلق الكون، يوافقك فورًا، ويقرّ بأن العدم لا يمكن أن ينتج شيئًا، لكنّه — وبمجرد أن يقترب الأمر من الإيمان بالخالق — يهرب إلى فكرة **أزلية الطبيعة!**

طبيعة مادية صمّاء، لا عقل لها، ولا وعي، ولا إرادة، ولا تخطيط... ومع ذلك يتعامل معها وكأنها كيان أزلي قائم بذاته!

وهنا يظهر التناقض الواضح: هو يرفض أزلية الخالق العليم الحكيم، ثم يقبل — بلا حرج — أزلية طبيعة عمياء، لا تملك أي صفة تُبرّر وجودها أصلًا، فضلًا عن أزليتها!

فنقول له سؤالًا بسيطًا مباشرًا: كيف تقبل بسهولة فكرة "أزلية الطبيعة العمياء"، وتستثقل — بكل عناد — الإيمان بأزلية الله سبحانه وتعالى؟

كيف تقبل بأزلية شيء لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك، وترفض أزلية ربٍّ كامل الصفات، ظاهر آثار حكمته في كل ذرة من ذرات الكون، وفي كل قانون، وفي كل نظام، وفي كل حركة؟

ثم هنا تتجلّى المفارقة الأعجب والأشد خطورة: **أفيكون من العقل والمنطق أن يكون الإنسان المحدود — الذي يسمع ويبصر ويعقل وله إرادة ومشيئة — أرفعَ وأكملَ من "إلهه" المزعوم؟ أفيُعقل أن يكون الكائن المحدود أسمى من المطلق؟!** أفيُعقل أن يكون الأثر —وهو الإنسان الواعي— أعظمَ من المؤثِّر الذي أوجده؟ وأن يكون الفرع —أي المخلوق المعتمد على وجود غيره في أصله — أكمل من الأصل —أي المصدر الذي صدر عنه وجوده ابتداءً؟

وبما أن الإنسان يملك وعيًا وإرادةً وعقلًا، فكيف يكون أصل الوجود — بزعمهم — مجرد طبيعةٍ صمّاء لا تعي ولا تريد ولا تقصد؟ كيف يُعطي ما لا يملك؟ وكيف يصدر العقلُ الواعي عن أصلٍ ماديٍّ لا عقل له ولا وعي؟ وكيف تنشأ الإرادة من مادةٍ لا تعرف معنى الإرادة أصلًا؟

لهذا كانت حُجّة القرآن قاطعة لا لبس فيها، حين قال تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٣)

وقال إبراهيم عليه السلام في أعظم سؤال عقلي ووجودي:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٤٢)

فكل ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يريد، لا يصلح إلهًا، ولا يليق أن يكون مطلقًا، ولا يمكن أن يكون أصل الوجود.

وعلى هذا الأساس العقلي نفسه، ساق القرآن محاجّة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لقومه، ليُجسّد بها بطلان الشرك عمليًّا، ويقدّم نموذجًا خالدًا لصفاء العقل واستقامة الفطرة.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٤–٧٩)

تأمّل إبراهيم عليه السلام ما عظّمه قومه من أجرام السماء، فرأى كوكبًا، ثم القمر، ثم الشمس، فرآها جميعًا تخضع للحركة، وتدور في فلك التغيّر؛ تظهر ثم تغيب، وتطلع ثم تأفل.

فعلم — كما تقتضي البداهة العقلية — أن ما يتحرّك لا يكون أزليًّا، وأن ما يتغيّر لا يكون مطلقًا، وأن ما يأفل ويغيب لا يستحق أن يكون إلهًا؛ لأن الإله الحق لا يطرأ عليه نقص، ولا يخضع لقوانين، بل هو خالق القوانين ومدبّرها.

ولذلك لم يحتج إبراهيم عليه السلام إلى جدال طويل، بل نطق بالكلمة القاطعة التي هدمت التصوّر من جذوره : ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ إذ كيف يُتَّخذ إلهًا ما يغيب، أو يخضع للتغيّر، أو تحكمه حركة لم يخترها؟

وحين تبيّن له أن الكون كلَّه — بأجرامه وقوانينه — واقع تحت سلطان الحركة والحدوث، علم أن كل متحرّك لا بد له من محرّك، فَوَجَّه وجهه إلى الذي فطر الكون وابتدأه؛ خالقِه سبحانه،

المتعالي عن مخلوقاته، الذي لا تحكمه قوانينُها ولا يجري عليه ما يجري عليها، فقال قولته الجامعة للتوحيد الخالص: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾

أي للذي أوجد هذا الوجود ابتداءً، وأقام نظامه، وأجرى حركته، وهو سبحانه منزَّه عن الغياب والأفول، كامل الصفات، مطلق الكمال.

وهكذا كانت محاجّة إبراهيم عليه السلام: انتقالٌ من النظر في المخلوق إلى الإقرار بالخالق، ومن مشاهدة الآثار إلى الإيمان بالمؤثِّر، ومن رفض المحدود المتغيّر إلى التوجّه نحو المطلق الأزلي.

ومن هنا تتجلّى عظمة الأسماء والصفات في الإسلام؛ إذ يعرّفنا بإلهٍ كامل الصفات: عليمٌ لا يخفى عليه شيء، قديرٌ لا يعجزه شيء، حيٌّ لا يلحقه فناء، مريدٌ يفعل بحكمة، حكيمٌ يضع كل شيء في موضعه، وغيرها مما وصف به نفسه في كتابه، وثبت في سنة نبيه ﷺ؛ كمالٌ مطلق يليق بالألوهية، لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه.

وخلاصة هذه الفقرة، نقولها بوضوح:

إن الأدلة العقلية والعلمية جميعًا تُثبت أن الكون محدود وله بداية، وكلُّ محدودٍ لا بدّ له من مُطلَق.

وحتى لو خالفتَ العقلَ والعلم، وادّعيتَ أن الطبيعة أزليةٌ مطلقة، فنقول لك: يستحيل عقلًا أن تكون هذه صفاتِ إله؛ لأنك أنت — مع كونك مخلوقًا محدودًا — تسمع وتُبصر وتعقل وتُريد،فكيف يكون ''إلهك'' أقلَّ منك كمالًا؟ بل أنت أرفعُ منها من حيث الصفات، وهي في الأصل مُسخَّرةٌ لك، لا حاكمةٌ عليك.

وسيأتي بيان ذلك تفصيلًا — إن شاء الله — في الفصل الثاني.

ويبقى الحكمُ العقليُّ القاطع: يستحيل أن يكون المحدودُ أعلى من المطلَق، ويستحيل أن يكون المسخَّرُ أعظمَ من المسخِّر له.

وفي ختام الفصل : يقف العقل أمام ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

١- أن الكون خرج من العدم بلا سبب

وهذا محال عقليًا، لأن ''العدم'' لا طبيعة له ولا قدرة ولا وجود أصلًا، فكيف يُنتج شيئًا؟ العدم لا يخلق، ولا يسبب، ولا يُنتج. والقول بأنه أوجد الكون هو إلغاء للعقل نفسه وإسقاط لقانون السببية الذي يقوم عليه كل علم وكل معرفة بشرية.

٢- أن هناك سلسلةً لا نهائيةً من الأسباب والخالقين

وهذا محال أيضًا؛ لأن تسلسل الأسباب بلا بداية يمنع وصول أي نتيجة إلى الوجود.

لو كانت السلسلة لا أول لها، لما ظهر شيء على الإطلاق: لا الكون، ولا المادة, ولا الحركة، ولا أي حدث نراه اليوم.

فالسلسلة اللانهائية لا تبدأ، وما لا يبدأ... لا يُثمر.

٣- وجود خالقٍ أزلي لا بداية له

هو الذي بدأ كل شيء، وأوجد الوجود من العدم، وأطلق سلسلة الأسباب التي أوصلتنا إلى ما نراه اليوم.

وهذا الخيار وحده هو الذي يبقى بعد استبعاد المستحيلات، فيصبح الاعتراف بوجود خالقٍ أزلي ضرورة عقلية لا يمكن الهروب منها.

العقل إذا أبعد كل المستحيلات... لم يبقَ إلا الحق. وهذا ما يسمّى بالضرورة العقلية: أي الحكم الذي يفرضه العقل فرضًا

مثال يوضح معنى "الضرورة العقلية"

إذا قلنا :*مجدي أكبر في السن من أحمد، وأحمد أكبر في السن من عمر*، فالعقل يقطع ـــ بالضرورة العقلية ـــأن مجدي أكبر من عمر، حتى لو لم يُذكَر ذلك صراحة.

هذا استنتاج *لا يحتاج تجربة ولا احتمال*؛ بل يفرضه العقل فرضًا.

توضيح معنى المحال والضرورة العقلية؟

١- المحال العقلي :هو ما يستحيل وجوده في ذاته، لأنه يناقض أبسط مبادئ العقل.

مثل شخص أطول من نفسه وأقصر من نفسه في اللحظة نفسها ⟵تناقض ذاتي.

أو خط مستقيم منحنٍ في نفس اللحظة ⟵اجتماع النقيضين.

ومثله تمامًا:

- خروج الشيء من العدم المحض (اللاشيء).
- سلسلة لا أول لها من الأسباب كما بينا .

هذه ليست مسائل نظر... بل محالات عقلية قطعية.

٢- الضرورة العقلية :هي ما يجب أن يكون بعد استبعاد كل ما هو مستحيل، تمام كما يقول علماء المنطق (إذا كان البديل مستحيلًا... فالنتيجة واجبة)

فمثلا إذا كان الشيء إما موجودًا أو غير موجود، واستحال أن يكون غير موجود، فالعقل يقطع بالضرورة العقلية أنه موجود.

وكالمثال السابق: مجدي >أحمد >عمر، فيلزم — بالضرورة العقلية — أن مجدي > عمر، حتى لو لم يُذكر ذلك نصًا.

وبالقياس نفسه: إذا كان العدم لا يخلق شيئًا، وكان التسلسل اللانهائي مستحيلًا، فالعقل يقطع — بالضرورة العقلية — أنه لا بد من خالقٍ أزلي بدأ كل شيء، وهذا هو الاستنتاج العقلي النهائي الذي يقود إلى وحدانية الخالق وكمال قدرته وعظمته:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾سوره الإخلاص

***

الفصل الثاني: برهان التوافق العقلي الكوني

المبحث الأول : كونٌ مفهوم بدقة... وعقلٌ مُبرمج للفهم

الفكر الإلحادي... والمأزق العقلي

بعد أن أثبتنا في الفصل السابق، بالدليل العقلي والعلمي، أن الكون ليس أزليًا، وأنه بدأ من لحظة صفر لم يكن قبلها زمانٌ ولا مكانٌ ولا طاقةٌ ولا مادة، نتجاوز الآن هذه الفكرة لنقدّم برهانًا آخر، برهانًا يُدحض الإلحاد من جذوره.

وسنمنح الملحد — من باب التنازل الجدلي — كل ما يطلبه، ونتغافل مؤقتًا عن مسألة أنها جاءت من العدم، فننظر إلى الطبيعة كما هي الآن: بقوانينها، ومادتها، وطاقتها، وحركتها.

ونبدأ بالسؤال الذي لا مهرب منه عقليًا: إذا كانت الطبيعة بلا خالق، ولا قصد، ولا تنظيم... فكيف ينبغي — منطقيًا — أن تتصرّف؟

والجواب البديهي: أن تتحرّك عشوائيًا، بلا نظام ثابت، ولا قوانين منضبطة، ولا غايات مفهومة.

فإنكار الخالق يستلزم بالضرورة إنكار التنظيم والقصد، وهنا نصل إلى نقطة حاسمة: العشوائية ليست خيارًا عند الإلحاد، بل التزامٌ عقليٌّ لازم؛ لأن أي اعتراف بالعقل أو القصد أو الغاية يستلزم وجود خالق، وحينها ينهار التصوّر الإلحادي من جذوره.

والمثير أن الملاحدة المعاصرين يقدّمون لنا هذه الإجابة بأنفسهم؛ فالكون — عندهم — لم يصدر عن إرادة أو حكمة، بل هو انفجار أعمى عشوائي، دون توجيه ولا غاية .

وهذه ليست نتيجة بحثٍ أو اكتشاف، بل التزامٌ إلحادي لا يستطيعون التراجع عنه.

ولهذا ترى الملحد الملتزم بإلحاده يقول : "كل ما في الكون مجرد ذرات عشوائية بلا قصد ولا عقل، نتجت عن انفجار أعمى".

وكما بيّنا سابقًا، فالعشوائية ضرورة عقلية مفروضة على من ينكر الصانع.

لكن بدلًا من الاكتفاء بأمثلة بسيطة — كالساعة — سنعرض مثالًا أوضح، وأقرب إلى الواقع، وأكثر إلزامًا: كوكب الأرض نفسه.

نسأل مباشرة :كيف وُجدت الأرض بكل هذا التوازن والدقة؟

أمام العقل احتمالان فقط، لا ثالث لهما:

١. إمّا أن هناك خالقًا حكيمًا عليمًا، صمّم قوانين الأرض، وضبط مسارها حول الشمس، وهيّأ غلافها الجوي، وحدّد نسب عناصرها بدقة متناهية.

٢. وإمّا أن المادة نفسها — كربون، هيدروجين، أكسجين، حديد، سيليكون... — قد رتّبت نفسها تلقائيًا، بعد سلسلة انفجارات وتفاعلات عشوائية، بلا قصد ولا توجيه، حتى ظهرت الأرض بهذا الإتقان. وهذا هو بالضبط ما يقوله الماديون فعليًا.

واللافت هنا أن العناصر نفسها التي يتكوّن منها الإنسان: الكربون، والهيدروجين، والأكسجين، والحديد، والسيليكون... هي ذاتها عناصر الأرض، وهي أصلًا عناصر صُنعت في النجوم.

وتذكّر ما قرّرناه في الباب الأول: أن الملحد يقول إن هذه العناصر المادية اتحدت عشوائيًا عبر الزمن لتكوين الإنسان الحيّ العاقل، وبناءً على هذا المنطق نفسه، فهو مُلزَم أن يقول هنا أيضًا: إن هذه العناصر ذاتها اتحدت عشوائيًا لتكوين الأرض، ثم النظام الشمسي، ثم منظومة كونية كاملة شديدة الانضباط والدقة.

السؤال الحاسم إذن: هل يوجد احتمال ثالث معقول لظهور الأرض خارج هذين الاحتمالين؟

- خالق حكيم عليم، أو مادة عمياء أنتجت هذا النظام صدفة؟ عقليًا، لا يوجد أي احتمال آخر.

ولهذا، إذا أراد الملحد أن يبقى ملتزمًا بإلحاده، فلا مفرّ أمامه إلا قبول هذه المعادلة:

مادة عمياء عشوائية + زمن = كون منضبط، مفهوم، قابل للفهم.

لكن أي اعتراف بوجود قصد أو غاية أو عقل منظِّم يعني سقوط الإلحاد فورًا.

ولذلك تجد كبار الملاحدة مضطرين — شاءوا أم أبوا — لتبنّي فكرة الانفجار العشوائي الأعمى؛ فكما أنهم مضطرون في مثال الساعة إلى القول إن الأجزاء الدقيقة رتّبت نفسها وحدها، فهم مضطرون في مثال الكون إلى القول إن القوانين والمعايير والضوابط رتّبت نفسها وحدها بلا عقل ولا حكمة.

وسنرى في الصفحات القادمة أن هذه الدعوى بالعشوائية وهم لا يستقيم؛ وأن هذا الكون — بنظامه المحكم، وثبات قوانينه، ومفهوميته الدقيقة، وانسجامه العجيب مع عقل الإنسان—

يستحيل أن يكون نتاج صدفة عمياء، بل هو برهان ساطع على وجود خالق عليم حكيم، جمع بين دقة الكون وبرمجة العقل لفهمه.

الإعجاز في الكون المنظم والمفهوم

دعنا نبدأ من البداية تمامًا: لو وجدت ساعة على الأرض... ساعة دقيقة، بعقارب تتحرك بانتظام، وتروس تدور بانسجام، هل أول ما سيخطر ببالك أن تقول: "بالتأكيد جاءت صدفة، أو خرجت من العدم!"؟

أم ستقول ببساطة: "وراءها صانع ذكي يعرف ماذا يفعل".

حسنًا... لننتقل لمثال أكبر:

لو رأيت حاسوبًا محمولًا ...فيه لوحة مفاتيح، وشاشة، ومعالج، وبرمجيات تعمل بتناغم ، هل يخطر ببالك لحظة أن هذا كله جاء بلا مهندس أو مصمم؟ بالطبع لا.

كل جزء فيه — من توزيع الكهرباء، إلى الدوائر الإلكترونية، إلى الأكواد البرمجية — يدل على وجود عقل رتّبه بدقة، وكلما زاد التعقيد ...ازدادت استحالة الصدفة.

فكيف بكوكب الأرض؟

إذا كان هذا حال ساعة أو حاسوب، فماذا نقول عن كوكب كامل؟

كوكب يدور في مدار محسوب، بكتلة محددة، وغلاف جوي مضبوط، ومسافة دقيقة عن الشمس...

لو اختل عامل واحد فقط، لاختفت الحياة تمامًا.

دعنا نرى بعض ملامح هذا النظام:

- الأرض تدور حول الشمس بسرعة محسوبة تنتج عنها الفصول.
- الفصول تتحكم في الزراعة.
- الزراعة تمد الإنسان بالغذاء.
- والغذاء يمنحه الحياة.

وكأنك تنظر إلى نظام برمجي هائل، كل خطوة فيه تعتمد على ما قبلها.

خذ مثالًا الشمس:

- ضوؤها ليس مجرد إضاءة، بل هو أساس عملية التمثيل الضوئي.
- التمثيل الضوئي ينتج الأكسجين.

- الأكسجين يصل إلى كل خلية في جسدك ليبقيك حيًا.

ومثالًا القمر:

- جاذبيته تضبط المد والجزر.
- المد والجزر ينظمان البيئة البحرية.
- البيئة البحرية تؤثر في توزيع حرارة الكوكب.
- الحرارة تتحكم في المناخ.
- والمناخ يرسم تفاصيل الحياة اليومية.

بل أعقد من ذلك: جسم الإنسان نفسه ، أعقد نظام في الوجود هو أنت.

كل خلية في جسمك تحمل شيفرة مكتوبة بأربعة أحرف فقط(**DNA**) ، ومع ذلك تحتوي على أوامر إدارة وتشغيل وبناء كل أعضائك: القلب ،الدماغ، الأعصاب، التنفس، المناعة**...** كلها تعمل بتناغم مذهل، وأي خلل صغير = انهيار كامل للنظام.

فإذا كان هذا كلّه في كوكب واحد... فكيف بالكون كله؟

الكون ليس مجرد فضاء واسع أو فراغ صامت، بل هو بناء كوني بالغ الدقة، تعمل مكوناته معًا بتناغم أشبه ما يكون بآلة هائلة مترابطة.

انظر إلى بعض ملامحه:

- مجرّات تضم مئات المليارات من النجوم، وكل مجرّة تتحرك في الفضاء بانسجام مذهل.
- نجوم تولد وتموت وفق قوانين فيزيائية دقيقة، وتوزّع العناصر التي تتكوّن منها الكواكب والحياة.
- كواكب بأحجام ومدارات مختلفة، لكل منها ظروف حرارية وجوية محددة.
- مسافات محسوبة بين الأجرام؛ فلو اقترب نجم من آخر أكثر مما ينبغي لانهار النظام كله.
- قوى فيزيائية ثابتة مثل الجاذبية والقوة النووية والقوة الكهرومغناطيسية... لو تغيّر مقدار أي منها بنسبة ضئيلة جدًا، لاستحال وجود الذرات أصلًا.
- قوانين كونية قابلة للفهم؛ من الجاذبية إلى الضوء إلى حركة الأجرام، وكلها مكتوبة بلغة رياضية دقيقة، وكأن الكون "يعرض نفسه" للفهم.
- نسب دقيقة حساسة للغاية، مثل كثافة المادة، ومعدل التوسع، وشحنة الإلكترون... أي انحراف بسيط فيها كان سيجعل الكون إما ينفجر بلا تشكيل، أو ينهار قبل أن يبدأ.

هذا ليس مجرد فضاء... هذا نظام كوني كامل يعمل كآلة دقيقة، كل طبقة فيه منسجمة مع الأخرى:

من حركة الإلكترون حول النواة... إلى حركة القمر حول الأرض... إلى دوران الأرض حول الشمس... إلى دوران الشمس حول مركز المجرّة... إلى حركة المجرّات نفسها.

والأعجب من ذلك: رغم ضخامته التي لا يتصورها عقل، إلا أن الكون يعمل وفق مجموعة قوانين ثابتة منسجمة من أصغر جسيم دون ذري إلى أكبر عنقود مجرّي.

لهذا نقول بثقة: الكون أعقد بما لا يُقاس من أي آلة صنعها الإنسان.

بل هو أشبه بـ آلة كونية متقنة، كل جزء فيها يؤدي وظيفة محددة ضمن منظومة كبرى محكمة بدقة مذهلة.

إذن... هل يمكن للعشوائية أن تصنع هذا؟

العشوائية لا تبني أنظمة، ولا تكتب قوانين، ولا تضبط نسبًا، ولا تنتج علاقات مترابطة، ولا تخلق شيفرات معلوماتية كـ**DNA** ، ولا تفهم "المعادلات" و"الحساب" و"الضبط" أصلًا.

والذي نراه أمامنا هو: "كون منظم، مفهوم، مترابط، دقيق، متكامل، حيّ، ويخدم غايات محددة".

كلما زاد التعقيد... ازدادت استحالة الصدفة.

وكلما زاد ترابط النظام... ازدادت غرابة القول بالعشوائية.

- لو كانت الشمس أقرب قليلًا ⟵ نحترق.
- لو أبعد قليلًا ⟵ نتجمد.
- لو دارت الأرض أسرع ⟵ انهارت الحياة.
- لو أبطأ ⟵ النتيجة نفسها.

كل شيء يسير على مقياس حساس للغاية.

خلاصه هذه الفكرة

الكون نظام محكم، متشابك، دقيق، كل جزء فيه يخدم وظيفة محددة، وأي خلل بسيط فيه يؤدي إلى انهيار شامل، وهذا دليل عقلي صلب على وجود خالق حكيم أتقن كل شيء.

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

(تنويه قبل الانتقال إلى مفهومية الكون: منهجي في هذا الاستدلال يبدأ تدريجيًا: بالساعة، ثم الحاسوب، ثم كوكب الأرض، ثم الكون كله. فكرة هذا المنهج: إذا كان من المستحيل أن تكون الساعة أو الحاسوب بلا صانع، فمن أولى وأقوى أن نستنتج أن كوكبًا كاملًا – بأجوائه ومناخه ومياهه ونباتاته وحيواناته ونظامه البيئي المتكامل – لا يمكن أن يكون بلا خالق، هذه الطريقة، المعروفة بالاستدلال بالأولى، من أرسخ المبادئ العقلية وأكثرها ثباتًا، ويستخدمها العقلاء في كل مجالات الحياة. فاتباع هذا المنطق لا يعبر عن سخف تجاه الإلحاد، بل عن مبدأ عقلاني يظهر استحالة العشوائية في المخلوقات المعقدة؛ فالمادة في الطبيعة لها سلوك ثابت، ومن المستحيل أن تتجمع عشوائيًا لتكوين نظام معقد كالساعة، فكيف لنفس مادة الطبيعة أن تكون الإنسان والحيوان والنبات، بل الأرض والكون كله؟ وسلوكها واحد!)

وليس الكون منظمًا فحسب... بل هو أيضًا مفهوم.

وماذا يعني أن يكون "مفهومًا"؟ يعني أننا نستطيع فهمه، دراسته، وكتابة معادلات رياضية تصفه بدقة.

تخيل تجربة بسيطة: ترفع جسمًا ثم تتركه... فيسقط ، تعيد التجربة مرة ثانية، ثالثة، عاشرة... والنتيجة دائمًا نفسها، لماذا؟ لأن هناك قانونًا ثابتًا اسمه "الجاذبية"، يعمل باستمرار، في كل زمان ومكان.

إذن الكون يسير وفق قوانين ثابتة، وليس وفق مزاج الذرات أو صدفة عشوائية متكررة، وهذا بالضبط هو سر وجود العلم التجريبي أصلًا.

فلو لم يكن الكون ثابتًا ومنظمًا ومفهومًا: هل كان يمكننا أن نمارس البحث العلمي؟ أو أن نتنبأ بالنتائج؟ أو أن نكتشف ونخترع؟ أو حتى نرسل صاروخًا إلى القمر؟

الجواب قطعًا: لا. لأننا لن نكون قادرين على فهم كيفية عمل الكون ابتداءً.

✦العلم = فهم القوانين.

✦ الاختراع = استثمار هذا الفهم.

أمثلة من حياتنا اليومية على "مفهومية الكون:"

حتى الأشياء التي نظنها بسيطة جدًا —— كالطهي، وغلي الماء، وتشغيل الفرن —— كلها تعتمد على ثبات القوانين:

أنت تعرف أن الماء سيغلي عند ١٠٠ درجة، وأن اللحم يحتاج وقتًا أطول من الخضار، وأن الحرارة تزيد الطهي لا تنقصه، هذه ليست معلومات عشوائية؛ هذه قوانين ثابتة داخل الطبيعة.

ولو لم تكن درجة الغليان ثابتة، ولا معدل انتقال الحرارة ثابتًا، ولا التفاعلات الكيميائية في الطعام ثابتة، فلن تستطيع أن تطهو نفس الطبخة مرتين بنفس الطعم، ولن تستطيع المقادير أن تعطي نفس النتيجة.

حياتنا اليومية كلها قائمة على "قابلية الطبيعة للفهم"، وهذا بحد ذاته دليل أن الطبيعة ليست فوضى، وإنما كتاب مفتوح بلغة دقيقة.

وللتوضيح أكثر معنى "الكون مفهوم:"

العلماء درسوا حركة الشمس والأرض، فهموا قوانين الجاذبية والدوران، فهموا العلاقة بين الزوايا والظل والضوء، وبناءً على ذلك، تمكنوا من تحديد اليوم الذي يحدث فيه كسوف الشمس.

وليس هذا فقط، بل حددوا الساعة التي يبدأ فيها الكسوف، والدقيقة التي تختفي فيها الشمس، وحتى الثانية التي تظهر فيها مرة أخرى.

قالوا: يوم كذا، الساعة كذا، الكسوف يستمر ٣ دقائق و١٤ ثانية، وفعلاً... حدث ذلك.

كيف؟ لأنهم فهموا نظام الكون، حسبوه، وتوقعوه بدقة.

هل يمكن أن يحدث ذلك في كون عشوائي؟ أو في كون غير ثابت؟ أو في قوانين غير مفهومة؟ بالتأكيد لا.

لنفكر بعمق: الكون يشبه كتابًا هائلًا، مكتوبًا بلغة الذرات والقوانين، والعقل البشري هو القارئ الذي يقرأ هذه الرسالة.

خذ مثال الكتاب العادي: ورق وحبر، والحبر نفسه ذرات وتفاعلات كيميائية. هذه الذرات تجمعت بنظام، فكونت حروفًا، والحروف بدورها كوّنت جملًا تحمل معنى محددًا للقارئ.

أي أن هناك مادة، نظام، قصد، ورسالة .فهل يعقل أن يقرأ القارئ هذه الرسالة وينكر وجود المرسل؟ هذا أبسط مثال على ما يُسمّى بالمعنى والهدف والوعي خلف المادة.

والكون؟ نفس الفكرة، لكن على نطاق أوسع. كل شيء حولنا: ذرات... مجتمعة بنظام، تكوّن عناصر، والعناصر تكوّن مواد، والمواد تتفاعل، تخضع لقوانين، وتنتج ظواهر قابلة للفهم والتوقع.

ليس مجرد تكديس للذرات، بل نظام دقيق، متناسق، ومفهوم .نحن البشر فهمنا هذا النظام: حسبنا حركة الشمس والقمر، توقعنا كسوف الشمس بالثواني، وحصل تمامًا كما توقعنا.

لماذا؟ لأننا فهمنا نظام الكون، حسبناه، وتوقعناه بدقة، هل يمكن ذلك في كون عشوائي؟ بالتأكيد لا.

✦العلم = فهم القوانين، والاختراع = استخدام هذا الفهم.

أي أن الكون ليس فقط منظمًا، بل هو أيضًا مفهوم.

وهذا المعنى هو الذي حيّر أينشتاين، وقال كلمته المشهورة:

"الشيء غير المفهوم حقًا... هو أن الكون مفهوم"!

كيف؟ كيف لعقلنا البشري أن يفهم الكون بهذه الدقة المدهشة؟ كيف المفتاح (العقل) يفتح القفل (الكون) تمامًا... بلا خلل؟ هل هذا يمكن أن يكون صدفة؟

دعني أخبرك بالمفاجأة: هناك تطابق عجيب بين عقل الإنسان، وبين قوانين الكون.

الكون = كالقفل، والعقل = كمفتاح، والمفتاح يفتح القفل، تفصيله مطابق تمامًا بلا خلل. هل هذا ممكن أن يخرج بدون صانع؟ أم هناك من صمم المفتاح (العقل)... لكي يفتح القفل (الكون)؟

وهذه ليست المرة الأولى التي نرى فيها "الزوجية" في الخلق، بل الزوجية سر من أسرار الكون، حتى المادة نفسها تحتوي على ذكر وأنثى، الذكر يكمل الأنثى... والأنثى تكمل الذكر، وهذه نوع من أنواع الزوجية.

لكن هناك نوع آخر أعظم وأعمق!

ليس فقط بين كائنين، بل بين "الكون" و"العقل"، بين المادة من حولنا... والوعي في داخلنا.

كأن هناك زوجية خفية، أشد تعقيدًا من أي زوجية عرفناها، تطابق مدهش بين "العقل البشري" و"مفهومية الكون."

أي أن عقلنا لا يفهم الكون فقط، بل الكون كأنه مصنوع ليُفهم، كأن الاثنين خرجا من مشكاة واحدة، لهما نفس اللغة، نفس الإيقاع، نفس النظام، تناغم غير طبيعي... وتناسق عجيب.

سبحانك يا الله!

والدليل الصارخ على أن الكون كتاب مفهوم ونحن قراؤه، هو **وجود الحضارة الحديثة، والعمران، والتقدم العلمي والتكنولوجيا**؛ فكل هذا لا يمكن أن يحدث لولا أن الكون قابل للفهم وأننا قادرون على إدراك قوانينه ونظامه.

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [يونس: ١٢]

فالكون مكتوب بلغة دقيقة، يمكن للإنسان أن يقرأها ويفهمها، ويحسب الظواهر ويستخرج القوانين، تمامًا كما أرشدنا الله أن نتعلم حساب الزمن وعدد السنين وحركة الليل والنهار. كل ذلك دليل على أن الكون نظام مفهوم، وأن فيه معاني وقوانين قابلة للإدراك بالعقل البشري، تمامًا كما يقرأ القارئ الرسالة في كتاب واضح ومقصود.

فالخلاصة أن:

- الكون = كتاب، مليء بالقوانين والنظام.
- العقل = قارئ، قادر على الفهم، والاكتشاف، والاختراع.
- المعلومة = القانون أو الظاهرة أو التناسق أو المعنى الذي نكتشفه

أي أن هناك من كتب هذا المعنى في الكون، ونحن مخلوقون لنقرأه. فكيف يكون هناك كتاب بلا مؤلف، أو رسالة بلا مرسل، أو تطابق بين المعنى ووعي القارئ بلا قصد؟

المعادلة واضحة :قوانين + ترتيب + هدف = معنى.

- المعنى لا ينبثق من العشوائية، ولا يُولد من الصدفة، ولا يصنعه اللاوعي.

الكون رسالة ناطقة، والعقل قارئ مهيأ لفهمها. يستحيل تصور أن يكون هذا النظام المهيب، بكل ما نحمله من فهم واكتشافات وحضارة وتقدّم، مجرد نتاج انفجارات مادية عشوائية. فكيف لصفحة واحدة من كتاب أن تُكتب بذرات مادة الحبر الأزرق وحدها؟

والمفارقة أن مادة الحبر، من حيث أصلها المادي وسلوك عناصرها، لا تختلف عن أي مادة أخرى تخضع للقوانين نفسها التي تحكم الذرات في الكون؛ ومع ذلك لا ينسب أحد المعنى إلى مادة الحبر ذاتها، بل إلى العقل الذي نظّمها ووجّهها وكتب بها.

وطبعًا، يلزم هنا التذكير بنقطة إضافية لتدمير فكرة العشوائية مع مرور الزمن، وهي:

القانون الثاني للديناميكا الحرارية (الانتروبيا)

"أي نظام مغلق مع مرور الزمن... تزداد فيه الفوضى، وينخفض النظام".

أي أن الزمن يهدم... لا يبني: الحديد يصدأ، الشمس تموت، كل شيء ينهار، أي أن الزمن لا يخلق نظامًا... بل يدمر النظام ، ومن هنا تتكشّف الحقيقة بوضوح: هذا الكون المنضبط، وذلك العقل القادر على قراءته وفهم قوانينه، ليسا ثمرة عشوائية عمياء، بل أثر تصميمٍ حكيمٍ دقيق، أوجد هذا التوافق المدهش بين العقل والكون على هذا النحو البديع.

ولكن هنا يبرز سؤال مهم جدًا: إذا كان الكون – وفقًا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية – يتجه من النظام إلى الفوضى، فكيف لا يزال إلى اليوم محتفظًا بدقته؟ وكيف تعمل منظوماته بانسجام مذهل؟ وكيف تبقى قوانينه ثابتة دون أن تنهار؟

الإجابة ليست في الذرات... ولا في العشوائية... بل في **حفظ الله المستمر ورعايته الدائمة؛ فهو القيّوم الذي لا ينام ولا يغفل.**

وهذا برهان قاطع على قيومية الله تعالى على الكون كله: فالكون ليس فقط مصنوعًا بإتقان، بل يعمل منذ نشأته بلا انهيار، وهذا أمر مستحيل لو كان بلا قيومية تحفظه وتدبره.

تأمّل معي مثالًا بسيطًا يوضح الفكرة: *تخيّل مصنعًا هائلًا* آلاف الآلات تعمل في اللحظة نفسها، سيور تتحرك، أذرع آلية تلتقط القطع بدقة، أفران، تبريد، حساسات، وبرمجة في كل جزء.

الآن اسأل نفسك: هل يمكن أن يعمل هذا المصنع من تلقاء نفسه وعشوائيًا، بدون مهندس أنشأه، ولا عقل صمّمه، ولا مُشرف يديره؟ هل يمكنه أن يستمر سنوات بلا ضبط، بلا صيانة، بلا رقابة؟ رغم تداخل مئات العمليات الدقيقة كل ثانية؟ إن إنكار وجود صانع لهذا المصنع ، يعني أن تقول إنه نشأ وحده... ويعمل وحده... ويستمر وحده! وهذا ضرب من الخيال؛ لأن أي خلل في آلة واحدة قد يوقف النظام كله ويُسقط الإنتاج.

فالآلات تُظهر *كيف تعمل بعد وجودها*، لكنها لا تستطيع أن تخلق نفسها، ولا تدير نفسها، ولا تحفظ نفسها، ولا يعمل المصنع إلا بوجود من يُشغّله ويقوم عليه دائمًا.

فإذا كان مصنع صغير لا يمكنه البقاء بلا قائم عليه، فكيف بالكون كله؟ مجرات، نجوم، كواكب، ذرات، خلايا... كلّها تعمل بلا توقف منذ ملايين السنين، وبإتقان يفوق أعقد المصانع البشرية أضعافًا لا تُقاس.

فالكون لا يمكن أن يستمر بهذا الإحكام إذا كان يعمل عشوائيًا بلا مسؤول ولا تدبير، بل بقيومية الله وحده الذي يقوم على الوجود كلَّه حفظًا وتقديرًا وتدبيرًا لا ينقطع، فلو تُركت الآلات لحظة بلا صيانة... تعطّلت، ولو تُرك الكون لحظة بلا قيومية... انهار.

انظر إلى السماء: هناك نحو تريليوني (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) مجرة، وفي كل مجرة مئات المليارات من النجوم. وبرغم هذا العدد الهائل والاتساع المذهل، تبقى المسافات محسوبة، والمدارات ثابتة، بلا اصطدام شامل.

وقد أقسم الله بهذه المواقع الجبارة فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]

والتعبير القرآني هنا بالغ الدقة؛ فلم يقل: ''بالنجوم''، بل قال: ''بمواقع النجوم.''

ووجه الدلالة أن ما نراه من نجوم ليس صورتها الآنية، بل مواقعها في السماء كما تصلنا، لأن الضوء يحتاج زمنًا طويلًا جدًا ليصل إلى الأرض.

فقد تكون بعض النجوم قد تغيّرت أو انتهى وجودها أصلًا، لكننا لا نراها إلا في موقعها الضوئي الذي وصلنا عبر الزمن.

وهذا يفتح بابًا علميًا عميقًا: أن السماء التي نراها ليست ''حاضر الكون''، بل صورة ممتدة عبر الزمن، مرسومة بدقة مذهلة تحكمها قوانين دقيقة تحفظ هذا النظام العظيم.

ثم إن هذا النظام الكوني لا يقف عند السماء، بل يمتد إلى داخلك أنت أيضًا: ملايين العمليات الحيوية تعمل في وقت واحد بلا توقف—إشارات الأعصاب، انقسام الخلايا، ضخ القلب، تنفّس الرئتين... ولو تعطّل واحدٌ منها لثوانٍ معدودة لاختل وجود الإنسان كله .

ولكن بماذا نرد على من يقول إن الكون منظم بسبب وجود القوانين مثل قانون الجاذبية مثلًا؟

الجواب أن القوانين لا تُنشئ الظواهر، بل تصفها بعد وجودها.

فهي تشرح ''كيف تعمل'' الأشياء، لكنها لا تفسّر ''من الذي أوجدها'' ولا من الذي ضبطها بهذا الاتساق الدقيق.

فالقانون في حقيقته وصفٌ للنظام، وليس مصدرًا له؛ يصف الحركة ولا يصنعها، ويُفسّر الانتظام ولا يُنشئه، تمامًا كما أن قوانين المرور تشرح حركة السيارات وتنظيمها، لكنها لم تُوجد السيارات، ولم تُحرّكها، ولم تحفظها من الاختلال، وهكذا في الكون: القوانين تشرح الظواهر، لكنها لا تُنشئها، ولا تُطلقها، ولا تحفظ انسجامها لحظة واحدة.

حتى ستيفن هوكينغ – رغم إنكاره للإله – لمح إلى ذلك ساخرًا حين قال:

"قد يتحوّل القمر إلى قطعة جبن"!انتهي

اعتراف غير مباشر بأن ثبات الكون ليس مضمونًا بذاته، وأن القوانين وحدها عاجزة عن صون الخلق وحفظ النظام دون قوة تقيمه.

أما الحقيقة فهي ما نطق به الوحي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو وحده الذي يُقيم هذا الكون ويحفظه، وبه تستمر الحركة والوجود، ولولاه لانهار كل شيء في لحظة.

وقال تعالى تأكيدًا لهذه الحقيقة الكونية: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فالسماء ليست معلّقة صدفة، ولا الأفلاك تجري من تلقاء نفسها؛ بل يمسكها العزيز الحكيم، ويحفظها القيّوم الذي إن رفع حفظه طرفة عين... تفرّق الكون كله.

نختم بالآيات الدالة على النظام والإتقان

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] إشارة إلى انعدام الفوضى والخلل في خلق الله، ودعوة للتأمل في التناسق الكوني.

والسماء في القرآن اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يعلونا، حيث يشمل ما فوقنا من أجرامٍ ونجومٍ وكواكب، وهو تذكيرٌ دائمٌ من الله سبحانه بالنظر والتفكّر في هذا الكون المنظَّم البديع.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]

تجري الشمس وفق نظام مقدر مضبوط، مما ينفي العشوائية.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]

منازل القمر تمثل نظامًا رياضيًا دقيقًا يُبنى عليه التقويم القمري.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]

تأكيد على الحركة المنظمة لكل جرم في مداره، بلا تصادم أو فوضى.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]

اختلاف الليل والنهار يعني دوران الأرض، وهو جزء من نظام دقيق دائم التكرار.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]

التعاقب المنتظم بين الليل والنهار جزء من النظام الذي يدعو الإنسان للتفكر والشكر.

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]

"أتقن كل شيء" تشمل كل تفاصيل الخلق، من الذرات إلى المجرات.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]

التركيب المتقن لجسم الإنسان جزء من النظام الخَلقي الكامل.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]

كل شيء خُلق بميزان وتقدير دقيق، من موقع النجوم إلى وزن الذرة.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣]

خلق، تسوية، تقدير، هداية... كلها تدل على إرادة وقصد ونظام.

ختامًا: الكون ليس فوضى، الكون منظّم... بدقة تفوق الخيال، والعقل ليس مادة سائبة، العقل فاهم... ويفك شفرات هذا الكون، وهذا ليس مجرد صدفة، بل تطابق عميق بين كون ناطق بالمعنى، وعقل مهيأ للفهم.

الكون كتاب، والعقل قارئ، والنتيجة الحتمية: هناك خالق... عليم... حكيم...قدير. خلق الكون بحساب، وخلق الإنسان بعقل... لكي يفهم.

ومن هنا نوجه التحدي: إن كنت تزعم أن العشوائية فعلت كل هذا، فقدّم لنا "مثل هذا الكون"... من غير نظام، ولا غاية، ولا عقل!

إن كنت تؤمن أن المادة ولّدت المعنى، فدعنا نرى "معنى واحدًا" يولد من مادة صماء... بدون وعي... وبدون قصد.

لكن الحقيقة الساطعة: الكون يشهد، والعقل يدرك، والفطرة تصرخ، أن وراء هذا النظام... إلهًا عظيمًا، لا يُشبهه شيء، ولا يعجزه شيء.

***

المبحث الثاني: برهان الضبط الدقيق

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣)

الكون المضبوط خصيصًا لحياتك

إعداد دقيق... قوانين محسوبة... وكون مجهَّز قبل مجيئك.

في الفصل الأول من باب "الكون" لاحظنا أمرًا مهمًا:

١- للكون بداية.

وهذا يعني أنه يحتاج إلى مُبدع، لأن العدم لا يولّد شيئًا، ولا يمكن أن ينبثق شيء من لا شيء.

٢- وفي المبحث الأول من الفصل الثاني، تبيّن لنا أن الكون ليس فقط منظّمًا، بل منظّمًا بدرجة مدهشة، بحيث يمكننا كتابة قوانينه في معادلات، وبناء علومنا وتقنياتنا عليها.

وهنا نصل إلى برهان ثالث ...برهان مذهل يوضح بجلاء:

الكون مُعدّ خصيصًا لك!

تخيّل المشهد... ومعناه عميق

أنت صعدت إلى الفضاء... سوف تموت فورًا، لأنه لا يوجد: أكسجين ، ضغط جوي ، حرارة مناسبة ، أي بيئة تساعدك على البقاء ، ثم فجأة تجد مركبة فضاء مجهّزة بالكامل تحتوي على: أكسجين مضبوط ،ضغط مثالي ،حرارة مناسبة ، طعام وشراب ، تهوية متكامل .

هل ستقول" :يا لها من صدفة جميلة! أن الطبيعة العشوائية كانت تعلم بقدومي فأعدت لي كل ما يحييني" ؟ أم ستقول" :مستحيل... هناك من كان يعلم بقدومي فجهّز هذه المركبة خصيصًا لأعيش فيها" ؟

المنطق يقول: هذا تصميم واضح ...لا صدفة ، لأن أي إعداد دقيق لحياة كائن حي يعني بالضرورة وجود "مُعِدّ" يعلم احتياجاته ويهدف إلى بقائه، أما الطبيعة العشوائية، فليس لها نية ولا معرفة ولا غاية لتوفر لك ما تحتاجه.

والآن انظر إلى الأرض: إنها مركبتك وسط كون قاتل.

وبحسب التصور الإلحادي، ظهر كوكب الأرض صدفة بعد سلسلة انفجارات غير واعية داخل الكون المادي.

لكن هنا يظهر الإعجاز: كيف تم ضبط كوكب الأرض بهذه الدقة العجيبة ليناسب حياة البشر، ونموهم، واستمرارهم؟

بل حتى تربة الأرض مهيأة لتحليل جسد الإنسان بعد موته، بطريقة تحفظ دورة الحياة، وتعيد العناصر إلى البيئة؛ وهذا أيضًا جزء من الضبط الدقيق!

والآن لنذكر بعض مظاهر الضبط في كوكب الأرض الذي أُعد خصيصًا لنا.

تذكّر دائمًا مثال "مركبة الفضاء..."

أمثلة مذهلة من الضبط الدقيق في كوكب الأرض

المسافة بين الأرض والشمس :

•لو كانت الأرض أقرب قليلًا ⟵ نحترق. و لو كانت أبعد قليلًا ⟵ نتجمد.

يجب أن تكون الأرض في المنطقة الصالحة للحياة.

وليس فقط المسافة... بل: سرعة دوران الأرض ، ميل المحور ، شكل المدار ،كلها مضبوطة مثل عقارب ساعة سويسرية.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم: ٣٣)

تركيبة الهواء:

الأكسجين**٢١٪** : لو زاد: الحرائق تشتعل ، لو قل: لا يمكن التنفس

ثاني أكسيد الكربون بنسبة محسوبة، لتعيش النباتات وتنتج الأكسجين للإنسان.

هذا ليس "هواءً." هذا وصفة كيميائية محسوبة لحياة كائن ذكي اسمه "الإنسان."

المياه... سر الحياة:

تجمد الماء = ٠° ، غليانه = ١٠٠° ، والماء يتمدّد عند التجمد (عكس السوائل الأخرى)

تخيّل لو لم يكن الماء كذلك...

كانت البحار ستتجمد من الأسفل إلى الأعلى ⟵ تموت الحياة البحرية ⟵ وتنتهي حياة البشر.

(وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [المؤمنون : ١٨]

سرعة دوران الأرض:

الأرض تدور في ٢٤ ساعة ـــ لا أكثر ولا أقل، لو أسرع قليلًا: رياح مدمّرة ، أعاصير بلا توقف ، جاذبية أقل ، وفوضى مناخية مميتة ، لو أبطأ قليلًا: النهار سيصبح أيامًا طويلة نحترق نهارًا... ونجمد ليلًا

المسافة بين الأرض والقمر:

القمر ليس مجرد منظر جميل... بل جزء من هندسة الحياة: يضبط المد والجزر ، يحافظ على ميل الأرض ،يوازن دورانها ، يثبّت المناخ ، لو كان أقرب ⟵ فيضانات مهولة ، ولو كان أبعد ⟵ اهتزاز المحور وخراب الفصول ، ولو كان حجمه مختلفًا ⟵ ينهار توازن اليوم والليل

صدف موزونة؟!

الغلاف الجوي:

الغلاف الجوي نظام هندسي كامل: سُمكه مضبوط ، طبقاته مرتّب ،كثافته محسوبة ،نسب مكوناته دقيقة ، فلو كان أثخن قليلًا ⟵ يخنقك ويمنع الضوء ، ولو كان أرقّ قليلًا ⟵ الأشعة القاتلة تدمّر الحياة، إنه درع أمان وتنفس وتنظيم حراري.

التوازن بين النبات والحيوان والإنسان:

على الأرض دورة مذهلة:

- النبات ينتج الأكسجين ويستهلك$\mathbf{CO_2}$
- الحيوان والإنسان يستهلكان الأكسجين وينتجان$\mathbf{CO_2}$
- الماء يتبخر، يتكثف، ينزل مطرًا
- البحار تنظّم الحرارة
- الغابات تُنقّي الهواء
- البكتيريا في التربة تُعيد تدوير النيتروجين ليصبح صالحًا للنبات

لو اختل أي جزء من هذه الدورة... انتهت الحياة.

هذا ليس "كونًا جاء مناسبًا للحياة" ، هذا كون **صُمّم للحياة.**

الخلاصة حتى الآن: الأرض ليست كوكبًا «مناسبًا» للحياة فحسب، بل كوكب مُهَيَّأ ومُعَدٌّ للحياة.

بل أكثر من ذلك، إنها مصمَّمة لك أنت.

كأنما قيل للكون: "**هيِّئوا لهذا الكائن القادم بيتًا كاملًا، مُجهَّزًا، موزونًا، محسوبًا بأدقّ المقاييس**"

والآن نترك الكوكب ونخرج إلى المسرح الكبير...

ننتقل من الأرض إلى **الكون كله**، ذلك الكون الذي يصفه الملاحدة بأنه عشوائي أعمى بعد انفجار عنيف نتج من اللاشيء.

ولكن الحقيقة المذهلة :الكون مضبوط بدقة مذهلة لا تُصدَّق!!

انظر : ثوابت الكون الدقيقة :

ثابت الجاذبية(G) :

"الرقم الذي يحدد قوة الجذب في الكون كله —— من حركة المجرات إلى وقوفك على الأرض.

درجة الدقة المضبوطة به؟ مذهلة للغاية: الدقة = **١ من ١٠ أس ٤٠ !**

يعني، لو تغير الرقم بنسبة

٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١، لانهار الكون بأكمله!

تخيّل معي: لديك ملف إلكتروني ضخم جدًا، يحتوي على مليار مليار رقم، ولو تغير رقم واحد فقط! الملف كله يتلف، والجهاز ينهار، وكل شيء يموت!

ثابت الجاذبية بالضبط كذلك: رقم واحد في قوانين الكون، يجب أن يكون مضبوطًا بدقة مذهلة.

ولو اختل؟ الكواكب ستطير بعيدًا عن الشمس، أو تنجذب إليها وتحترق، الذرات لن تتماسك، النجوم لن تعمل، وأنت لن تتكوّن أصلًا!

ثابت التوسع الكوني(Λ) :

يضبط سرعة توسع الكون بعد الانفجار العظيم.

لو أسرع قليلًا ← الكون يتفكك ولو أبطأ قليلًا ← ينهار على نفسه

درجة الدقة: واحد من ١٠ أس ٥٥!! بعد انفجار... المفترض أن يحدث فوضى، لكن الذي حصل :نظام هندسي بالغ الدقة.

الفرق بين كتلة النيوترون والبروتون :

الفرق صغير جدًا... لكنه حاسم، لو تغير قليلًا جدًا: الذرات لا تتكوّن ، لا توجد عناصر ،لا ماء ولا هواء ،ولا وجود للإنسان أصلًا

القوى الأربع في الطبيعة :

١. القوة النووية الشديدة

٢. القوة النووية الضعيفة

٣. القوة الكهرومغناطيسية

٤. قوة الجاذبية

كل واحدة منها مضبوطة كمن يجلس يعدّل شدة الصوت... درجة واحدة فقط خطأ ← الكون ينتهي.

هل الصدفة فعلت كل هذا؟ هل يمكن لشيء بلا عقل أن يضبط دوران كوكب، وميل محوره، وتركيب هوائه، ودورته المائية، ومسافته من الشمس، ومجاله المغناطيسي، وفي الوقت نفسه يضبط الجاذبية، والتوسع الكوني، والكثافة الأولية، والفروق النووية، والقوى الأساسية، ونشأة العناصر، وقوانين الفيزياء، ومعادلات الكون، وحركة المجرات، وتوازن النجوم؟

كل هذا ...بدون قصد؟ بدون تصميم؟ بدون علم؟ بدون حكمة؟ هل كانت "الطبيعة" تعرف مستقبل الإنسان قبل ١٣ مليار سنة لتجهز له كل ما يحتاجه لحياته واستمراره؟!

لا بد من فاعل عليم وحكيم، أبدع الكون قبل أن نأتي لنعيه، لنعيش فيه، ونعمّره، ولنجعل منه دليلاً على معرفة الخالق.

يقول عالم الفلك الشهير أرنو بنزياس، الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، يقول: "يقودنا علم الفلك لِحَدَثٍ فريد وهو خلق كون من لا شيء، كون موزون بميزان دقيق من أجل توفير الظروف التي تسمح بالحياة؛ كَوْنَ لَهُ خُطَّة مُحكمة، **وإن شئت فقل خارقه** " انتهي

(٥) **Margenau, H and R.A. Varghese, ed. ١٩٩٢. Cosmos, Bios, and Theos. La Salle, IL, Open Court, p. ٨٣.**

تدبَّر آيات سورة النحل... وكأنها تعرض برهان الضبط الدقيق عرضًا حيًّا.

ولكن قبل أن تقرأ الآيات بتدبُّر، تأمَّل هذا المثال الذي ذكره الشيخ الشعراوي رحمه الله: تخيَّل أنك في صحراء قاحلة لا يوجد فيها أحد، ثم وجدت طعامًا وشرابًا مما تشتهي مُعَدًّا لك!

فهل تقول إن الصدفة هي التي صنعت هذا الطعام؟! أم تقطع مباشرةً أن هناك من علم بحاجتك، فأعدَّه لك قبل أن تصل؟ كذلك حالك في هذا الكون...

جئت إلى الأرض فوجدت كل شيء مُهيَّأ: هواءً تتنفسه، وماءً تشربه، وشمسًا تدفئك، وأرضًا تحملك، ونظامًا دقيقًا يحفظ حياتك واستمرارها.

والآن... تأمَّل الآيات، وكأنها تصف هذه الحقيقة بدقة:

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣)خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (٤)وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥)وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦)وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧)وَٱلۡخَيۡلَ

وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨)وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩)هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١)وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢)وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٣)وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٤)وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥)وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (١٦)أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧))

تأمَّل كيف تتتابع الآيات: خلق... ثم تسخير... ثم نِعَم... ثم منافع... ثم هداية....

ويؤكد المعنى في موضع آخر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ *(الجاثية: ١٣)*

فهي تُعلن بوضوح: أن كل ما حولك مُعَدٌّ لك، ومُسخَّر لحياتك قبل أن تأتي إلى الوجود.

وكأن الكون كله يهمس لك: أنا لم أُخلق صدفة، بل جئت مُهيّأً، وأحمل في انتظامي دليلًا على خالقي.

***

الفصل الثالث: من الذي زيَّن الكون لذوقك؟ – برهان الجمال

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]

حين يتكلم الكون بلغة الذوق والإبداع

الشخبطة لا تصنع جمالًا... وكذلك العشوائية لا تخلق كونًا

تخيّل أنك أحضرت طفلًا صغيرًا ما زال يتعلّم كيف يمسك القلم، ثم أعطيته دفترًا أبيض وقلت له: "ارسم كما تشاء — "أي: شخبِط بلا هدف، هل تتوقع بعد دقائق أن يخرج أمامك لوحة فنية متكاملة؟ بجمال لوحة فنان، متناظرة، متناسقة، منسجمة الألوان والظلال؟ بالطبع :لا.

لماذا؟ لأن العشوائية لا تصنع نظامًا، ولا تنسج جمالًا، ولا تخلق معنى.

وهنا يشرق برهان الجمال:

الجمال لا يولد من الصدفة... بل من قصد وإتقان وحكمة

الأرض... مثال للجمال المنسوج بإحكام

هنا نسأل: هل المادة العمياء العشوائية قادرة على أن تُخرج لنا الأرض بكل هذا الجمال والروعة؟

هل يُعقل أن فوضى المادة تنتج كوكبًا بديعًا كهذا، يزدهر فيه جمال الطبيعة بكل تفاصيله؟

جمال الأرض:

- غابات منظمة كأنها لوحة خضراء رُسمت بإزميل العناية.
- أنهار تلتف بانسجام كخط فنان بارع.
- توازن مذهل بين الماء واليابسة والهواء.

- مناخ محسوب بدقة ليس أبرد بدرجة ولا أسخن بدرجة مما يسمح للحياة أن تزدهر.

الوردة:

- هندسة شكلية دقيقة، لا زيادة ولا نقصان.
- ألوان متناغمة كلوحة فنان يعرف سرّ الجمال.
- عطر متوازن محسوب، لم تُبالغ فيه الطبيعة ولم تُقَلِّله.

الفراشة... تحفة طائرة

- جناحان متماثلان بدقة مذهلة.
- ألوان تنطق بالتناسق كريشة فنان عبقري.
- حركة رشيقة محسوبة.
- دورة حياة مذهلة :بيضة ⟶ يرقة ⟶ شرنقة ⟶ فراشة.

هذه ليست مجرد حشرة... هذه تحفة فنية طائرة تحمل توقيع الخالق جل جلاله.

غروب الشمس:

تدرّجات الألوان من الأصفر إلى البرتقالي فالوردي فالبنفسجي... كأن خلف الأفق مصمم ألوان حكيم ينسّق السماء كل مساء بلمسة إبداع جديدة.

الـDNA:

ليس مجرد معلومة، بل هندسة معمارية دقيقة لو زاد جزء أو نقص جزء لاختلّ النظام كله.

فهل يُعقل أن الاصطدامات العشوائية تنتج هذا الفن المتقن؟ هل القوانين التي تحفظ الحياة جاءت بلا قصد؟ هل الطبيعة "تعلمت" كيف تُحسن التنسيق والجمال؟!

لنكبّر المثال... الكون نفسه لوحة فنية

ارفع رأسك في ليلة صافية... سترى الجمال في أعلى تجلّياته:

السماء والنجوم:

- نجوم تتناثر فوقك كحبات لؤلؤ مرصوفة بإحكام.
- مسافات محسوبة بدقة تُبقي الكون متوازنًا لا ينهار ولا يتفكك.
- مجرات عملاقة ذات أذرع حلزونية متناغمة كأنها لوحات سماوية تدور بانتظام.

القمر:

- شكل بديع يتغير طورًا بعد طور،

- نورًا لطيفًا لا يؤذي العين،
- مسافة محسوبة بدقة لو اختلت لانتهت الحياة على الأرض.

الشمس:

- كرة من النور تُشعل الحياة على الأرض.
- حرارة موزونة، ثابتة، لا تزيد فنحترق ولا تقل فنتجمد.
- شروق يبعث الأمل كل صباح... وغروب يرسم أعظم اللوحات كل مساء.

الشروق والغروب:

كل يوم يُفتح أمامك معرض فني جديد: ألوان تتداخل برفق، سماء تتلوّن كقماش بين يدي رسّام حكيم،

ولا تتكرر لوحة كلوحة — كل شروق وغروب لوحة فريدة لا تستنسخ.

الجمال لا يُولد من العشوائية.

فكما لا تتحول شخبطة طفل إلى لوحة فنية، ولا تتحول كلمات مبعثرة إلى قصيدة متقنة، كذلك العشوائية لا تُنتج انسجامًا، ولا تناظرًا، ولا نظامًا، ولا دقة، ولا جمالًا.

لأن الجمال الحقيقي يقوم على عناصر لا يمكن فصلها عنه: قصدٌ، وتنظيمٌ، وإتقانٌ، وتوجيهٌ واعٍ.

أما ما يخلو من هذه المعاني، فلا يُنتظر منه إلا الفوضى والتشظي، فالقول بأن المادة العمياء أو الصدفة يمكن أن تُنتج هذا القدر من الجمال والنظام، ليس تفسيرًا بقدر ما هو افتراض يتجاوز حدود المعقول.

ولهذا يقول اللاهوتي إدوارد فارلي: "**عندما يموت الإله؛ يموت الجمال**"

(Edward Farley, *Faith and Beauty*, Sydney: Ashgate, ٢٠٠١, p.٦٤)

والمقصود هنا أن الجمال ليس مجرد شكلٍ يُرى، بل معنى يُفهم، ونظام يُدرك، ودلالة تشير إلى قصدٍ وحكمة خلفه.

الكون ليس مجرد حياة... بل رسالة جمال

الكون ليس كتلة من مادة تتحرك بلا هدف، بل هو جمال واعٍ ينطق بقلبك قبل عقلك، ويشير بوضوح إلى وجود خالق جميل... أتقن كل شيء خلقه.

الجمال... درجة أعلى من النظام

كل البراهين السابقة – النظام، المفهومية، الضبط – تشير إلى أن الكون مرتب، مضبوط، وقابل للفهم، وهذا عظيم، لكن الجمال، هو درجة أعلى بكثير من مجرد النظام!

لماذا؟ لأنه قد يكون هناك شيء منظّم ومنطقي، لكنه غير جميل ، قد يكون قانون رياضي صحيح، لكنه لا يحرك مشاعرك، أما الجمال؟ الجمال يهزك... يخاطب أعماقك، ولا يخرج إلا من نية واعية، وذوق، وروح فنان.

الجمال يجمع بين: نظام دقيق، معنى واضح، ولمسة فنية راقية.

الجمال هو: نظام + معنى + لمسة فنية راقية.

والدليل على ذلك: الكتاب يحتوي على نظام (ترتيب حروف وكلمات) + معنى (محتوى واضح ومقصود)، ومع ذلك نرفض تمامًا فكرة أن كتابًا جاء صدفة.

لماذا؟ لأن وجود النظام والمعنى ينفي العشوائية تمامًا، حتى لو كان الكتاب خطه غير جميل، أو شكله غير مريح للعين، فما زلنا ننفي تمامًا فكرة أنه جاء صدفة، لأن ترتيب الحروف، ووجود المعنى، والقصد، كل ذلك يدل على عقل واعٍ كتبه، فماذا عن الكتاب الجميل؟ خطه متناسق، وأسلوبه راقٍ، وتنسيقه يريح العين والعقل،في هذه الحالة، نفي الصدفة يكون أقوى وأوضح وأشد يقينًا.

فماذا عن كتاب كوني؟ ليس فقط منظّم ومفهوم، بل جميل ومبدع وذو ذوق فني مدهش!

من زرع فيك حبَّ الجمال؟

الفكر المادي الإلحادي يقول لك: "أنت مجرد مادة كيميائية معقّدة... بلا روح، بلا قصد، بلا معنى،كل ما في داخلك ليس إلا تفاعلات كهربائية وعمليات عصبية صمّاء "، لكن دعنا نسأل سؤالًا صادقًا عميقًا: إذا كنت مجرد ذرات متراكبة... فمن الذي جعل قلبك يخفق أمام لوحة فنية؟ ومن الذي أرسل في عينيك دمعة حين تسمع نغمة عذبة أو صوتًا مؤثرًا؟ ومن الذي بثّ في نفسك سكينة عجيبة عند رؤية غروب الشمس أو البحر أو النجوم؟

اسأل نفسك: لماذا تتأثر بالتناسق؟ لماذا تحب الألوان المتناغمة وتستقبح الألوان المتنافرة؟ لماذا تفرح بروائح زكية وتنفر من الروائح الكريهة؟ لماذا يرقّ قلبك لصوت حسن وتضيق نفسك بصوت نشاز؟

القوانين الفيزيائية لا تعشق الألوان، و الذرات لا تعرف معنى التناسق ، المادة الجامدة لا تتأمل الغروب ولا تشعر بالسكينة أمام البحر أو السماء، فمن أين جاء هذا الذوق؟ من أين جاءت هذه القيمة الرفيعة المتعالية على المادة؟ إنه نفس السؤال الذي يُسأل عن الأخلاق والفطرة والضمير ...أشياء لا تُختزل في كيمياء.

الجواب واضح: إنه وديعة الفطرة... زرعها الخالق الجميل في قلبك.

قال النبي ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم)

حبُّك للجمال، تأثُّرك بالنغمة العذبة، ارتياحك لمنظر بديع... ما هي إلا انعكاسٌ لفطرة جمالية أودعها الله في قلبك

البعد الأعمق للبرهان :إحساسك بالجمال في داخلك، هو الدليل المكمل لجمال الكون في الخارج.

الكون لوحة عظيمة، وأنت لست مجرد متفرّج عليها، بل خُلقت لتملك القدرة على تذوّقها، والاهتزاز بجمالها، والاستدلال بها على خالقها، فالجمال ليس فقط في الوجود، بل في الوعي بالجمال.

ووعيُك بالجمال لا يمكن أن يكون مجرد "تفاعل كيميائي"، بل هو إشارة روحية تقول لك: وراء هذا الكون خالق جميل، أودَع فيك فطرة تميّز بها الجمال، **ليقودك جمال الكون إلى الإيمان بالخالق سبحانه، مصدر الجمال والكمال.**

تطابق مذهل: الذوق الداخلي ↔ الجمال الخارجي

هنا يظهر الإعجاز الحقيقي، ليس فقط في وجود جمال في الكون، وليس فقط لأن لديك ذوقًا جماليًا داخليًا، بل الذوق الذي بداخلك متطابق تمامًا مع الجمال حولك.

لديك عيون تحب تدرجات ألوان الغروب، وألوان الغروب تتحدث بنفس اللغة، تحب أصوات البحر، والموج نفسه يتناغم بإيقاع هادئ يريح أعصابك، تحب الألوان الهادئة والتناغم. والطبيعة مليئة بتناسق في الألوان، والأشكال، والأصوات.

هذا ليس مجرد توافق، إنه تطابق تام، كالتطابق بين القفل والمفتاح، كالتطابق بين الذكر والأنثى، كالتطابق بين العقل وقوانين الكون المفهومة.

وكأن الكون يهمس لك: أنا لست فقط مفهومًا لعقلك، ولا مجرد مصمم لحياتك، بل أنا أيضًا... جميل لذوقك، أهتم بمزاجك... وأبهج روحك.

شاهد قرآني: "وزيّناها للناظرين" ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الحجر

السماء لم تكن مجرد فراغ أسود أو لوحة علمية باردة، الله تعالى قال: "وزيّناها"، أي أن الجمال مقصود... مرسوم... مصنوع لكي يُبهج الناظر.

النجوم ليست فقط علامات للملاحة، ولا الأبراج مجرد مواقع فلكية، بل هي زينة... جاذبية... مشهد يخطف القلب والعين.

تأمل الآية... كأنها إشعار رقيق، أن الله لم يكتفِ بخلق كون منظم يفهمه عقلك، بل خلق لك سماءً مزينة... لتتأملها عيناك، وتطمئن بها روحك.

فالجمال في التصميم ليس كمالًا إضافيًا، بل جزءٌ من القصد الإلهي، وامتدادٌ لرحمته، **فسبحان من أودع فيك الذوق، ثم خلق لك ما يُبهجه!**

***

خاتمه شاملة

وقفة تأمل: براهين تمنع الصدفة وتثبت القصد

١- **برهان الزوجية** – مثال المفتاح والقفل

تخيّل أن ذرات الحديد تجمعت عشوائيًا في صحراء، فكوّنت مفتاحًا معقدًا، وفي صحراء أخرى، تجمعت ذرات أخرى فكوّنت قفلًا دقيقًا، ثم التقى المفتاح بالقفل... ففتح بتمام التطابق!

هل تقول :*صدفة*؟ أم أن بداهة العقل تصرخ :*هذا قصد، تصميم، وتطابق مقصود*؟

تذكر جيدا القاعدة العقلية :كلما ازداد التعقيد... امتنعت العشوائية.

فإذا كان تطابق "مفتاح مع قفل" يكفي لنفي الصدفة، فكيف بالذكر والأنثى في الإنسان، والحيوان، والنبات، وحتى الخلايا؟ كل مخلوق فيه زوجية متكاملة: جسديًا، نفسيًا، ووظيفيًا.

هل يُعقل أن العشوائية وحدها نسجت هذا التطابق المذهل؟!

وليس الأمر في الذكر والأنثى فقط، بل في كل شيء حولك من الزوجية:

- الهواء الذي تتنفسه مثلًا: أنت تأخذ الأكسجين لتعيش، وتخرج ثاني أكسيد الكربون الضار لك، بينما النبات يفعل العكس تمامًا؛ يأخذ ثاني أكسيد الكربون – الذي هو ضار لك – فيجعله غذاءً له، ثم يعيد إليك الأكسجين – الذي هو نافع لك – من جديد. هكذا ترى التكامل والتزاوج الدقيق: ما يضرّك ينفعه، وما ينفعك يمنحه لك... تعاون حيّ لا يمكن أن يكون صدفة.

٢- **برهان العقل والكون – لغة واحدة مفهومة**

ليس التطابق في "الأجساد" فقط، بل في "العقول والكون." ، عقلك مخلوق قادر على الفهم، والكون مكتوب بلغة مفهومة: قوانين، رياضيات، منطق، ثوابت دقيقة، كأنك تقرأ كتابًا مفتوحًا... ومن قراءته تبني علمًا، وتخترع حضارة، وتُقيم تكنولوجيا، فمن الذي جعل "العقل" أداة فهم؟ ومن الذي جعل "الكون" مكتوبًا بلغة يفهمها العقل؟

هل يمكن للصدفة أن تصنع "كتابًا" من القوانين... ثم تصنع له "قارئًا" يفهمه؟ هذا تطابق آخر مانع للصدفة

٣- **برهان الضبط الدقيق – الكون المهيأ للإنسان**

إنه ليس في داخل جسدك فقط، بل بينك وبين الكون من حولك تناغم مدهش لا يمكن إنكاره:

- تحتاج إلى الطعام ...فتجد الأرض تنبت أنواعه بوفرة وتنوع.

- تحتاج إلى الماء ...فتجد دورة دقيقة تحفظه بين بحر وسحاب ومطر.
- تحتاج إلى الهواء ...فتجد غلافًا جويًا مضبوطًا بنسبة أكسجين مناسبة تمامًا لحياتك.
- تحتاج إلى الضوء والدفء ...فتجد شمسًا على بُعد محسوب، لا أقرب فتحرقك، ولا أبعد فتجمّدك.

إنه تطابق مزدوج بين احتياجاتك الداخلية وبين النظام الكوني الخارجي، لو اختل جزء منه لفسد كل شيء.

والضبط الدقيق لا يقف هنا؛ بل يمتد إلى كل ما يربطك بالحيوان والنبات:

فالطعام الذي تأكله، نباتًا كان أو حيوانًا، مهيأ لك تمامًا، وجسدك مبرمج لهضمه بدقة: الريق يُحلّل النشويات، المعدة تُفكك البروتينات، والصفراء تُذيب الدهون... سلسلة متكاملة محكمة بينك وبين ما تأكل، تكشف عن قصد وتدبير حكيم.

٤- برهان الجمال والذوق – تطابق أعمق

الأمر لا يقف عند حد البقاء المادي فقط، بل حتى وجدانك وذوقك صُمّما ليتطابقا مع جمال الكون:

- تحب التناغم... فتجد الطبيعة متناغمة.
- تميل للألوان المريحة... فتجد غروبًا يبهر العيون بتدرجاته.
- تحب التفاصيل الدقيقة... فتجد جناح فراشة كأنه لوحة مرسومة.
- ترتاح للنظام... فتجد الكون محكومًا بقوانين ثابتة يفهمها عقلك.

لا يمكن لأي عشوائية أن تخلق هذا التطابق المزدوج: بين حاجات جسدك ووفرة ما تحتاج إليه في الكون، وبين ذوقك الداخلي وجمال الطبيعة.

وأيضًا، الجمال ليس بينك وبين الكون فقط، بل ممتد في مخلوقات أخرى؛ فالزهرة في النبات لم تُلوّن عبثًا، بل صُمّمت بألوان زاهية تجذب النحل والفراش، فينقل حبوب اللقاح ويضمن استمرار الحياة والإثمار. هنا ترى جمالًا مقرونًا بوظيفة، وزينةً مرتبطة بنظام مُحكم، لا مجال فيها للعبث ولا للعشوائية.

وهكذا يمتد الإعجاز:

- في النبات والزهرة.
- في الإنسان وذوقه ووجدانه.

•في الكون كله بقوانينه وجماله.

كلها شواهد على أن هذا العالم بُني على تزاوج وتكامل: ذكر وأنثى، عقل ووجدان، مادة وجمال... كون مضبوط وجميل، قائم على حكمة بالغة.

فسبحان من خلق الذوق... ثم أبدع له ما يُبهجه، وسبحان من أودع فيك عقلًا يفهم، وقلبًا يشعر، وروحًا تتذوق، ثم جعل كل ذلك متناغمًا مع جمال الكون، فالجمال ليس عبثًا، بل هو توقيعٌ إلهيٌّ مطبوع على كل تفصيلة من تفاصيل الوجود؛ ليشهد قلبك قبل عقلك أن وراء هذا الكون خالقًا عليمًا، حكيمًا، جميلًا.

ونختم بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات)

ويعلّق الدكتور سامي عامري في كتابه *العلم وحقائقه*، في بيان حقيقة التزاوج والتناظر في الكون، قائلًا: "كشف البحث العلمي عن هيمنة الثنائية على الوجود المادي؛ حتى قال الفيزيائي الشهير فيرنر هايزنبرغ» :تُشكِّل خصائص التناظر دائمًا أهم السمات الأساسية للنظرية العلمية».

إن خالق الكون هو خالق الطبيعة المتناظرة... وذاك أولًا برهان دقة القرآن، وثانيًا من أعظم الآيات المادية على وجود خالق مريد حكيم؛ إذ لا تصنع العشوائية كونًا متناظرًا في كل أمره!"

انتهي

والان انظر إلى هذا المشهد... وتأمّل قليلًا، ودع قلبك وعقلك يجيبان : ما الذي يخبرك به هذا الجمال البديع عن النظام، والتناسق، والإبداع في الكون؟

قف وتأمل لحظة:

•كيف تجتمع ملايين العناصر المختلفة لتُنتج لوحة طبيعية بهذا الإتقان؟

•كيف تتناغم الألوان والأشكال في نظام واحد لا يختل؟

•وكيف تناغمت هذه القوانين المحكمة —— ماءٌ وهواءٌ وضوءٌ وتربةٌ —— لتصنع لك حياة، وتفتح لك باب الجمال، وتُظهر لك كونًا مفهومًا تُعمِّره بعقلك وإرادتك؟

وأنظر مره أخري وتأمل قوله تعالي (**أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**) النمل(٦٠)

إنه جمالٌ يحمل معنى... ونظامٌ يقود إلى غاية... وتناسقٌ يشهد بأن وراءه يدًا حكيمة سخرته لك.

فسبحان من سخر كل شيء... وما أقسى قلبًا يرى هذا كله ثم يجحد.

إن هذا الجمال الظاهر، وهذا النظام المحكم، وهذا التناسق الذي يملأ الكون من أدق ذرة إلى أعظم مجرة... كلّه يصرخ بأن وراءه خالقًا حكيمًا عليمًا رحيمًا سبحانه، أبدع خلقه بحكمة، وزيّنه برحمة، ليُبهج عينيك، ويُحيي قلبك، ويقودك إليه.

وتأمل هذا المعنى جيدًا: الله سبحانه لا يريد منك فقط أن تدرك النظام بعقلك، بل أن تتذوق الجمال بروحك... لأن الجمال بابٌ إلى المعرفة، وطريقٌ إلى الإيمان، ودعوةٌ للقلوب قبل العقول.

ومن هنا يأتي أعظم سؤال: إذا كان قلبك يهتز بهذا الجمال الناقص الزائل في الدنيا، فكيف بلذة النظر إلى وجه الجميل سبحانه في دار الكمال والخلود؟! ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]

أمّا الكافر الجاحد، الذي أعرض عن هذا الجمال الدال على الله، فإنه يُحجب عن أعظم جمال: جمال وجه الله جل جلاله، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

فاختر لنفسك: بين نعيم رؤية الجميل سبحانه... وبين الحرمان والحجاب عنه.

***

تعقيب: الإنسان بين مأساة الإلحاد و تكريم الإيمان

مأساة الإلحاد

حين تحاول أن تفسّر حقيقة الإنسان من منظور الإلحاد، ستجد نفسك أمام صورة قاتمة لا رحمة فيها ولا معنى.

انظر لقول ريتشارد دوكنز – أحد رموز الإلحاد المعاصر – حين يصف حقيقة الكون والإنسان في رؤيته المادية البحتة:

»نحن أبناء الفوضى... في أساس الوجود، لا وجود لغير الفساد، وموج الفوضى الذي لا مثيل له... لقد اندثرت الغاية من الوجود... **هذه هي الكآبة التي يجب علينا قبولها ونحن ندخل بعمق وبشفقة في قلب الكون**«.

Richard Dawkins, **Unweaving theRainbow**: **Science**, **Delusion and the Appetite for Wonder** (**New York**: **Houghton Mifflin**, ٢٠١٠), **pix**.

الخلاصة شديدة الوضوح: في نظر الإلحاد، الإنسان جسدٌ بلا روح، حياةٌ بلا خلود، وجودٌ بلا هدف، وقيمةٌ بلا أساس، الكون – عندهم – مجرد صدفة عمياء، والإنسان نتاج كيمياء عمياء، يمشي بلا قصد ولا حكمة ولا تدبير، لكن هذا الوهم لا يصمد طويلًا؛ لأن التناقض يفضح نفسه سريعًا:

- عقله يرى أن الكون قائم على قوانين محكمة، دقيقة، متناغمة... ثم يطالبه مذهبه أن يصدق أن هذا كله تراكم عشوائي لذرات بلا عقل ولا حكمة!
- ووجدانه يهتزّ أمام الجمال: منظر غروب، لحن جميل، ابتسامة صافية ... ثم يطالبه مذهبه أن يزعم أنّ هذا كله بلا خالق ولا قصد، وإنما "وهم كيميائي!"

وهكذا يعيش الملحد ممزقًا بين جهتين:

- عقلٌ يقول له :هنا نظام، هنا دقة، هنا حكمة.
- وقلبٌ يقول له :هنا جمال، هنا معنى، هنا غاية.
- ومذهبه يصرخ داخله :لا نظام ولا جمال... مجرد صدفة!

فيبقى العقل مُعطّلًا، والوجدان مكبوتًا، والفطرة تصرخ تحت الرماد.

لكن هذا الصراع لا يهدأ إلا إذا رجع الإنسان إلى نفسه، واستمع إلى صوت فطرته الأولى... فاعترف بالحقيقة التي حاول إنكارها: أن وراء هذا الكون ربًا حكيمًا جميلًا، خلقه عن قصد، وأجرى فيه القوانين، ونثر فيه الجمال، وغرس فيه الغاية... ليعرفه الإنسان ويهتدي إليه.

٢-أما مستقبل الإنسان وفق الإلحاد

وفق الرؤية الإلحادية، المستقبل مأساوي وقاتم:

- كل جهد، كل اكتشاف، كل حضارة... محكوم عليها بالزوال.
- لا روح تبقى، ولا حساب، ولا ثواب أو عقاب.
- لا عدالة حقيقية، لأن العدالة بلا آخرة مجرد وهم وسراب.
- الكون بلا رسالة، وكل ما فيه يحدث بلا هدف، محض صدفة عمياء.

وهكذا ينتهي الإنسان في الإلحاد إلى شعور خانق بالعدم:

- عقل وفطرة يطلبان الخلود ↔ ومذهب ينكر الخلود.
- فطرة تتوق إلى العدل والمعنى ↔ ومعتقد يقطع الطريق إلى أي معنى.

ولهذا، كثير من الملاحدة – رغم إنكارهم – يعيشون في صراع داخلي دائم، بين ما تقتضيه فطرتهم وما يفرضه مذهبهم، فيُتركون حائرين محطمين، بلا سكينة ولا أمل

وقد عبر عن هذا اليأس الفيلسوف الملحد برتراند راسل واصفًا حقيقة النظرة الإلحادية للإنسان:

"الإنسان نتاج أسبابٍ ليست لها بصيرةٌ بالنهاية التي تسعى إليها؛ فأصله ونماؤه وآماله ومخاوفه وحبّه ومعتقداته، كل ذلك ليس إلا نتاجًا لتواطؤٍ عرضيٍّ للذرات... وقد قُدِّر له الفناء بفناء النظام الشمسي، **ولا بدّ أن يُدفن المعبد الكامل لإنجازات الإنسان تحت حطام كونٍ منهار**".

(Bertrand Russell, Mysticism and Logic, cited in Mary Poplin, Is Reality Secular?, InterVarsity Press, ٢٠١٤, p.٤٥)

٣-القيم الأخلاقية في نظر الإلحاد

كما شرحنا سابقًا في مبحث الأخلاق، في الإلحاد لا يوجد معيار مطلق للخير والشر، فكل شيء نسبي أو نتيجة صدف أو مصالح شخصية. الإنسان مجرد جسد وذرات، وقراراته الأخلاقية تراكم كيميائي في الدماغ، بلا غاية أو قيمة حقيقية.

مثال واقعي :الحركات الإجرامية مثل النازية، التي أظهرت كيف يؤدي غياب القيمة المطلقة إلى انهيار الرحمة والعدل وارتكاب أبشع الجرائم.

حتى الملحدون أنفسهم أقرّوا بمأزق الإلحاد أخلاقيًا: أليكس روزنبرغ في كتابه ***The Atheist's Guide to Reality*** قال:

"لا يوجد شيء اسمه الصواب أو الخطأ الأخلاقي... علينا أن نواجه حقيقة أن العدمية صحيحة".

الخلاصة: إذا غاب الله، غابت الأخلاق المطلقة، وأصبحت القيم مجرد مصالح مؤقتة، لا تردع ظالمًا ولا تنصف مظلومًا.

مثال واقعي :النازية

- الإنسان مجرد "ذرات تمشي على الأرض."
- الحياة صراع بقاء للأصلح، والضعيف عبء.
- النتيجة: ملايين قُتلوا، أطفال أُسيء لهم، معاقون أُعدموا... الحرب العالمية الثانية حصدت أكثر من ٧٠ مليون إنسان.

غياب الله يعني غياب القيمة المطلقة، وانهيار الرحمة، وفقدان معنى الإنسان نفسه.

ويُلخّص هذه النظرة أحد أعلام الإلحاد، وهو أليكس روزنبرج، في كتابه *دليل الملحد إلى الواقع*، حيث يجيب فيه عن منظور الإلحاد وأجوبته على أعظم أسئلة الإنسان.

ويجيب روزنبرج في كتابه قائلا عندما سئل:

- هل يُوجد إله؟ **لا**.
- ما هي طبيعة الواقع؟ **ما تقوله الفيزياء** .
- ما غاية الكون؟ **لا توجد أي غاية**.
- ما هو معنى الحياة؟ **كما سبق**.
- لماذا أنا هنا؟ **ضربة حظ**.
- هل الدعاء مفيد؟ **بالطبع لا**.
- هل هناك روح؟ وهل هي خالدة؟ **أنت تمزح!**
- هل هناك إرادة حُرة؟ **لا، البتة**.

- ماذا يحدث عندما نموت؟ **كل شيء يستمر تقريبًا كما كان من قبل، باستثناء حالتنا نحن.**
- ما الفرق بين الصواب والخطأ، والخير والشر؟ **لا يوجد فرق أخلاقي بينهما.**
- لماذا يجب أن أكون أخلاقيًا؟ **لأن ذلك يجعلك تشعر بأنك أفضل من أن تكون غير أخلاقي.**
- هل الإجهاض، القتل الرحيم، الانتحار، دفع الضرائب، المساعدة الأجنبية، أو أي أمر آخر ممنوع، مسموح، أو إلزامي؟ **كل شيء جائز!!!!!**
- ما هو الحب، وكيف أجده؟ **الحب حل لمشكلة التفاعل الاستراتيجي، لا تبحث عنه، فهو سيجدك عند الحاجة.**
- هل للتاريخ أي معنى أو غرض؟ **التاريخ مليء بالصخب، لكنه لا يعني شيئًا.**
- هل في الماضي البشري أي دروس لمستقبلنا؟ **شيء قليل جدًا، إن وجد أصلاً.**

(Alexander Rosenberg, The Atheist's Guide to Reality, pp. ٢-٣)

ونختم بقيمة الإنسان في ضوء الإلحاد والداروينية، وهي مقتبسة من كتاب *منهجية الوصول إلى الحق* لمحمد شاهين التاعب حفظه الله:

"وفق التصور المادي الداروينيي، نجد أن الإنسان ليست له قيمة أكبر من أي حيوان آخر. وهذا ما وضحه الداروينيي الملحد الشرس بيتر سينجر حين قال: «**إن حياة الطفل حديث الولادة أقل قيمة من حياة الخنزير أو الكلب أو الشمبانزي.**«

(Peter Singer, Practical Ethics, 1st ed. Cambridge University Press, ١٩٧٩, pp. ١٢٢-١٢٣)

وذلك لأنه – في هذا التصور – لا توجد أي قيمة موضوعية للإنسان إلا بمقدار ما يحققه من منفعة مادية. فالطفل حديث الولادة – من هذا المنظور – لا يُنتج ولا ينفع، بينما قد يُستفاد من الحيوان في الطعام أو الحراسة أو غير ذلك.

ويُكمل الفيلسوف الملحد جيمس راشلز هذا التصور حين يتحدث عن المعاقين ذهنيًا، فيُسائل – بناءً على الداروينية – عن مكانتهم الأخلاقية، وهل هي إلا كمكانة الحيوانات؟ بل ويطرح تساؤلات صادمة حول **إمكانية استخدامهم كما تُستخدم الحيوانات: في المختبرات أو**

حتى كطعام!!

(James Rachels, Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism, Oxford University Press, ١٩٩٠, p. ١٨٦)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

إن الإلحاد يصل بالإنسان إلى منتهى البشاعة، إذ يهبط بقيمته حتى يُعامَل كأداة أو مادة تُستخدم وتُستهلك! بل قد تصبح فئران التجارب – في هذا التصور – أكثر قيمة من بعض البشر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا نريد الإطالة في عرض هذه التصورات التي تمثل قاع الانحطاط في الفكر الإلحادي الداروينى.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

انتهي من كتاب منهجيه الوصول الي الحق

وفي الختام نقول: إن الإنسان—بفطرته التي لا تتلوَّث—يعلم يقينًا أنه ليس مجرد حيوان، ولا كيانًا ماديًا عابرًا، بل يشعر في أعماقه أنه مميَّزٌ ومكرَّم، وأن له قيمةً تتجاوز حدود المنفعة والمادة. وهذا الإدراك الفطري الصادق هو الذي ينقلنا مباشرةً إلى النظرة الحقّة للإنسان... نظرة الإسلام.

نظرة الإسلام... تكريم الإنسان وعلو منزلته

أمّا في الإسلام، فأنت شيءٌ مختلفٌ تمامًا: أنت مخلوقٌ مكرَّم، نفخَ الله فيك من روحه، وعلَّمك، وفضَّلك، وجعلك خليفةً لله في الأرض، وصوَّرك في أحسن صورة وخلقك في أحسن تقويم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

وقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن: ٣)

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥)

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)

ولماذا أنت هنا؟ لأجل غاية عظيمة: العبادة، والتزكية، والاختبار، والارتقاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

وهكذا كرّمك الله على نحو استثنائي: أرسل إليك رسلًا، وأنزل لك كتبًا، وبيّن لك الطريق، ووهبك عقلًا حرًا وإرادة مستقلة لا تُساق كالبهائم – أعزكم الله – بل تختار عن وعي ومسؤولية. جعلك خليفة له في أرضه، ومهيأ لتحمُّل الأمانة، ووعدك إن عبدته وشكرته بالخلود الأبدي في الجنة، وهو أهل الثناء والحمد والشكر سبحانه.

ولأن الله وهبك عقلًا يَفهم ويسعى في ملكوته، ولأنك مؤمن أن الكون مخلوق بحكمة مسخَّر لك، فإنك لا تراه جمادًا أصمّ، بل كتابًا مفتوحًا يدعوك للتأمل والتعلّم. تنظر إلى السماء فتخترع أدوات تقيس مساراتها، وتراقب الذرات لتفهم قوانينها، وتسعى لتعمير الأرض لأنك مأمور بذلك، وتدرس المخلوقات وتربط بينها لأنك توقن أن وراءها خالقًا عليمًا حكيمًا.

أنت لا تستكبر على العلم، بل تُقبل عليه؛ لأنك تدرك أن العقل هبة من الله، وأن الكون رسالة منه، وأن العلم سبيل لفهم هذه الرسالة.

وليس فقط عقلك يفهم، بل روحك هي التي تتذوّق وتفرح بجميل صنع الله.

تدرك أن الجمال صادرٌ عن الله، فلا تراه رفاهيةً زائدة، بل نعمةً مقصودة من الرحمن، تهدّئ روحك وسط زحام الحياة.

فتستمتع بما ترى وتسمع وتذوق، لا كمن غرق في الماديات، بل كمن يصغي إلى الألحان التي بثّها الله في هذا الكون شكرًا وامتنانًا.

ترى تدرّج ألوان الغروب، فتدرك أنه لحنٌ بصريٌّ خُلِق لك، وتسمع صوت الموج، فتشعر أنه نغمةٌ سُخِّرت لراحتك، وتتذوّق الطعام، فتشكر من أودع فيه لذّته، وتستمتع بالألحان التي صاغها الإنسان محاكاةً لأصوات الطيور، امتدادًا لذلك النغم الذي بثّه الله في الخلق، وتلمس نسيم الصباح، فتطمئن روحك، كأنه رسالة هادئة من ربك إلى قلبك.

هكذا لا تعيش الجمال استهلاكًا، بل تعيشه انسجامًا مع اللحن الكوني، حيث تتحوّل المتعة إلى شكر، والإحساس إلى عبادة.

وهذا المعنى قرّره القرآن بوضوح؛ إذ بيّن أن الجمال في الكون مقصود للنظر والتأمل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وبيّن أن حتى تفاصيل الحياة اليومية سُخّرت لنا، وفيها جمالٌ يُدركه القلب قبل العين، فقال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فأنت تستنشق الجمال الذي بثّه الله في الطيبات، وتقول في قلبك: "سبحان من خلق هذا لنسعد به". فالطبيعة معرض رباني تتذوق فيه جمال صنع الله، وتستمتع بالطيبات وتجتنب الخبائث، فيصفو عقلك وروحك، فتزداد قربًا ومناجاةً لربك، حتى يملأ قلبك الشوق إلى الذكرى الكبرى والنعمة العظمى: رؤية وجه الله في الآخرة.

أما رؤيتك للكون كمؤمن؟

ترى فيه بصمات الخالق... وآثار حكمته... وجمال قدرته.

ترى الشمس تشرق كل يوم بأمره، والقمر يسير في مداره بقدره، والنجوم تهدي في ظلمات البر والبحر بسلطانه.

تتأمل المجرات تدور، والكواكب تصطف، والذرات نفسها تسبح بحمد ربها... كل ذلك وفق نظام محكم، لا خلل فيه ولا عبث.

وتنظر إلى الجمال الذي يفيض به الكون: جمال زهرة تتفتح، جمال الطير في تحليقه، جمال البحر في هديره، جمال الجبال في ثباتها... فتدرك أن هذا الجمال لم يُزرع في الوجود عبثًا، بل هو رسالة رحمة ونعمة من الله لتسكن الأرواح وتستيقظ القلوب.

لكن الأعظم من ذلك أنك لا ترى الكون ككتلة باردة صامتة... بل كموكب عظيم، كله يسير في اتجاه واحد ... الي الله.

المجرات تسجد، الجبال تسبّح، الطيور تسبّح، والملائكة تسبّح... والكون كله في انسجام تام مع غايته الكبرى: عبادة الله والتوجّه إليه.

فما أقبح – بل ما أتعس – أن يكون الإنسان وحده هو الكائن الشاذ الخارج عن هذا النغم الكوني العظيم! أن يعصي ربه بينما كل ما حوله يطيعه، أن يتمرد بينما الوجود كله خاضع.

بل الطبيعي حين يرى هذا المشهد، يستحي أن يكون هو وحده النشاز وسط هذا السيمفونية الكونية المهيبة... فيسارع ليسجد مع الساجدين، ويسبح مع المسبحين، ويتوجه حيث يتوجه كل شيء: إلى الله الواحد الأحد.

القيم الأخلاقية في الإسلام

أما القيم الأخلاقية في الإسلام فنجد أنها مطلقة وثابتة:

- الخير والشر لهما معيار مطلق لا يُنسى ولا يتغير، لأن مصدرهما الله الحكيم.
- هذه القيم تتسق مع ما تقتضيه الفطرة السليمة، فالعدالة، والرحمة، والصدق، والكرم مغروسة في النفس البشرية منذ فطرها الله عليها.

مثال على العدل مع الأعداء

القرآن يذكر ذلك بوضوح: قوله تعالى: **(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)**(المائدة)

التعليق :مهما كان عداوتك مع قومٍ ما، فالعدل واجب. العدل هنا ليس مجرد خيار، بل أمر رباني يعلو فوق المشاعر والهوى الشخصي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ *(سورة النساء: الآية ١٣٥)*

هذه الآية تمثل قمة الإنصاف والموضوعية في الأخلاق الإسلامية؛ فهي تأمر بالعدل حتى لو كان على حساب نفسك أو والديك أو أقرب الناس إليك.

فالحق في الإسلام لا يُقاس بالقرابة أو المصلحة، بل بالحق نفسه، لأن العدل قيمة إلهية مطلقة لا تتبدل بتبدّل الأشخاص أو المواقف..

ويلخّص خاتم الأنبياء ﷺ جوهر رسالته كلها في كلمةٍ جامعة، إذ يقول:

»إنما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق«، فكانت الأخلاق في الإسلام أصل الرسالة لا فرعها، وميزان الإيمان لا زينته فقط.

الخلاصة: الأخلاق في الإسلام ليست رأيًا ولا مزاجًا، بل حقٌّ ثابت(موضوعي)، وعدلٌ مُلزِم، يصنع إنسانًا يعرف واجبه في الأرض، فيقيم الحق، ويحفظ الميزان، لأنه خُلق ليكون خليفةً في الأرض لا عبدًا لهواه.

ثم بعد ذلك نصل إلى أعظم حقيقة يطمح إليها الإنسان :الخلود والعدالة المطلقة.

الغاية والخلود في أعمال المؤمن الذي عبد وشكر

ما الغاية من الحياة؟ وما المصير في النهاية؟ وهل أعمالنا تنتهي بلا معنى كما يعتقد الملحدون، أم أن لكل عمل وزنًا وقيمة تمتد لما بعد الموت؟ الإجابة هنا ليست رأيًا عابرًا، بل رؤية متكاملة للحياة... وللموت... ولما بعد الموت.

إن ما ينتظر المؤمن في الجنة ليس أيامًا ولا سنوات... بل خلودٌ أبدي لا ينقطع:
"نعيمٌ حقيقي إلى أبد الآبدين " ،تعيش فيه في راحةٍ وسعادةٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ لا نهاية لها؛ ليس لمليارات السنين، ولا لمليارات المليارات، بل بلا حدٍّ ولا منتهى.

وتدبّر هذا المثال لتقريب المعنى إلى العقل البشري:

تخيّل غرفةً هائلة الاتساع، امتلأت جدرانها، وأرضها، وسقفها بأوراقٍ لا تُعدّ ولا تُحصى، ولم نكتب على كل ورقة رقمًا واحدًا، بل ملأنا كل ورقةٍ بأرقامٍ متلاصقة لا تنتهي:

...٩٩٩٩٩٩ أسطر كاملة، وصفحات مكتظة، أرقامٌ تملأ الورقة من أولها إلى آخرها.

ثم تخيّل أننا جمعنا كل هذه الأرقام معًا، أرقام كل ورقة، في كل الغرفة، بكل ما فيها من كثافةٍ وضخامة ، فماذا ستكون النتيجة؟ سيخرج لنا رقمٌ هائلٌ مهول، رقمٌ تعجز العقول عن تخيّله، وتعجز الألسنة عن نُطقه، وقد لا يكفي عمر الإنسان كلّه لعدّ أصفاره، ومع ذلك... فهذا الرقم – مهما بلغ من الضخامة– يبقى محدودًا، لأنه في النهاية عددٌ يمكن أن يُكتب ويُحصر، أما الأبدية فشيء آخر تمامًا...

ليست رقمًا أكبر، ولا عددًا أضخم، ولا مجموعًا أعظم، بل لا حدّ لها أصلًا، لا تنتهي، ولا تتوقّف، ولا يصل النعيم فيها إلى لحظة يُقال بعدها: انتهى.

بينما نعيم الجنة ممتدّ بلا نهاية، وكلما مرّ زمنٌ ازداد النعيم، وتجدد الجمال، وتعاظم السرور... في متعةٍ دائمةٍ متصاعدة لا تعرف أفولًا.. وهذا وعد الله الحق: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (سورة ص: ٥٤)

أي: رزق لا ينفد أبدًا، مستمر بلا توقف، ولا يُحرم منه أهل الجنة

منطقية الخلود في الإسلام

الخلود في الجنة ليس فكرة أسطورية ولا خيالًا شعريًا، بل هو حقيقة منسجمة تمامًا مع منطلقات الإيمان وعقيدة التوحيد. فالله سبحانه: حيّ لا يموت ،كرمه لا ينقطع ،وعد عباده المخلصين بالخلود في دار البقاء.

فكما أن الله أزلي أبدي، فلا عجب أن يكون عطاؤه كذلك أبديًّا لا ينفد. وهنا يظهر الجمال العقلي في الإيمان: أن يكون الخلود نتيجة منطقية لصفات الله، خصوصًا رحمته وعدله؛ إذ كيف يتصور عقلٌ أن رحمة الله تنقطع، أو أن عدله يزول، أو أن عطاؤه يفنى؟

تقريب معنى الأبدية بمثال: تخيّل شجرة لا تموت، لا تضعف، ولا ينفد عطاؤها... بل تظل تُثمر وتُثمر وتُثمر بلا نهاية، هل يُستغرب وجود ثمرٍ دائمٍ ما دامت الشجرة حيّة قائمة؟

"فكذلك الجنة... تبقى بإبقاء الله لها ، ونعيمها لا ينقطع لأنه موصول بعطاء من لا يفنى "

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أمر مهم: الخلود في الجنة ليس ذاتيًا فيها، فالجنة مخلوقة، وكل مخلوق بطبعه محتاج، عاجز عن البقاء بنفسه. ولو تُرك لحاله لفني، كما يفنى كل شيء. ولكن سرّ الخلود فيها أنها موصولة بالحي القيوم، فهي تدوم ببقاء من لا يزول.

تمامًا كما أن المصباح لا يضيء بنفسه، بل يحتاج دومًا إلى تيار الكهرباء الذي يغذيه؛ فإن انقطع التيار خبا النور. فلو لم يُبق الله الجنة، لما بقيت، فبقاء الجنة ليس ذاتيًا، بل قائمٌ بإبقاء الله لها؛ إذ هو الحيّ الذي لا يموت، الغنيّ الذي لا يفتقر، القادر الذي لا تنفد قدرته.

وقد بيّنا في الباب الثالث (برهان الخلق في الكون) أن الكون له بداية، وأن العقل يحكم بالضرورة العقلية وجود مبدأ مطلق بلا ابتداء، قائم بذاته، غير محتاج لغيره. ومن كان بلا بداية فهو — بالضرورة — بلا نهاية، وهو الحيّ الذي لا يموت سبحانه.

وقد عبّر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة في الحديث الصحيح:

»أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» (رواه مسلم).

ومن هنا يتّضح أن الخلود في الجنة منسجم مع العقل، ومنسجم مع التوحيد؛ لأنه يذكّر أن الله وحده الأزلي الأبدي، وأن بقاء كل ما سواه إنما هو ببقائه سبحانه وإرادته، لا بذاته ولا باستقلاله.

وقد وعد سبحانه عباده المؤمنين بالخلود، والله لا يُخلِف الميعاد.

الفرق بين الماضي والمستقبل: مثال الجري والخلود في الجنة

تأمّل هذا المثال: تخيّل شخصًا بدأ يومًا ما بالجري مسافة ميل واحد، ثم قرر أن يزيد كل يوم ميلًا إضافيًا، مع افتراض قدرته على الاستمرار بلا توقف لتقريب المعنى.

فهنا نلاحظ أمرين: أولًا: المستقبل

له بداية محددة، وهي يوم بدء الجري.

ومنذ تلك البداية، يمكن للمسافة أن تستمر في الازدياد يومًا بعد يوم دون أن يلزم من ذلك تناقض عقلي؛ لأن الزيادة تقع دائمًا بعد بداية معلومة.

(كل مقدارٍ محدود(أي له بداية) يمكن دائمًا زيادته، مهما بلغ الرقم فإذا كان لديك رقم مثل ١،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠... أمكن أن تُزاد إليه وحدة +١، ويمكن تكرار ذلك بلا توقف، وتُضاف أصفار أكثر فأكثر بلا حدٍّ.)

ثانيًا: الماضي

أما لو افترضنا أن هذا الشخص كان يجري منذ الأزل بلا بداية، فهذا يعني أنه قد قطع بالفعل عددًا لا متناهيًا من الأميال قبل أن يصل إلى لحظتنا الحالية، وهذا محال؛ لأن ما لا بداية له لا يمكن عبوره أصلًا للوصول إلى الآن.

فالنتيجة: الامتداد في المستقبل بعد بداية أمر معقول، أما الامتداد في الماضي بلا بداية فمستحيل عقليًا

✦تطبيق على الجنة

الجنة مثل ذلك تمامًا:

- لها بداية محددة :خلقها الله يوم خلقها، ويدخلها المؤمنون في وقت يعلمه الله.
- بعد هذه البداية، يستمر النعيم ويتزايد بلا توقف.
- في كل لحظة، أهل الجنة يعيشون مقدارًا محددًا من النعيم (منذ ألف سنة مثلًا يتنعمون)، ثم يزداد ويزداد إلى غير نهاية.
- لكنهم لن يصلوا أبدًا إلى "آخر يوم نعيم"، لأن نعيم الجنة موصول بعطاء الله الذي لا ينفد.

فلو سألت أحد أهل الجنة:

- "منذ متى وأنت في النعيم؟" لقال: "منذ يوم كذا، أول ما دخلت الجنة."
- حتى لو مرّت مليارات السنين، سيقول: "بدأت من اليوم الفلاني."
- لكن لن يقول أبدًا: "أنا أتنعم منذ الأزل بلا بداية"، لأن هذا مستحيل عقليًا؛ فالجنة مخلوقة لها بداية، والإنسان نفسه مخلوق له بداية.

فالأزلية المطلقة لله وحده لا شريك له.

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره" (رواه البخاري).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وتذكّر مثال الشجرة التي لا تفنى الذي ذكرناه سابقًا، فهو أوضح تقريب لمعنى الخلود ومنطقيته.

خاتمة الفقرة: التوحيد والخلود

يتبيّن لنا أن نعيم الجنة أبديّ لا ينقطع، لكنه ليس بلا بداية، بل يبدأ من لحظة الخلق ويستمر بقوة الله، معتمد على الحي الذي لا يموت سبحانه .

فهو خلود منسجم مع العقل، ومنسجم مع التوحيد، لأنه يذكّر أن الله وحده الأزلي الأبدي، وكل ما سواه حادث ومخلوق.

ونلخّص الغاية والمصير للمؤمن: نعيم الجنة؛ حيث راحةٌ تملأ القلب، وسعادةٌ تغمر الروح، وأمنٌ لا ينقطع، وطمأنينةٌ لا تعرف خوفًا ولا حزنًا. فيها الطيبات تتجدّد كل لحظة، والسرور يزداد كل يوم، والنعيم أبديّ لا يفنى ولا يزول. يسعد أهلها بلا تعبٍ ولا عناء، ويزداد قربهم من الله، فيعيشون الفرح الكامل والطمأنينة المطلقة.

بينما حياة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر تمضي بلا غايةٍ في نهاية الطريق، ولا مصير يُسعد قلبه أو يطمئن روحه؛ حياةٌ محدودة بلا أفقٍ أبدي، لا يجد فيها طمأنينةً مستقرة ولا فرحًا دائمًا كما يجده المؤمن في وعد الله.

ومن هنا يصبح هذا النعيم الأبدي هو العدسة التي نفهم بها كل مشهدٍ مؤلم؛ فليست الأحداث متفرقةً بلا معنى، بل حلقاتٌ في طريقٍ ينتهي بعدلٍ كامل ورحمةٍ شاملة.

فالطفل الذي مات قبل أن يذوق من الدنيا شيئًا، في ميزان الإيمان لا تضيع قصته، بل يُعوَّض بنعيمٍ أبدي لا ينقطع، **حيث الرحمة المطلقة والعدل الكامل.**

والذي ابتُلي بمرضٍ أو ألمٍ أو فقدٍ أو محنة، لا تذهب لحظاته هدرًا، بل يُكتب له أجرٌ بغير حساب، ويُجازى على كل لحظة صبر، كما وعد الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

واستشعر جمال قوله ﷺ: "ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه» [متفق عليه].

ومن هذا الفهم تنبع الصلابة النفسية عند المؤمنين، والصبر العميق، والرضا الهادئ؛ فهي ليست مشاعر عابرة، بل ثمرة رؤيةٍ إيمانيةٍ شاملة للوجود، تعطي للألم معنى، وللمعاناة غاية، وتربط كل ذلك بالعدل الإلهي والمصير الأخروي.

بينما تعجز الفلسفات المادية عن تقديم هذا التوازن؛ لأنها تنظر إلى الأحداث مقطوعةً عن نهايتها، فتفقد معناها ولا تكتمل صورتها.

وهكذا يقدّم الإسلام صورةً متكاملة للعدالة الحقيقية: عدالةٌ لا يفلت منها ظالم، ولا يُضيَّع فيها حق مظلوم، وعدالةٌ تمتد مع الخلود؛ لتشبع شوق الإنسان الفطري إلى جزاءٍ كاملٍ وعادل.

ومن هنا كان الإسلام دين الفطرة، لأنه يحقق أعظم مطلبين مغروسين في أعماق الإنسان:

مطلب العدل المطلق الذي تطمئن له النفس وتسكن إليه، **ومطلب الخلود الأبدي** الذي تتطلع إليه الفطرة ولا تكتفي بدونه.

وهذان المطلبان ليسا فكرة طارئة، بل جزء من تكوين الإنسان نفسه؛ لذلك لا يستقر القلب إلا بهما، ولا يهدأ العقل إلا إذا وجد لهما جوابًا واضحًا.

✦أما في الإلحاد:

فلا يكتمل مفهوم العدل من الأصل؛ تموت القصص قبل أن تُنصف، وتنتهي الحكايات قبل أن تُفهم.

مات مظلوم؟ انتهى.

مات صغير؟ انتهى.

مات مقهور؟ انتهى.

بلا حساب، بلا عدل، بلا غاية.

وهنا تظهر المأساة الحقيقية؛ إذ تبقى الأحداث ناقصة، والمعاني مبتورة، فيقع الإنسان في حيرةٍ داخلية عميقة، لأنه يرى الألم ولا يرى نهايته، ويشهد الظلم ولا يجد له ميزانًا يُعيده إلى موضعه.

أما المؤمن، فيرى المشهد كاملًا؛ يصبر على ألمٍ مؤقت، لأنه يثق في عدلٍ لا يضيع، ونعيمٍ لا ينتهي، ولقاءٍ يُتمّ كل معنى.

ومن هنا يتضح أن الدين ليس فكرةً ثانوية ولا رفاهيةً فكرية، بل هو ضرورةٌ وجودية لإنسانٍ يبحث عن معنى، ويضيق بالعبث، ويتوق إلى العدل والخلود.

فالدين هو الضمان الحقيقي للعدل الإلهي؛ لأنه لا يحبس الإنسان داخل حدود الدنيا، بل يربطها بالآخرة، فتتضح الصورة الكاملة للمصير والجزاء، ويأخذ كل ذي حقٍّ حقه في موضعه الصحيح؛ فالله سبحانه كاملٌ منزهٌ عن كل نقص، وعدله مطلق، ولا يظهر كمال هذا العدل إلا إذا امتدّ الحساب إلى الآخرة، حيث تُستوفى الحقوق وتُجبر المظالم.

كما أنه يمنح **الإنسان إطارًا أخلاقيًا ثابتًا**، وبوصلةً واضحة تحميه من الضياع وسط الأهواء والنسبية التي تفتت القيم.

كما أنه أيضا **هداية ربانية تُنير الطريق** في ظلمات الجهل والهوى، وتمنح الإنسان منهجًا متكاملًا للحياة يوازن بين الروح والجسد، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة .وبدون هذه الهداية، يبقى الإنسان مشتتًا بين رغباته وتناقضاته، بلا غاية واضحة ولا طريق ثابت.

والأعظم من ذلك أن **الدين يعرّف الإنسان بربه حق المعرفة**، فيتعرّف إلى الله بأسمائه وصفاته كما عرّف بها نفسه، فيمتلئ قلبه تعظيمًا ومحبةً وخشيةً ويقينًا.

وهذا كله يتجلّى في الإسلام بوصفه دين الفطرة؛ يجمع بين العقل والإيمان في انسجامٍ كامل، يُشبع العقل بالبرهان، ويُطمئن القلب باليقين، ويرتقي بالإنسان نحو الكمال الذي خُلق له.

فهل يرضى العاقل أن يسلك طريق الحيرة والضياع، أم يتبع طريق الحق واليقين؟

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]

فهذا هو طريق الهداية، ومنهج النجاة، وكلام الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الرحمة والنور والشفاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

وقفات في شمول التصور الإسلامي للحياة:

سبق أن تبيّن لنا كيف كرّم الإسلام الإنسان، وعرّفه بربه، ومنحه غايةً واضحة ومستقبلًا ممتدًا ونعيمًا لا ينتهي إن هو عبد ربَّه وشكره، ووعده بعدلٍ لا يُظلم فيه أحد يوم القيامة، لكن يبقى السؤال: هل اكتفى الإسلام بهذا البناء المعنوي والتكريم العظيم؟ وهل ترك واقع الحياة بما فيه من ظلمٍ ومشكلات دون علاج؟

الجواب: أن الإسلام لم يكتفِ ببناء الإنسان فحسب – مع عظم هذا البناء وعلوّ شأنه – ولم يقل للمظلوم: انتظر الآخرة لتُردّ حقوقك، بل جاء بمنهجٍ شامل يعالج حياة الإنسان من جميع جوانبها، ويقيم التوازن بين الإيمان والعمل، وبين الآخرة والدنيا؛ لأنه دين الله الذي يعلم خَلْقه وما يصلحهم.

وسنقف مع هذا الشمول من خلال أربع زوايا رئيسية:

أولًا: الجهاد وحماية المستضعفين

ثانيًا: الحرية والكرامة الإنسانية

ثالثًا: إقامة العدل في الأرض

رابعًا: العلم والعمل وجعل الدنيا مزرعة الآخرة

أولًا: الجهاد وحماية المستضعفين

من عظمة الإسلام أنه لا يكتفي بطمأنة المظلوم بوعد الآخرة، ولا بتهديد الظالم بعقابٍ مؤجل، ثم يترك الواقع كما هو؛ بل جعل من أسباب دخول الجنة أن يدافع المسلم عن دينه ونفسه وماله وعِرضه ، عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِلَ دون أهله، أو دون دمه، أو دون دينه فهو شهيد". [صحيح] – رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد.

وجاءت آيات الجهاد لتؤكد هذا المعنى،فالدين الحق ليس أفيون الشعوب كما زعم كارل ماركس ، بل حمّل أتباعه مسؤولية مقاومة الظلم، والدفاع عن المستضعفين، ومواجهة العدوان، والعمل على إقامة العدل في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ **وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] ، تُظهر الآية أن الإيمان في الإسلام ليس موقفًا سلبيًا أمام الظلم، بل مسؤولية تُحرّك الإنسان لنصرة المستضعفين ودفع الظلم عنهم.

وقال سبحانه: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ **(النساء: ٨٤)**

فهذا قتالٌ لرفع الظلم، لا للاعتداء ولا للطغيان، بل هو دفاعٌ مشروع لحماية الحقوق والكرامة.

ثانيًا: الحرية والكرامة الإنسانية :

من عظمة الإسلام أنه لم يكتفِ بأن يخبرك أنك مكرَّم — ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ — وأنك خليفة في الأرض، وهي منزلة عظيمة لا تُقارن بمن يختزل الإنسان في كونه مجرد حيوان؛ بل قرن هذه الكرامة بمعانٍ عملية، فجعل الحرية والعدل وصيانة الكرامة من أعظم مقاصد الشريعة،

ووقف في وجه الاستبداد والطغيان.

فجاءت الشريعة بحفظ الضرورات الأساسية: الدين، والنفس، والعقل، والكرامة، والاختيار، ودعت إلى صيانة حقوق الإنسان ومنع التعدي عليها، وجعلت تحقيق العدل واجبًا بقدر الاستطاعة.

ويتضح هذا المعنى في دعوات الأنبياء عليهم السلام؛ فلم تكن مجرد دعوة عقدية، بل كانت دعوة للتحرر أيضًا، فدعوة نبي الله موسى عليه السلام إلى فرعون بدأت بتعريفه بالله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم انتقلت مباشرة إلى التطبيق العملي: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

فالإيمان بالله هو الأساس، وتحرير الإنسان من الظلم هو الثمرة؛ إذ لا معنى للإيمان مع بقاء الإنسان مستعبدًا، ولا تتحقق الكرامة إلا بزوال الطغيان وتحرر الإرادة من سيطرة البشر.

ثالثا : إقامة العدل في الأرض:

بعد أن تبين أن الأخلاق موضوعية وثابتة، وليست نسبية تخضع للأهواء والمصالح، يظهر جانبٌ أعمق من عظمة هذا الدين في باب الأخلاق.

فالإسلام لا يتعامل مع الأخلاق باعتبارها مجرد قيم مثالية تُذكر في الكلام، ولا يجعلها مجرد مشاعر داخلية أو صفات معنوية معزولة، بل **يربطها مباشرة بالله سبحانه**: بالحق، والعدل، والرحمة، والحكمة. لذلك فالأخلاق في الإسلام ليست منفصلة عن الإيمان، بل هي انعكاس له؛ فكلما ازداد قرب الإنسان من الله، ظهر ذلك في أخلاقه وسلوكه.

فالرحمة ليست مجرد سلوك اجتماعي، بل هي أثر من آثار اسم الله "الرحمن"، والعدل ليس فكرة بشرية مجردة، بل هو امتداد لاسم الله "العدل"، وكذلك الصدق والأمانة وسائر القيم، ليست معاني نظرية، بل طرق عملية يتقرب بها العبد إلى الله ويطلب بها رضاه.

لكن جمال الإسلام لا يقف عند الإيمان بهذه القيم فقط، **بل يتجاوز ذلك إلى تحويلها إلى واقع يُعاش**. فلم يأتِ الإسلام ليقول: "كن عادلًا" فحسب، بل جاء ليُقيم العدل، ويمنع الظلم، ويجعل للحق سلطانًا في حياة الناس. ولهذا حمّل الإنسان مسؤولية الخلافة في الأرض، ليكون شاهدًا على هذه القيم بأفعاله قبل أقواله، وليكون وجوده سببًا في نشر العدل والرحمة بين الناس.

ومن هنا جاءت النصوص لتؤكد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، فالحكم بالحق ليس فكرة تُقال، بل مسؤولية تُترجم إلى عدلٍ يُقام، وظلمٍ يُرفع، ولهذا كانت من مهامّ الرسل الأساسية: إقامة القسط والعدل بين الناس، وضبط

القيم الأخلاقية في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ** ﴾ **الحديد (٢٥)**

فالكتابُ والميزانُ هما اللذانِ يجعلان الأخلاقَ موضوعيّةً تُطبَّق على الجميع، لا نسبيّةً تُحرّكها الأهواءُ والمصالحُ كما يعيشه العالمُ اليوم ، ولا أوضحَ من ذلك من هذا الظلمِ البيّن الذي نراه اليوم في شتّى بقاع الأرض؛ ظلمٌ ما كان ليقع لو التزم الناسُ بميزانِ الله وعدله، وهذا الظلمُ نفسُه شاهدٌ على ما تصنعه النسبيّةُ بالأمم حين تنفلت الأخلاق من سلطان الحق.

ولهذا حملك الله أمانه الخلافه في الأرض وكرمك، وهو تكريمٌ عظيم يُحمّله مسؤولية قبل أن يكون شرفًا؛ لأنك مُطالَب بأن تكون صورة حيّة للهداية، وقدوة عملية تمثل تعاليم الإسلام في أقوالك وأفعالك، وأداةً لنشر العدل والرحمة في الأرض، لقد جعلك الله وسيلةً لإيصال النور، وبك أراد أن يحيا الناس في ظلال القيم الربانية: كرامةً، وعدلًا، ورحمةً، وهداية.

ولهذا قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فخيرية الأمة الإسلامية تكمن في كونها، في الأساس، حاملة رسالة، وموكّلة بواجب التبليغ، وأمينة على أن تكون مثالًا يُحتذى به.

يقول الله عز وجل :﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)

يبين الله تعالى أنه لولا أن يُسخّر من عباده من ينصر الحق ويكفّ الباطل، لعمّ الفساد في الأرض، ولضاعت القيم واختلطت الموازين، فلا يُعرف الظالم من المظلوم، ولا يتميز الحق من الباطل، فيسود الاضطراب دون وعي الناس.

ولكن بدفع الله الناس بعضهم ببعض، تتجلى الحقائق وتظهر القيم، ويتميز الصف: من مع الحق ومن مع الباطل، ويكون في ذلك ابتلاءٌ لأهل الإيمان ليُظهر صدقهم وثباتهم، ثم يكون التمكين لمن صبر وصدق، ومن هنا، ومع ما يمر به الناس من فتنٍ وابتلاءات، فإن وعد الله قائم بأن يُظهر الحق ويُقيم العدل، على أيدي عباده الصادقين الذين ثبتوا على الحق وصبروا على البلاء، فيملأ الله بهم الأرض عدلًا ورحمةً بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا، كما بشّر بذلك النبي ﷺ.

فسبحان الله دائمًا وأبدًا بهذا التدافع ينكشف أهل الحق من أهل الباطل، وبه يميّز الله الخبيث من الطيب.

خلاصة الفكرة الثالثة : أن الإسلام ليس إيمانًا نظريًا مجردًا، بل منهج حياة ومسؤولية، يجعل الأخلاق واقعًا يُرى، لا مجرد فكرة تُقال، والمسلم الحق هو من تتحول قيمه إلى أثر في الناس: عدلٌ يُقام، ورحمةٌ تُنشر، وصدقٌ يُرى، وإحسانٌ يُعاش.

رابعًا: العلم والعمل وجعل الدنيا مزرعة الآخرة:

لم يفصل الإسلام بين العلم والعمل، ولا بين الدين والدنيا، بل جعلهما طريقًا واحدًا متكاملًا؛ فالعلم يهدي، والعمل يثبت، وكلاهما عبادة إذا صَحَّت النية. فالدنيا ليست غايةً تُطلب لذاتها، ولا ميدانًا يُهمل، بل هي مزرعة الآخرة التي يُغرس فيها العمل، ويُحصد فيها الجزاء.

ولهذا دعا الإسلام إلى طلب العلم، وإتقان العمل، وعمارة الأرض، وربط كل ذلك بغايةٍ أعلى: عبادة الله وتحقيق مراده في الحياة. فالمؤمن لا يعتزل الدنيا، ولا يذوب فيها، بل يعيش فيها بعقلٍ يعمل، وقلبٍ يعبد، وغايةٍ تتجاوزها ، ولهذا سخّر الله ما في الكون من نعم، وأباح الطيّبات، وجعل الحياة ميدانًا لتحقيق العبودية فيها ولعمارة الأرض.

قال تعالى:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ **إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ**﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ **وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]

وكذلك لم يُحرّم الإسلام الطيّبات، بل أباح الانتفاع بها، وجعل شكر النعمة بحسن استخدامها قُربةً إلى الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فالإسلام لا يصطدم مع الفطرة، بل يوجّهها؛ فيُحلّ الطيب، ويُحرّم الخبيث، ويضع لكل شيء ميزانه.

ومن هنا شجّع الإسلام على الزواج وتكوين الأسرة، وجعله طريقًا للعفة والسكينة، وسببًا للأجر إذا صلحت النية، وهكذا يمضي الإسلام منهجًا متوازنًا؛ يجمع بين الإيمان والعمل، وبين الروح والجسد، وبين التوكل والأخذ بالأسباب، حيث يأمرك أن تثق بالله، وفي الوقت نفسه أن تسعى وتبذل، يربّي فيك صفاء الروح، دون أن يغفل حاجات الإنسان وواقعه.

فجاءت الشريعة كاملة متزنة، تُعالج الإنسان كله: عقله، وقلبه، وجسده، وحياته، وآخرته، بلا إفراط ولا تفريط.

وخلاصة التصور الإسلامي للوجود:أنه رؤية متكاملة للحياة لا تفصل بين الإيمان والعمل، ولا بين الدنيا والآخرة، ولا بين العبادة وعمارة الأرض، **يجمع بين الحياة الطيبة الكريمة في الدنيا، ونعيم الجنة الأبدي في الآخرة.**

خاتمة المبحث:

الإنسان بطبيعته لا يقبل أن تكون حياته بلا معنى، ولا أن يكون وجوده عبثًا بلا غاية أو مصير، هو مخلوقٌ يبحث عن المعنى والقيمة، ويطلب العدالة، ويحنّ إلى الكمال والخلود.

ولا يجد هذا الاكتمال إلا في الإسلام؛ حيث تتضح الغاية، ويستقيم الطريق، ويطمئن القلب بعدلٍ مطلق، ويمتد الأمل إلى خلودٍ لا ينتهي.

فهل يُعقل أن يُعرض الإنسان عن هذا كله، ويرضى أن يكون مجرد مادة عابرة بلا هدف؟!

أم يعود إلى فطرته فيقول كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] ، فتلخّص هذه الآية طريق الإنسان كله في كلمات قليلة: من أين جاء؟ من الله، لماذا يعيش؟ لعبادة الله، وإلى أين يرجع؟ إلى الله للحساب والجزاء.

ونختم بقوله تعالي : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]

وفي المقابل يقول سبحانه:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]

فمن عرف الله عرف سرّ وجوده، وغاية حياته، وإلى أين المصير؛ فاستقرت نفسه، واطمأن قلبه، وثبت في طريقه.

***

ملحق : التوحيد كضرورة عقلية لا مفر منها

من الكون المحدود... إلى الإله الواحد الكامل

لقد أثبتنا بالأدلة العقلية أن هذا الكون مخلوق محدود، وأن كل محدود لا بد له من خالق مطلق كامل أوجده من العدم، وهذه حقيقة عقلية لا مفر منها. وبفضل الله، قد بسطنا هذه الأدلة بسطًا وافيًا.

لكن يبقى السؤال: هل هذا الخالق واحد أم يمكن أن يكون هناك أكثر من إله؟

أولاً: الكمال المطلق يمنع وجود شريك

منطقيًا، لو افترضنا وجود إلهين أو أكثر، فلا بد أن نسأل: هل يمكن أن تختلف إرادتهم أم تتفق؟

١- لو اختلفوا في الإرادة : أي أن أحدهم أراد حياة إنسان، والآخر أراد موته.

هنا نجد أنفسنا أمام محالات عقلية ثلاث لا رابع لها:

- الاحتمال الأول: أن يتحقق ما يريدانه معًا، ولو كان متناقضًا. وهذا مستحيل عقليًا، لأن ذلك يعني اجتماع الشيء وضده في الوقت نفسه، مثل أن يكون العالم موجودًا وغير موجود معًا، وهذا محال.
- الاحتمال الثاني: ألا يتحقق مراد أي منهما، وهذا مستحيل أيضًا، لأن ذلك يعني فشل قدرة الاثنين معًا، والعجز يناقض صفة الألوهية.
- الاحتمال الثالث: أن يتحقق مراد واحد منهما فقط، والآخر عاجز عن تنفيذ إرادته، وهذا يعني أن أحدهما عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا.

وهذا ما قاله الإمام الباقلاني:

"لو اختلف إلهان فأراد واحد حياة إنسان وأراد الآخر موته، فإما أن يحدث الأمران معًا (وهذا مستحيل)، أو لا يحدث أي منهما (وهذا عجز)، أو يحدث أمر واحد دون الآخر (وهذا يثبت أن الثاني عاجز)، والعاجز لا يكون إلهًا".

٢-لو اتفقوا دائمًا

أي: اتفقوا على فعل واحد مشترك في الكون، فنواجه محالات عقلية أخرى:

- إذا شاركوا جميعًا في تنفيذ نفس الفعل، فكل واحد منهم سيكون محتاجًا للآخر حتى يتم الفعل، والاحتياج يدل على النقص، والنقص ينافي الكمال المطلق، فكيف يكون الإله ناقصًا وهو كامل؟
- وإذا قام أحدهم بالفعل وحده، فلن يكون للآخر أي دور حقيقي، وهذا يعني أن وجود الآخر بلا فائدة، ووجود شريك بلا أثر هو عبث يتنافى مع الحكمة والكمال اللذين يقتضيهما الإله الحق.

وملخّص هذه الجزئية ما أوضحه ابن تيمية **رحمه الله** حين قال:

"لو اشترك إلهان في فعل، فإما أن يكون كل واحد مستقل بالفعل، وفي هذه الحالة لا يحتاج لشريك، ووجود الآخر بلا فائدة، أو لا يكون مستقلًا ويحتاج للآخر، والمحتاج ناقص لا يصلح أن يكون إلهًا".

٣- **الخلاصة العقلية** : وجود أكثر من إله يؤدي حتمًا إلى واحدة من ثلاث نتائج:

- تناقض مستحيل التحقق.
- عجز ينافي الألوهية.
- احتياج ينفي الكمال المطلق.

والإله الحق لا يتصف بالتناقض ولا بالعجز ولا بالاحتياج، إذًا من المحال وجود أكثر من إله كامل مطلق، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]

ثانيا : وحدة الكون دليل على وحدانية الله

لو نظرت حولك، من أدق جزء في الذرة إلى أبعد المجرات، ستجد أن القوانين التي تحكم كل ذلك واحدة، وأن الثوابت الكونية ثابتة في كل مكان وزمان.

- قانون الجاذبية الذي يحكم حركة الكواكب في مجموعتنا الشمسية هو نفسه الذي يحكم المجرات على بعد ملايين السنين الضوئية.
- سرعة الضوء، وكتلة الإلكترون، وثوابت الطبيعة كلها لا تتغير مهما اختلف المكان أو الزمان.

لو كان هناك أكثر من إله، فمن الطبيعي أن يكون لكل واحدٍ منهم سلطانه وقوانينه الخاصة، وهذا يعني اختلافًا واضطرابًا في القوانين.

لكن الواقع الذي نراه هو نسيج كوني واحد متناسق من أوله إلى آخره، بلا أي انقطاع أو اضطراب.

الكل خرج من إرادة واحدة.

ولهذا قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٢]

فالنتيجة الطبيعية لوجود آلهة متعددة هي انقسام الكون واضطرابه، لكن الواقع المشاهد نظام دقيق بلا فوضى، إذن المدبر واحد لا شريك له.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]

الآية توضح أن النتيجة الطبيعية لوجود آلهة متعددة هي انقسام الكون واضطرابه.

ملخص: إذا كان الكون كله منظومة واحدة متناسقة، فإن التفسير العقلي الوحيد هو أن خالقه ومدبره إله واحد كامل لا شريك له.

أما القول بتعدد الآلهة، فهو يؤدي حتمًا إلى الفوضى والتناقض والانقسام، وهذا ما لا يراه الواقع، إذ يشهد الكون بوحدانية الله تعالى.

ونضيف أيضًا: نظرًا لأن قضية الإيمان بالله هي قضية غيبية عظيمة، فلا بد أن يكون الاعتقاد مبنيًا على دليل واضح وبرهان قاطع، لا على الظنون والتخمينات، وإلا صار مجرد خرافة. وقد حذَّرنا القرآن من اتباع الظن بغير علم، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ النجم

وأمرنا أن نطلب البرهان، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

وحين نتأمل في الكون نجد الأدلة العقلية التي عرضناها في هذا الكتاب البسيط، ومنها:

- برهان العقل الذي يثبت أن لكل حادث محدثًا، وأن الكون له بداية، أي أنه حادث لا بد له من خالق حكيم.
- برهان النظام الذي يُظهر الكون محكومًا بقوانين ثابتة من الذرة إلى المجرة.
- برهان الشيفرة الوراثية (**DNA**) التي تحمل مكتبة معلوماتية يستحيل أن تكون وليدة الصدفة.

- برهان قابلية الكون للفهم والدراسة.
- برهان الضبط الدقيق للكون وجماله البديع.
- برهان العقل الواعي، الإرادة الحرة، الفطرة، الأخلاق، والزوجية.
- برهان هداية الله للمخلوقات وتعليمها ما تعجز العقول البشرية عن تصميمه.

كل هذه أدلة عقلية قطعية على وجود إلهٍ مطلقٍ، سبحانه وتعالى.

أما من يزعم بوجود إلهين، أو ثلاثة، أو أكثر، فنقول له بهدوء العقل: أين دليلك على ذلك؟ وهل الإله الكامل يحتاج إلى شريكٍ في الخلق أو التدبير؟ الجواب العقلي الواضح: لا.

فالإله الكامل لا يحتاج إلى غيره. وبالتالي، فإن ما يُسمّى بإلهٍ ثانٍ أو ثالث لا يكون له أثرٌ في الخلق، ولا دورٌ في التدبير، ولا بصمةٌ حقيقية في هذا الكون؛ إذ قد تكفّل الإله الكامل بالخلق والتدبير وحده، وكون هذه "الآلهة" المزعومة بلا أثر في الكون، يعني — عقلًا — أن الإيمان بها إيمانٌ بلا دليل، وما لا دليل عليه فليس إيمانًا، بل خرافة.

وعليه، فإن كل دعوى بتعدّد الآلهة دعوى بلا برهان، وخرافة لا تقوم على أيّ أساسٍ عقليٍّ صحيح، تعالى الله عن الحاجة أو الشريك علوًّا كبيرًا.

وبالمناسبة، فإن هذا التأكيد الإسلامي الصارم على اتباع الدليل العقلي الواضح، والتحذير من الظنون والخرافات والسحر، كان له دورٌ حاسم في تأسيس النهضة العلمية.

فالإسلام لم يفتح بابًا للجهل ولا للخرافة، بل دعا دائمًا إلى التفكير، والبحث، والتجربة، والاستقصاء، وربط المعرفة بالبرهان والدليل القاطع.

ومن هنا، كان المسلمون من أوائل الأمم التي أرست قواعد العلم على أسسٍ عقليةٍ ومنهجية، وأسهموا في دفع الحضارة الإنسانية نحو التقدّم، في وقتٍ كان فيه العالم الآخر غارقًا في الظنون والخرافات والسحر، مما عطّل العقل وعرقل مسيرة المعرفة

ثالثًا: التوحيد دين الفطرة

التوحيد ليس مجرد عقيدة عقلية قائمة على البرهان، بل هو أيضًا دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالإنسان إذا تُرك على طبيعته، بعيدًا عن أي مؤثرات خارجية، سيجد في أعماق قلبه ميلًا فطريًا نحو إله واحد كامل الصفات، يدبّر أمره، ويرزقه، ويحميه وقت الشدة، ويهديه إلى الخير والحق.

فطرته السليمة لا تعرف تعدد الآلهة أصلًا؛ قلب الإنسان لا يتسع لتعدد أرباب.

فكيف يمكن أن يتسع لآلهة متعددة كاملة مطلقة الصفات؟! هذا في ميزان الفطرة والعقل معًا أمر غير ممكن، بل هو نوع من التناقض والجنون، لأن النفس البشرية لا تجد الطمأنينة ولا الأمان إلا عند ذات واحدة كاملة الكمال المطلق، ولو تأملت في حياة البشر، ستجد أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض — في لحظة أزمة حقيقية أو خطر داهم كالغرق أو الحريق أو الزلازل — يدعو أكثر من إله في وقت واحد!

بل إن الفطرة تدفعه مباشرة لأن يصرخ إلى إله واحد فقط، لأنه يعلم في أعماقه أنه لا ملجأ ولا منجى إلا منه سبحانه، إذًا، فالدليل الفطري شاهد بوضوح على أن الإله الحق واحد، وأن فكرة تعدد الآلهة مخالفة لما جُبلت عليه القلوب السليمة والعقول المستقيمة.

وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]

فالآية ترسم مشهدًا واقعيًا وفطريًا في آن واحد: عندما تحيط الأخطار بالإنسان، ويشعر أنه على وشك الهلاك، فإنه ينسى كل المعبودات الباطلة، ويتوجه بقلبه ولسانه إلى الله وحده، مخلصًا له الدعاء، لأنه يعلم يقينًا أنه لا منقذ ولا مفر إلا منه سبحانه.

ونختم بما جاء في قوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ۚ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦٤) النمل

فالآية تُذكّر بأن خالق الكون ومنظمه ورازق العباد هو إله واحد، وأن الإشراك به ظلم للعقل والفطرة، وعدول عن الحقيقة الواضحة التي يشهد عليها كل شيء في الوجود.

التوحيد عند المسلمين

الإسلام هو الدين الوحيد الذي جمع بين توحيد الخالق في العقيدة والفكر، وبين توحيد العبادة في العمل والسلوك. فالتوحيد ليس مجرد فكرة نظرية، بل هو منهج حياة متكامل يجمع بين الإيمان القلبي والالتزام العملي.

وقد لخّص الأستاذ أنور الجندي هذا المعنى بقوله:

"لو قلنا إن لكل دين طابعًا يميّزه، فإن طابع الإسلام هو التوحيد؛ فهو لُبابه، ومنهجه، وقوامه، والعامل الأساسي الذي يفصل بين الإسلام وبين غيره من المذاهب والفرق المبنية على الوثنية أو الإلحاد أو تعدد الآلهة".

فالمسلم لا يكتفي بالإيمان بأن الله وحده هو الخالق المدبر، بل يجعل عبادته وطاعته وخضوعه لله وحده، فلا يشرك معه أحدًا في العبادة، ولا يدعو غيره، ولا يطلب النفع أو دفع الضر إلا منه سبحانه.

ويتميّز التوحيد الإسلامي بأنه يشمل ثلاثة أركان رئيسية:

١. توحيد الألوهية :أي إفراد الله وحده بالعبادة، فلا تُصرف صلاة ولا دعاء ولا نذر ولا رجاء إلا له سبحانه.

٢. تنزيه الله عن الشريك أو الوسيط أو الابن :فلا يُنسب له ولد، ولا يُجعل بينه وبين خلقه وسيط يشاركه في العبادة أو التصرف.

٣. رفض الشرك بجميع صوره :سواء كان شركًا في الربوبية (الاعتقاد بمدبر آخر)، أو في الألوهية (عبادة غير الله)، أو في الأسماء والصفات (تشبيه الله بخلقه أو إعطاؤه صفات المخلوق).

وهكذا يكون التوحيد في الإسلام عقيدة عقلية راسخة تدل عليها البراهين، وفي الوقت نفسه فطرة قلبية نقية يولد عليها الإنسان، ليجد فيها السلام والسكينة والاتساق مع الكون كله الذي يسبّح بحمد خالقه الواحد الأحد.

وبما أن العقل السليم يرفض الشرك، فإننا نستبعد مباشرة كل دين أو عقيدة تقوم على تعدد الآلهة أو إشراك غير الله في الألوهية أو العبادة. وهذا يقودنا إلى استبعاد:

١.الأديان الوثنية:

- الهندوسية :تقوم على عبادة عدد هائل من الآلهة، ولكل إله منهم اختصاصاته وصلاحياته، مثل براهما (الخالق)، وفشنو (الحافظ)، وشيفا (المدمر)، وغيرها. هذا التعدد يناقض

بداهة العقل، إذ إن تعدد الآلهة يعني التضارب في الإرادة والسيطرة، مما يؤدي إلى فساد الكون، وهو ما لا نراه.

- اليونانية والرومانية القديمة :اعتقدوا بآلهة متعددة، لكل منها مجال، مثل زيوس (إله السماء)، وبوسيدون (إله البحر)، وأثينا (إلهة الحكمة). هذه الصورة البشرية للآلهة مليئة بالقصص المتناقضة والصراعات، مما ينفي عنها صفة الكمال الإلهي.
- المصرية القديمة :عبدوا آلهة كثيرة، مثل رع (إله الشمس)، وأوزيريس، وحورس... وكانت بينهم قصص تنافس وصراع، وهو ما يتنافى مع كمال الإله الحق.

٢ الأديان القائمة على التعدد في ذات الإله (كالنصرانية المعاصرة)

النصرانية المحرَّفة اليوم تقوم على عقيدة التثليث: الإله واحد، لكنه في الوقت نفسه ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس.

وهذا الجمع بين الوحدة المطلقة والتعدد الحقيقي في ذات واحدة هو تناقض عقلي صريح؛ لأن الإله لا يمكن أن يكون واحدًا وثلاثة في آنٍ واحد، إذ لا يصح عقلًا الجمع بين الوحدة والتعدد في الشيء نفسه.

(ولمن أراد التفصيل فليرجع إلى *كتاب براهين النبوه للدكتور سامي عامري حفظه الله*).

لكن ما يهمنا هنا — في سياق براهين وجود الله — هو نقطة أعمق وأخطر، وهي: أن فكرة أن لله ابنًا محالٌ عقليًا من أصلها، حتى قبل النظر في تفاصيل التثليث.

لماذا فكرة "المسيح ابن لله" محال عقليًا؟

لنفهم ذلك، تذكّر معي هذا المثال البسيط: تخيّل جنديًا لا يستطيع إطلاق الرصاصة إلا بعد أن يأذن له قائد، وهذا القائد لا يُصدر الإذن إلا بعد قائدٍ قبله، وهكذا... سلسلة بلا بداية زمنية.

هل ستُطلق الرصاصة؟ الجواب واضح: لا، لأن السلسلة إذا كانت بلا بداية زمنية، فلن تصل أبدًا إلى الفعل، وهذا هو نفس الإشكال العقلي الذي يُبطل القول بأزلية المادة؛ فأنا وُجدت بعد أبي، وأبي بعد جدّي، والجد بعد عناصر الأرض، والأرض بعد مادة النجوم، وهكذا بلا بداية. فلو كانت المادة أزلية بلا بداية زمنية، لكان وجودي محالًا عقليًا، لأن وجودي يتطلب عبور عدد لا نهائي من الأسباب والزمن بلا بداية قبل أن أصل إلى الوجود.

وبعد أن تذكّرنا ما سبق شرحه من استحالة عبور اللامتناهي، وزيادةً في التأكيد، تذكّر قصة الذي كان يجري منذ الأزل، حتى وصل إلينا، فلما سألناه: منذ متى وأنت تجري؟ قال: منذ زمن لا بداية له.

فوجب علينا أن نُكذّب قوله؛ لأن عبور الماضي اللامتناهي حتى نصل إلى الحاضر محال عقلًا.

نعود الآن إلى الإشكال العقلي في مسألة "ابن لله." ، فلو قيل إن لله ابنًا، فلابد أن يكون وجود هذا الابن متعلقًا بالأب، لكن إذا كان الأب أزليًا بلا بداية زمنية، فكيف يمكن للابن أن يصل إلى الوجود أصلًا؟! وكيف يمكن له أن "يقطع" زمنًا لا بداية له حتى يوجد؟

أو بعبارة أخرى: سيكون على هذا الابن أن ينتظر زمنًا لا بداية له حتى يأتي، وهذا محال عقليًا بالضرورة؛ لأنه يقتضي عبور الزمن اللانهائي للوصول إلى نقطة وجود محددة.

وكذلك تمامًا: لو كان لله ابن، لكان وجود هذا الابن محالًا من الأساس.

فكيف لهم بعد ذلك أن يقولوا إن المسيح ابن الله — والعياذ بالله — أو أن عزيرًا ابن الله؟ تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن هنا تتبيّن ضرورةٌ عقليةٌ جليّة: أن الله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن الزمان والمكان، إذ هو خالقهما ومُوجِدهما من العدم.

وهنا يظهر إعجاز العقيدة الإسلامية في تصور الإله، إذ جاءت بتوحيدٍ خالصٍ من كل تناقض، ينسجم مع العقل السليم والفطرة المستقيمة.

فقد أكّد الإسلام تأكيدًا قاطعًا أن الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. وأنه سبحانه بائنٌ عن مخلوقاته، فليس جزءًا من الكون، ولا حالةً من حالاته،

ولا حلقةً في سلسلة الوجود، بل هو خالقُ كلِّ شيء، منزَّهٌ عن الزمان والمكان، إذ هو خالقهما ومُوجِدهما، له الكمالُ المطلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهو الغنيُّ عن العالمين.

وقد كان الله ولم يكن شيءٌ معه، كما أخبر الصادقُ المصدوق ﷺ، أي هو خالقُ كلِّ شيءٍ من العدم.

شهادة القرآن على فظاعة دعوى "الولد"

وانظر إلى التعبير القرآني المزلزل عن هذه الدعوى، حين لا يصفها باعتبارها خطأً عقديًا محدودًا،بل باعتبارها كارثة كونية عقلية ووجودية وعقدية: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ

شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم: ٨٨–٩٣)

فعبّر القرآن عن فظاعة هذه الدعوى بأقوى ما تعبّر به اللغة، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾،أي أمرًا عظيمًا منكرًا تقشعرّ له العقول قبل القلوب. ثم لم يكتفِ بالوصف اللفظي، بل نقلنا إلى مشهد كوني مزلزل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، ليؤكد أن هذه الدعوى ليست مجرد خطأ في التصور، بل قولٌ لو صحّ لاختلّ به أساس الوجود كله.

وهكذا يقرر القرآن تقريرًا حاسمًا: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

أما السيد المسيح عليه السلام، فهو عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وقد قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)

وتأمّل بلاغة القرآن وهو يقرّر حقيقة عقدية بأسلوب بسيط واضح، حين يبيّن أن المسيح كان يأكل الطعام، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه عبدُ الله ورسولُه؛ لأن الأكل دليل الحاجة، والحاجة دليل النقص، إذ يضعف بالجوع ويتقوّى بالطعام، والنقص يستحيل في حق الإله أو ابن الإله حاشاه.

قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ **كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ** ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)

ثم يختم القرآن القول الفصل في شأنه عليه السلام، في بيانٍ جليٍّ لا يترك مجالًا للالتباس ، فيحدّد حقيقة عيسى ابن مريم، وينفي عنه كل ما أُلصق به من دعاوى الألوهية والبنوة، ويقرّر أنه عبدٌ لله ورسولٌ منه، يدعو إلى توحيده وعبادته وحده : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٤–٣٦)

وبعد هذا التقرير القاطع، ينتقل القرآن إلى بيان حكم من تجاوز هذا الحق الواضح، فغلا في المسيح ورفعه إلى مقام الألوهية، مع أن المسيح نفسه صرّح بدعوته إلى عبادة الله وحده، فجاء التصريح بكفر هذا الاعتقاد بيانًا للميزان العقدي الذي لا يقبل اللبس: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢–٧٣]

وتأمّل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾

ومن هنا يتضح وجه الاستفهام الاستنكاري: كيف يُتصوَّر دخول الجنة لمن جمع بين الشرك في الاعتقاد، وتكذيب الرسل، وجحد خاتمهم محمد ﷺ، ومعجزة القرآن العظيمة؟ فالجنّة إنما هي جزاء أهل التوحيد، لا من خلط الإيمان بالشرك والتكذيب.

ولأجل هذا ذُكِرَتْ سابقًا صورُ الشِّرك في الديانات الوثنية القديمة، ثم ما وقع فيه النصارى من الشرك بعد التحريف؛ لا لمجرد الاستطراد، بل لإبراز الإعجاز القرآني في أنه لا يناقش واقعةً تاريخيةً معزولة، وإنما يضع إطارًا كليًّا محكمًا يفسّر ظاهرة الشرك في أصلها وتكرارها عبر العصور، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ **يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

ومن هنا يتجلّى أن تقرير التوحيد هو القضية المركزية، وقد جاء القرآن بتقريره في أوجز وأحكم بيان، كما تجلّى ذلك بوضوح في سورة الإخلاص، التي هدمت الشرك من جذوره وأقامت التصور الصحيح للإله الحق.

ولا أنسى ما سمعته منذ زمن من مصدر موثوق — وإن كنت الآن لا أتذكر الاسم أو المرجع بدقة — عن قصة عالمٍ أمريكي كان نصرانيًا، ولم يكن يعرف شيئًا عن الإسلام، فلما مرّ ذات يوم أمام أحد المنازل في أمريكا، وجد مكتوبًا سورة الإخلاص، فقرأها، فكانت هي وحدها سببًا في إسلامه.

وليس في هذا شيءٌ عجيب؛ فوالله إن سورة الإخلاص وحدها تقريرٌ مكثّف للتوحيد والعقيدة في الإسلام، كفيل — بذاته — أن يهدي من طلب الحق بعقله وفطرته:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

أربع آياتٍ فقط، لكنها تهدم الشرك من جذوره، وتبني تصورًا إلهيًا متماسكًا، لا يصادم العقل، ولا يناقض الفطرة، ولا يوقع الوجود في الاستحالة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى فضلها العظيم، فقال إنها تعدل ثلث القرآن لما فيها من تقرير التوحيد، الذي يقرر أن الله واحدٌ لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

الخلاصة النهائية

•القول بالتثليث محاولة للجمع بين الوحدة والتعدّد في ذات الإله، وهذا تناقضٌ عقلي صريح لا يستقيم مع أبسط قواعد العقل.

•وفكرة «ابنٍ لله» محالٌ بالضرورة العقلية؛ لأنها تفترض عبور اللانهاية للوصول إلى وجود الابن، وعبور اللانهاية محال عقلًا، فلا يُتصوَّر أصلًا.

•ونقول للملحد كذلك: إن زعمتَ أننا أبناءُ طبيعةٍ ماديةٍ عشوائيةٍ أزلية، فإن وجودنا الآن يكون مستحيلًا؛ لأن وجودنا حينئذٍ يتوقف على سلسلةٍ لا بداية لها، وما لا بداية له لا يمكن أن يُنتج وجودًا فعليًا، وهذا محال عقلًا.

وإن قلتَ إن للكون بداية —— وهو القول الصحيح عقلًا وعلميًا، حيث يقدّر العلماء اليوم عمره بنحو ١٣ مليار سنة —— فإن السؤال الحتمي هو: كيف خرج الوجود من العدم؟ وكيف نشأ الشيء من اللاشيء؟ وهذا محال عقلًا وبداهة.

• لابد إذن ——كضرورةٍ عقلية —— من الإيمان بذاتٍ مطلقةٍ واجبة الوجود، أوجدت الكون من العدم، ولا تخضع للزمان ولا للمكان ولا لقوانين المادة؛ لأنها خالقة الزمان والمكان والمادة وقوانينها.

•ولو قيل إن الخالق اتحد بالخلق، أو كان جزءًا من هذا العالم، لانتفى كونه خالقًا بالضرورة، ولزم من ذلك استحالة وجود العالم أصلًا؛ إذ يصبح وجودنا متوقفًا على سلسلة لا بداية لها، وهو محال عقلًا.

ولهذا فإن القول بالحلول أو الاتحاد—— أي جعل الله جزءًا من العالم، أو جعل العالم هو الله —— قولٌ باطل، يرفضه العقل الصريح، وينقضه الوجود نفسه.

ومن هنا يقرّر الإسلام بوضوح: أن الله سبحانه بائنٌ عن مخلوقاته، متعالٍ عن الزمان والمكان، لأنه خالقهما وخالق قوانينهما، وبهذا وحده يستقيم العقل، ويصحّ وجود العالم أصلًا.

وبذلك يتبيّن أن فكرة «المسيح ابن لله»، كما أن فكرة «نحن أبناء الطبيعة»، لا تقوم على أي أساسٍ عقلي أو منطقي، بل هي محالٌ بالضرورة: عقلًا ووجودًا.

في ختام هذا المبحث : بعد استبعاد كل المعتقدات التي تقوم على التعدد أو الشرك، يتبيّن بوضوح أن رسالة الأنبياء جميعًا كانت واحدة لا تتبدّل :التوحيد الخالص.

الله واحد لا شريك له؛ لا في الخلق، ولا في التدبير، ولا في العبادة.

حمل الأنبياء عليهم السلام لواء هذا التوحيد، يدعون إليه، ويؤكدون انسجامه التام مع العقل السليم والفطرة المستقيمة ، ثم جاء خاتمهم، النبي محمد ﷺ، برسالةٍ خالصة نقية من كل شائبة، تُعيد التوحيد إلى صفائه الأول، وتجمع بين معنيين عظيمين:

توحيدٌ يُدركه العقل: أن الله واحد أحد، لا شريك له في خلقٍ ولا أمر، **وتوحيدٌ يعيشه القلب**: إخلاص العبادة له وحده، بالمحبة والخوف والرجاء، بلا وسيط ولا شريك.

فكانت دعوته ﷺ هي الأصل الذي يُبنى عليه كل فهمٍ صحيح للدين، وكل نظرٍ سليمٍ للكون، وكل تصورٍ مستقيمٍ للحياة.

دعوة تجمع بين نور الوحي وبرهان العقل، بين صفاء الفطرة وهداية السماء؛ فلا تصادم فيها، ولا اضطراب، بل انسجام كامل يطمئن له القلب ويستقر به العقل.

إنها دعوة التوحيد الخالص؛ أعظم ما يدل على صدق هذا الدين وجماله، وهي النور الذي يهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم في كل زمان ومكان.

ويكفي القرآن العظيم حجةً قائمة بذاته؛ يأخذ بالإنسان مباشرةً إلى الله، يخاطب قلبه وعقله معًا، بأوضح بيان وأقوى برهان، ويجيب عن أعمق الأسئلة الوجودية التي يبحث عنها الإنسان، كما مرّ معنا في هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣)

***

فن التعامل مع الشبهات

قد يُلقي بعض الناس شبهات أو إشكالات جزئية حول مسألة الإيمان بالله أو دلائل وجوده.

لكن ينبغي أن ننتبه :العقل السليم لا يهدم بنيانًا شامخًا من مئات الأدلة القطعية بسبب شبهة عارضة أو سوء فهم عابر.

مثال توضيحي

تخيّل أن هناك قضية كبيرة أمام قاضٍ عادل، فيها مئات الأدلة الواضحة:شهادات متطابقة، بصمات، تسجيلات، قرائن قوية، وتوافق كامل بين أحداث الواقعة وسياقها، كل هذه الأدلة تؤكّد الحقيقة نفسها بلا أدنى اضطراب.

ثم يأتي شخص ويقول: "وجدتُ شاهدًا واحدًا قال كلامًا مختلفًا قليلًا... إذن يجب أن نلغي كل الأدلة، ونعتبر القضية كلها باطلة"! هل هذا تفكير سليم؟ طبعًا لا.

القاضي العاقل يقول: الأدلة المتضافرة لا تُهدم باضطراب شاهد واحد.

بل نبحث أوّلًا: هل الشاهد أخطأ؟ هل نَقَل الأمر منقوصًا؟ هل رأى جزءًا ولم يرَ الآخر؟ هل فهم المشهد فهمًا خاطئًا؟

وحتى لو لم نفهم بالضبط سبب الخطأ عند هذا الشاهد، يبقى الأصل ثابتًا: الحقيقة لا تسقط بسبب شبهة عابرة، خاصة إذا قامت عليها مئات البراهين المتينة.

الربط بالإيمان

وهكذا تمامًا في مسائل الإيمان: لا يمكن لشبهة جزئية أو قصة مبتورة أو سوء فهم أن يهدم كتلة هائلة من الأدلة العقلية والكونية والروحية.

ومن هذه الأدلة الكبرى – بإجمال :– برهان العقل (لكل حادث محدث) ،برهان النظام والقوانين الدقيقة، برهان الشيفرة الوراثية والمعلومات، برهان مفهومِيّة الكون وصلاحيته للفهم، برهان الضبط الدقيق والجمال، برهان العقل الواعي والإرادة الحرة والفطرة والأخلاق والزوجية، برهان الهداية الفطرية للكائنات، وغيرها مئات البراهين الممتدة في كل ذرة، وكل خلية، وكل قانون، وكل حركة في الكون...كلها تنطق بلسان واحد: أن لهذا الكون إلهًا واحدًا، خالقًا عليمًا حكيمًا.

كما قال الدكتور النابلسي حفظه الله: "الطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق".

فهل يُعقل أن ننسف هذا البناء العظيم الراسخ... لأجل شبهة عابرة في جزئية صغيرة؟!

افتراض جدلي لكشف أصل المشكلة

ولذلك... لنفترض – فقط لغرض النقاش – أن الإنسان ليس إلا نتاج مادّة صمّاء من الطبيعة، وأن عناصرها: تُربة الأرض، والماء، والهواء، قد تعاونت على تكوين كائن حيّ عاقل.

(الطبيعة الماديّة التي نراها أمام أعيننا، العاجزة عن بناء أي شيء بمفردها، تُصبِح فجأة عبقرية خارقة حين يتعلّق الأمر بنفي كون الإنسان مخلوقًا لله! كِبرٌ وغرورٌ لا أكثر)

ومع ذلك ...ولنفترض – فقط لغرض النقاش – أن هذا التصوّر صحيح.

لكن يبقى السؤال الأعظم قائمًا دون أن يتحرك قيد أنملة:

من أين جاءت التربة أصلًا؟ كيف تكوّن الماء والهواء؟ بل كيف خرج الكون كلّه من العدم؟ من الذي أوجد المادة والطاقة والقوانين، ثم ثبّت هذه القوانين بدقة مذهلة؟ من الذي أعطى الكون جماله، وتناغمه، ونظامه المحكم؟

ثم نذهب إلى مستوى أعمق داخل الإنسان نفسه: كيف اجتمعت قوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا بانسجام دقيق لإنتاج كائن واعٍ؟ كيف اتفقت جزيئات لا تعقل على بناء كائن يفكّر ويتأمل؟ كيف ظهرت الأخلاق والضمير؟ كيف نشأ الإدراك والمعنى والغاية في عالم بلا غاية؟ كيف يُفسَّر إدراك الجمال، وتقدير الحكمة، والشعور بالعاطفة، والتمييز بين الخير والشر؟ كيف ظهرت العقلية: المعرفة، المنطق، الاستدلال... وهي ليست خصائص للمادة العمياء؟

بل كيف استطاعت "الطبيعة" – إن صحّ التعبير – أن تضع مع كل كائن دفتر تعليمات معلوماتي (**DNA**)يحوي ملايين الشفرات المنظمة؟ ومن الذي علّم المخلوقات طرائق معيشتها وهداها لما يعجز البشر عن تصميمه؟ ومن الذي منح الإنسان فطرته الروحية واتجاهه العميق نحو المعنى والعبادة والخلود؟

باختصار، ولله الحمد والمنّة، هناك آلاف البراهين القطعية الثابتة على وجوده سبحانه وتعالى؛ براهين لا يستطيع أحد أن يهدمها مهما حاول، لأنها ليست مبنية على الظنون، بل على حقائق الكون، وبداهة العقل، ووعي الإنسان، ووحي السماء.

والمنهج الصحيح واضح لا غموض فيه: ابنِ يقينك على المحكمات الواضحة.

وإن استشكل عليك شيء، فاسأل أهل العلم، واقرأ وتعلّم، ولا تترك شبهة عابرة تعبث

بيقينك.

وكلما ازددت بحثًا، أدركت أن أهل الباطل دائمًا في اضطراب، وأن الشبهة الواهية لا تساوي شيئًا أمام نور الحق.

أما أن ينقلب المؤمن على عقبيه لمجرّد شبهة أو فتنة عارضة ...فهذا ما لا يُتصوَّر ممن عرف ربّه وأدلّته.

وهنا يأتي التحذير الإلهي البليغ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

تأمَّل هذا المشهد: هل يستطيع طفل صغير أن يهدم بناءً شامخًا متماسكًا بيده؟ كذلك تمامًا ...لا تهدم شبهة واهية بناءً متينًا من آلاف البراهين التي أودعها الله في الكون، وفي النفس، وفي آيات الوحي.

وهذا المبدأ لا يقتصر على براهين وجود الله وحدها، بل يمتد أيضًا إلى براهين النبوة.

فالرسول ﷺ جاء بالقرآن العظيم، معجزة خالدة تتحدى الإنس والجن، ومعه سنته المطهرة وسيرته العطرة، التي زخرت بآلاف الدلائل والمعجزات، تشهد لها العقول والفطرة والتاريخ.

فهل يُعقل أن يُلقى كل هذا النور وراء الظهر بسبب شبهة عابرة، أو رواية مبتورة، أو فهم مغلوط؟!

أي عقل يقبل أن يُطعن في نبيٍّ عُرف بالصدق والأمانة طوال حياته – قبل البعثة وبعدها – أو يُزعم أن القرآن الذي هدى الله به قلوب الملايين عبر القرون مجرد كلام مُلفَّق لرجل دجال؟

وإنكار نبوة النبي ﷺ يلزم معه هذا الوصف، كما عبر الدكتور سامي عامري – حفظه الله – في كتابه براهين النبوة والرد على المستشرقين والمنصرين:

أ- "**هل القرآن صنعة أكذب الكاذبين؟**

إنكار ربانية القرآن يلزم أن يكون القرآن صنعة كاذب عتيٍّ في الخديعة؛ فصاحبه يكذب ويتحرى الكذب، ويمكر بقومه أشد المكر، إذ يتعمّد اختلاق السور في كل مناسبة، ويرتب أصول الدين الجديد وتفاصيله الكثيرة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهو في أثناء كل ذلك ينسب قوله إلى الله – سبحانه – دون حرج ولا تململ ضمير... وهذا يتعارض تمامًا مع ما نعلمه من صدق نبي

الإسلام ﷺ في كل أمره، وشهادة القريب والخصم له باستقامة لسانه على الحق ومجانه حاله لفعل المفترين". انتهي

وقد عبر أيضًا ابن تيمية رحمه الله قائلاً:

" مُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين". انتهي

ويؤكّد القرآن هذه الحقيقة تأكيدًا قاطعًا، فيحكم بالظلم الأقصى على كل من ادّعى كذبًا أن الوحي يأتيه من عند الله، أو افترى على الله قولًا بغير حق، قال تعالى:

﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو قال أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قال سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَن آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣)

فهذا البيان القاطع يُظهر أن كل من ادّعى وحيًا مزيفًا أو افترى على الله، فهو أظلم الناس وأعظمهم جرماً.

ولذلك أعلق وأقول: لقد جرّب الناس أساليب الدجالين والكذابين عبر التاريخ، فما وجدوا فيها إلا التناقض والاضطراب، بينما القرآن نور وهدى وانسجام، يزكي النفوس ويهدي العقول إلى سواء السبيل.

أما السنة والسيرة، فهما شاهدان صادقان على نبوته ﷺ بما لا يُحصى من دلائل الصدق والمعجزات.

ولذلك سأنقل هذه الخلاصة التي ذكرتها في مقال تحت عنوان: (**الغيبيات... البرهان الذي لا يسقط**)

"إذا تأملنا القرآن العظيم، وفي السنة المطهرة، سنجد أن غالبية موضوعاته تتعلق بعالم الغيب، أي: ما لا يعرفه الإنسان ولا أهل زمانه.

والغيب في القرآن نوعان رئيسيان:

.١غيب مطلق: وهو الغيب الذي اختصّ الله تعالى بعلمه وحده، فلا يحيط به عقلٌ بشريّ مهما بلغ، ولا تصل إليه تجربة، ولا يكشفه رصد، ولا يُعرَف إلا بخبرٍ صادقٍ من الله عزّ وجلّ.

ويدخل في هذا الغيب: ذات الله سبحانه وتعالى، وأسماؤه وصفاته كما عرّف بها نفسه، وتفاصيل اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وأحوال الجنة والنار، وحقائق الملائكة، والوحي، والنبوة.

واللافت هنا — وهو موضع الإعجاز— أن القرآن حين تكلّم عن هذا الغيب المطلق، تكلّم عنه بمنتهى الاتساق، دون تناقض، ودون اضطراب، ودون تخبّطٍ ، على عكس ما نجده في كلّ محاولات البشر حين يتجرؤون على الحديث عن الإله، أو الغيب الأعلى؛ إذ لا يخرج كلامهم إلا خليطًا من الأساطير، والتناقضات، والتصورات البشرية القاصرة.

٢.غيب مرحلي: وهو الغيب الذي لم يكن معلومًا للناس وقت نزول الوحي، ثم كُشف لهم على مراحل زمنية، إمّا بتحقق وقوعه، أو بتقدّم المعرفة البشرية، أو بانكشاف آثاره مع مرور الزمن. وقد جاء في القرآن الكريم بصور متعددة، منها: غيب ماضٍ: أخبار عن وقائع تاريخية وأمم سابقة لم يكن للعرب علمٌ بها، ولم تُعرف تفاصيلها ولا ثبتت صحتها إلا بعد قرون، عبر البحث الأثري والدراسات التاريخية الحديثة.

غيب مستقبلي: إخبار دقيق عن أحداث ستقع في المستقبل، ثم وقعت وتحققت كما أخبر بها القرآن الكريم والسنة المطهّرة، دون زيادة أو نقصان.

الغيب الكوني المشهود لاحقًا (الإعجاز العلمي): هو ما تضمّنه القرآن الكريم من إشارات إلى سنن كونية وحقائق علمية تتعلّق بخلق الإنسان، ونشأة الكون، والبحار، والنبات، وقوانين الحياة، وهي حقائق لم تكن معروفة للبشر وقت نزول القرآن، ثم تكشّف معناها مع تطوّر المعرفة العلمية، دون أن يتعارض ذلك مع أي نصٍّ قرآني.

وهكذا... نجد أن القرآن الكريم جمع بين الغيب المطلق الذي لا يُنال إلا بالوحي، والغيب المرحلي الذي يكشف صدق الوحي مع مرور الزمن، في كتاب واحد متماسك، بلا تناقض، ولا اضطراب، ولا خلل.

ولهذا، كان التحدي الإعجازي للقرآن قائمًا، ومتجددًا، وفي أعلى درجاته على الإطلاق.

والآن... ركّز معي في المثال التالي، لأنه يوضح حجم هذا الإعجاز بصورة عملية واقعية لا تقبل الجدل:

تخيّل أن تأتي لأي إنسان في هذا العالم، وتقول له: "أنا سأعطيك تكليفًا عجيبًا: اكتب لي كتابًا ضخمًا، يقارب ٦٠٠٠ صفحة، ويكون فيه كل هذه الأنواع من الغيب:

غيب مطلق: مثل اليوم الآخر، تفاصيل الجنة والنار، أحوال الملائكة، مشاهد القيامة، بل الأعظم من ذلك: أن تصف الله عز وجل وصفًا كاملًا يليق بجلاله وجماله.

غيب مرحلي مستقبلي: تسجّل فيه نبوءات دقيقة ستقع بعد وفاتك، وتتحقق حرفيًا كما أخبرت بها،

غيب مرحلي ماضٍ: تكتب فيه أحداثًا تاريخية لم يكن لقومك أي علم بها، ولا وثائق مدونة، ولا مخطوطات تحفظها.

ثم أضف إلى ذلك: أن تذكر في هذا الكتاب معلومات دقيقة عن: خلق الإنسان، والسماء، والأرض، والجبال، والبحار، والنبات، والكون...

وكل ما تكتبه لا يتعارض مع أي حقيقة علمية قطعية، رغم أنك تعيش في بيئة تملؤها الأساطير والخرافات.

وليس هذا فقط... بل يجب أن يخوض هذا الكتاب مواجهة فكرية شاملة، مع جميع الخصوم العقائديين، ليُبيّن الحق المبين للناس:

- فيُحاجج أهل الكتاب بالحجة والبرهان، ويكشف تحريفاتهم بالتفصيل، ويقيم عليهم الحجة.
- ويُفحم المشركين والكافرين، فيُفكك أباطيلهم من الجذور، ويهدم ما بنوه من خرافات، وهم في أشد حالات العداء لك، ويحاربون دعوتك بشراسة.

ومع كل هذا الصراع العقائدي العنيف، لا يفقد كتابك صفاءه ولا اتزانه... بل يظل مشرقًا بالرحمة واضحًا في حجّته، يأخذ بيد السامع – مهما كان مخالفًا – بقلبه وعقله، ويقوده برفق وصدق إلى الله تعالى، بأقوى بيان، وأوضح حجة... وذلك رغم أنك في موضع خصومة وجدال !

وليس هذا فحسب... بل يقدّم هذا الكتاب – في الوقت نفسه – أعمق الإجابات عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي حيّرت البشرية عبر القرون: من أنا؟ من أين جئت؟ لماذا أعيش؟ ما الغاية من وجودي؟ وأين سأذهب بعد الموت؟

وهي الأسئلة التي عجز كبار الفلاسفة والمفكرين عن تقديم إجابات يقينية ومرضية لها، رغم محاولاتهم المتكررة عبر آلاف السنين.

بل أزيدك... أن يتضمن هذا الكتاب تشريعًا شاملًا، متوازنًا، يصلح لكل الناس، في كل زمان ومكان، يحقق العدالة والرحمة كما يتضمّن إشاراتٍ إعجازيةً إلى سننٍ كونيةٍ ثابتة، وصراعٍ أبديٍّ بين الحقّ والباطل، ووصفًا دقيقًا لطبائعِ أقوامٍ تتكرّر صفاتهم في كلّ العصور —— كاليهود والمنافقين والطغاة —— ليبقى هذا الكتاب شاهدًا على سنن الله في النفس والمجتمع والتاريخ.

ولا تنسَ: أنك ستقوم بكل هذا وأنت تزعم الكذب على الله! على خالقك ورازقك ومدبّر أمرك! تزعم أن هذا الكتاب وحيٌ من عنده، وأنه أرسلك للناس، وهو لم يرسلك.

وهذا من أعظم أنواع الكذب على الإطلاق: الكذب على الله عزّ وجلّ.

ثم إنك، بذلك، تكذب على قومك، وعلى أهلك، وعلى أصحابك، في أخطر قضية وجودية يمكن أن تُطرح على الإنسان.

ومع ذلك كلّه، لا تُفضَح، ولا تُكشَف، ولا تتضارب رواياتك أبدًا! بل تعيش بين قومك حياةً واقعية عملية لا يمكن تزويرها: مبتلًى، مهاجرًا، مجاهدًا، ناصحًا، مربيًا، ومعلّمًا لأصحابك.

ثم يخرج هؤلاء الذين ربّيتهم من بعدك قادةً للأمم، وخيرَ جيلٍ عرفتْه البشرية، ملأ الله بهم الأرض عدلًا ورحمة، وغيّروا مجرى التاريخ في زمنٍ قصير.

والأدهى من ذلك كلّه : أنك ستكتب هذا الكتاب وأنت أمّي، لا تقرأ ولا تكتب، تعيش في بيئةٍ أمّية لا تعرف تلك العلوم، ولا تملك أدوات هذا البيان أصلًا.

ومع ذلك، يخرج هذا الكتاب بأعلى مستوى لغوي وبياني عرفته البشرية، متحدّيًا فصحاء العرب وبلغاءهم وشعراءهم، بل متجاوزًا إيّاهم إلى تحدٍّ مفتوحٍ للإنسانية كلّها: أن يجتمعوا جميعًا ويأتوا ولو بسورةٍ واحدةٍ من مثله! ويمضي أكثر من أربعة عشر قرنًا، وتتعاقب الأمم، وتتطوّر اللغات، وتتبدّل الحضارات، ولا يزال التحدّي قائمًا، ولا يزال العجز واحدًا: لا أحد يأتي بمثله... لا في الماضي، ولا في الحاضر.

ذلك هو التحدّي القرآني، الذي يكشف وجهًا من أوجه الإعجاز القرآني في أوضح صوره، وأقواها حجّة، وأبقاها أثرًا عبر الزمان

والنتيجة الحتمية: لو حاول أيُّ إنسانٍ أن يكتب صفحةً واحدةً على هذا النمط، جامعًا فيها كلَّ ما ذُكِر آنفًا، فلن تكون تلك الصفحة إلا مليئةً بالتناقضات، والخرافات، والزيف، والسخف؛ ذلك أنّنا جميعًا نعرف أساليب الكذّابين والدجّالين حين يتحدّثون عن الغيب بكلّ

أنواعه، وفي مقدّمة ذلك حديثهم عن أسماء الله وصفاته، ومهما حاولوا الإتقان أو التزيين، فإن آثار الكذب، والاضطراب، والضعف تفضحهم منذ اللحظة الأولى.

ولهذا، لا نستغرب أبدًا أن يكون التحدي القرآني حاسمًا، قاطعًا، ومقرونًا بالوعيد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤) "

ومن هنا يمكن أن نلخّص الإعجاز القرآني في حقيقةٍ واضحة لا تحتمل اللبس: أنّ القرآن كتابٌ جمع ما لا يمكن أن يجتمع في كتابٍ بشريٍّ واحد؛ هو كتاب هداية، يخاطب القلب قبل العقل، فيأخذ بيد الإنسان — أيًّا كان موضعه أو زمانه — إلى الله تعالى، فيعرّفه به، ويوقظ فطرته، ويهدي ضميره، ويقيمه على الصراط المستقيم.

وهو في الوقت نفسه كتاب معجزة، قائمٌ بذاته، متفرّدٌ في بيانه، محكمٌ في نظمه، متّسقٌ في معانيه، باقٍ بتحدّيه، أبهر العقول، وأعجز البلغاء، وأقام الحجة على الإنس والجنّ عبر القرون، دون أن يبهت أثره أو يضعف سلطانه.

وهو — فوق ذلك كلّه — كتاب تشريعٍ شامل، يضع للإنسان منهج حياته كاملًا: ينظّم علاقته بربّه، وبنفسه، وبغيره، وبالمجتمع، وبالدولة، بل وبالإنسانية جمعاء؛ تشريعٌ يضبط أدقّ تفاصيل السلوك الإنساني، من أعظم قضايا الحكم والعلاقات الدولية، إلى أخصّ شؤون الأسرة، وحقوق الزوجين، وآداب الحياة الخاصة.

فجمع القرآن — على نحوٍ يستحيل على البشر — أولًا بين الهداية والتعريف بالله، وهي المقصد الأساس الذي أُنزل من أجله، ثم بين المعجزة القائمة بذاتها، تثبيتًا لهذه الهداية وإقامةً للحجة، ثم بين التشريع العادل الصالح لكل زمان ومكان، ليُترجِم الهداية إلى واقعٍ عمليٍّ في حياة الناس.

وهذا الجمع وحده كافٍ ليقطع بأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون نتاجَ من يكذب على الله، وإنما هو — كما أعلن عن نفسه — كلامُ اللهِ ربِّ العالمين ، كما أن هذا الإتقان في البناء والهداية والتشريع، يشير في ذاته إشارةً عقليةً قوية إلى وجود خالقٍ حكيمٍ عليم، أودع في هذا الوحي ما يهدي العقول والقلوب معًا.

خلاصة (التعامل مع الشبهات): باختصار، ولله الحمد والمنّة، نحن أمام بنيانٍ إيمانيّ شامخ، أُسِّس على آلاف البراهين القطعية، في الكون، وفي النفس، وفي الوحي، تشهد كلها على وجود الله، وربانية القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ.

فلا يجوز لعاقل أن يُسلم هذا البنيان المنيع لريح شبهةٍ عابرة، أو فتنةٍ طارئة، أو تساؤلٍ لم يُحسن البحث فيه.

الشبهة مهما بدت كبيرة، فإنها أمام هذا اليقين ليست إلا كنفخة هواء ضعيفة لا تزعزع صخرة رسخت في أعماق الأرض.

ثلاث وقفات ضرورية في مسألة الشبهات

ونقف هنا ثلاث وقفاتٍ ضرورية في طريق التعامل مع الشبهات، هي بمثابة الدرع الواقية للمؤمن، يحتمي بها قلبه وعقله من الاضطراب والزلل:

الوقفة الأولى: طلبُ العلم

إن العلمَ من أعظم وسائل التقرب إلى الله، بل هو مقدَّم على كثيرٍ من النوافل؛ لأن به تُعرَف الحقائق، وبه يُدفَع الباطل، وبه يزداد الإيمان رسوخًا ويقينًا.

فالعلم هو مفتاحُ الثبات، وسلاحُ المؤمن في مواجهة التيه والشك، وهو النورُ الذي يبدّد ظلمات الجهل والضلال.

تأمّل قوله تعالى، إذ لم يأمر نبيَّه ﷺ أن يسأله الزيادة في شيءٍ من الدنيا — لا مالٍ ولا جاهٍ ولا سلطان — بل في العلم وحده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]

وما أشدَّ حاجتنا في هذا الزمان — زمنِ الفتن وتدفّق المعلومات — إلى التمسّك بهذا النور الرباني، والسعي إلى طلب العلم الصحيح المقرون بالإيمان والتواضع، لا العلم المجرّد الذي يورث كِبرًا وغرورًا.

وكلما ازداد اطّلاعُ الإنسان على عجائب الكون، وتأمّل ما فيه من جمالٍ وإحكام، وتجاوز القشور إلى دقائق النظام؛ ازداد إيمانًا بخالقه، وازداد يقينًا بحكمته وعظمته وكمال صفاته.

وفي هذا ينقل لنا سبنسر عن هرشل قوله: "كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالقٍ أزليّ، لا حدّ لقدرته ولا نهاية؛ فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم... وهو صرحُ عظمةِ الله وحده."

ويقول سبنسر أيضًا : "إن العالمَ الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتكوّن من الأكسجين والهيدروجين بنسبةٍ مخصوصة — بحيث لو اختلّت لصار الشيءُ شيئًا آخر غير الماء — ليُدرِك عظمةَ الخالق وقدرته، وحكمتَه وعلمَه الواسع، أشدَّ إدراكًا ممن لا يرى فيها إلا نقطة ماءٍ فحسب. وكذلك العالمُ الذي يتأمّل قطعة البَرَد وما فيها من جمال الهندسة ودقة التقسيم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطرٌ تجمّد من شدّة البرد«.انتهي

الوقفة الثانية: معرفة حدود نفسك كمخلوقٍ ضعيف واللجوء إلى الله وطلب الهداية

من أدرك حقيقة نفسه علم أنه مخلوقٌ محدود، لا يملك من العلم إلا القليل، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهذا وحده كافٍ ليكسر وهم الاستغناء ويزرع في القلب التواضع. فانظر كيف يتبدّل علم البشر عبر الزمن، وكيف يعترف أهل الاختصاص أنفسهم أن ما نجهله عن الكون أعظم بكثير مما نعلم، فكيف يتكبر مخلوقٌ علمه محدود، في عالمٍ لا يزال يكتشف أسراره؟

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فالمؤمن الذي يعرف حدوده لا يغتر بعلمه، بل يستمر في السعي للعلم والهدى، ويدرك أن المحدود النسبي لا يساوي شيئًا أمام علم الله المطلق، فتكون تواضعه وخضوعه طريقه إلى الثبات والنور.

ولهذا وصف الله الراسخين في العلم بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) هؤلاء هم – بحق – أولو الألباب، الذين جمعوا بين العلم والإيمان، وبين العقل والخشوع، فلم يزدهم العلم إلا تواضعًا وخشية.

ومن تواضع لله وادرك حدوده، كان على يقين أن قلبه بحاجة دائمة للهداية، فدعاؤه يكون خالصًا:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)

ولهذا ترى إمام الموحدين إبراهيم خليل الرحمن –الذي حطّم الأصنام بيديه – يقف خاشعًا يدعو: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم ٣٥) ، بل سيّد الخلق ﷺ، المعصوم المؤيَّد، يدعو ربه دائمًا: "اللهم ي مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك" صحيح الترمزي .

وفي المقابل، يحذر القرآن من الكِبر الذي يفسد القلب ويغلق أبواب الهداية، ويعرض لنا القرآن نماذج مخيفة لأناس أُوتوا من العلم والآيات ما لم يُؤتَ غيرهم، ثم أعرضوا عنها وتكبّروا، فكانت عاقبتهم الخذلان.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] لقد حمل هذا الرجل من البيّنات ما يكفي ليهديه العمر كله، لكنه انسَلَخ منها بإرادته؛ فانقلب من النور إلى الظلمة، ومن الهداية إلى الغواية.

وهكذا يفعل الكِبر بصاحبه: يغلق عليه باب الفهم والهدى، ولو رأى الآيات رأي العين.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]

وقال أيضًا في التحذير من الكِبر: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] فالكِبر آفة قاتلة، يحجب الله بها العبد عن الحق وإن كان أمام عينيه.

فالحقيقة التي لا مهرب منها: أنك مخلوقٌ ضعيف، لا يثبت قلبك إلا بالله، ولا يهتدي عقلك إلا بنوره، ولا ينجو الإنسان من الكِبر والضلال إلا إذا لزم باب التواضع، ولجأ إلى الله طلبًا للهداية في كل حين.

الوقفة الثالثه: ضبط الشهوات وعدم الانسياق وراءها

أما الوقفة الثالثه فهي من أهم الوقفات، لأنها تمسّ فتنةً عظيمة يعيشها شباب هذا العصر : فتنة الشهوات، وفي مقدمتها الانغماس في الإباحية وما يصاحبها من نظرٍ محرم وإدمانٍ يفسد القلب.

هذه الفتنة لا تفسد الأخلاق فقط، بل تعبث بالفطرة، وتشتت العقل، وتضعف الإرادة، حتى يشعر الإنسان أن قلبه مُنهَك، لا يثبت على الحق، ولا يجد للطاعة حلاوة.

والأطباء والباحثون اليوم يتحدثون بصراحة: إن أثر الإباحية على النفس أخطر من أثر المخدرات؛ لأنها لا تضرب الجسد فقط، بل تضرب مركز التمييز في الإنسان... تضرب عقله وقلبه معًا، وإذا فسد القلب واضطرب العقل، أصبح الإنسان أقرب للوقوع في الشبهات، وأبعد عن نور الله.

وهذا الكلام ليس نظريًا، بل واقع نراه كل يوم في حياة الشباب.

كم من شاب تغيّرت طباعه، وضعفت إرادته، وانطفأ نور قلبه بسبب هذه الفتنة... ومن أراد القرب من الله حقًّا، فلا بد أن يوقن أن التخلّص منها خطوة أساسية في طريق الاستقامة.

وقد قال العلماء قديمًا :**التخلية قبل التحلية**؛ أي: تطهير القلب من الأدران أولًا، ليتهيأ لاستقبال النور والإيمان.

ومن جاهد نفسه في ترك المعصية، أعانه الله وبدّل ضعفه قوة، وفتح له من أبواب الفهم والثبات ما لم يكن يتصوّره.

ولا بد من التنبيه إلى أن كثيرًا من الشبهات الفكرية التي يقع فيها الشباب ليست دائمًا نتيجة بحثٍ أو اقتناع، بل قد تكون ثمرة قلبٍ أثقلته الشهوة، حتى ضعف صفاؤه، فلم يعد يرى الحق كما كان يراه من قبل؛ فكلما غلب الهوى على القلب، خفت نور البصيرة، واضطرب ميزان الفهم.

صحيح أن الشهوات كثيرة—كالزنى، والخمر، وكل ما شابه ذلك—لكن في زماننا تبقى الإباحية أخطرها؛ لأنها سهلة الوصول، شديدة التأثير، وتستهدف أضعف غريزة في الإنسان بلا حواجز.

وما يلحق بها من نظرٍ للعري، وصور ومقاطع ومنشورات، ومسلسلات تُطبع الفاحشة... كل هذا يحمل نفس الأثر :يطفئ نور القلب، ويهدم الحياء، ويجعل النفس أقرب للشك والانحراف.

ولذلك أوضح نقطةً مهمّة في هذه المسألة: إن كثيرًا مما يسمّى اليوم "إلحادًا" ليس إلحاد عقلٍ وفكر، بل هو — كما قال بعض المفكرين — "**إلحاد بطنٍ وفرج؛ لا عقلٍ وفكر.**" فالإنسان حين تغمره الشهوات، ويثقل قلبه بالمعاصي، تنطمس بصيرته، ولا يعود ينظر للكون بعين الفطرة التي فُطر عليها.

فنحن نعلم بداهةً — قبل أي تعقيد فلسفي — أن هذا الكون بتناسقه العجيب وجماله الباهر ونظامه الرياضي الدقيق، يدل دلالةً لا لبس فيها على الخالق العظيم.

وقد جاء رجل إلى أحد السلف –رحمه الله– فقال له: يا إمام، دلّني على وجود الخالق !

فقال له الإمام :أخبرني عن سفينةٍ في البحر، تسير وحدها بلا قائدٍ ولا ملاح، تحمل البضائع وتذهب وتجيء — أيمكن هذا؟ قال الرجل: لا، هذا محال! فقال الإمام :فكيف بهذا الكون العظيم، بسمائه وأرضه، بشمسه وقمره، بليلٍ ونهارٍ، يسير بلا خالق ولا مدبّر؟ فبهت الرجل وأقرّ بوجود الله.

وهكذا، فالإيمان بالله أمرٌ فطريّ مغروس في النفس، تشهد به القلوب السليمة والعقول المستقيمة على مرّ العصور، لكن ما حدث في زماننا أن الانغماس في الشهوات — من زنا وخمر وإباحية — أفسد الفطرة، وأظلم البصيرة، فترك كثير من الناس الدين لا لأن عندهم "برهانًا"، بل لأن الدين يذكّرهم بما يفرّون منه، فيبحثون عن فلسفات تبرّر سقوطهم أمام أهوائهم.

ثم ظهر عاملٌ آخر زاد هذا الانحراف اشتعالًا :الجراح الثقيلة التي خلّفها الماضي الديني في أوروبا. فقد رأى الغرب كيف **كبّلت الكنيسة العقول، وحاربت العلم، ومنعت الناس من الطيّبات ومساندتها أحيانًا للظلم والاستبداد،** فكانت النتيجة ردّة فعل عنيفة اندفعوا فيها إلى الطرف المقابل تمامًا ...اندفاعًا فقد توازنه.

فكفروا بالخالق، وأنكروا رسل الله جميعًا!

مع أن المفترض — لو كانوا منصفين — ألا يهربوا من الدين كله، بل يغيّروا توجّههم عن الكنيسة وحدها، **ثم يبحثوا عن الحق، بدل أن يصطدموا ببديهيات العقل والفطرة حين ألحدوا.**

ولو أنهم نظروا نظرة عادلة إلى الإسلام كما هو — دينًا نقيًا بأصوله وكليّاته — لوجدوه لا يقيّد العقل، ولا يحارب العلم، بل يدعو إليه ويجعله من أجلّ العبادات، ولوجدوا أنه لا يحرّم الطيّبات، ولا يجعل بين العبد وربه واسطة، وأنه دين ينسجم مع الفطرة، ويقوم على الرحمة والعدل والوسطية.

جاء الإسلام ليحرّر الإنسان من عبودية هواه، ليصفو قلبه، ويستقيم عقله، ويتوجه بروحه إلى الله وحده.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

وبذلك ندرك أن الثبات أمام الشبهات لا يُنال بالتمنّي، بل يقوم على علمٌ نافع يُبصّر الإنسان بالحق. وتواضعٌ صادق يعرف به الإنسان قدره أمام خالقه، فلا يغترّ بعقله،وهدايةٌ ربانية يلقيها الله في قلب من أخلص له ، وضبطٌ للشهوات حتى لا يغلب الهوى نور العقل،فالمؤمن الحق

يبني إيمانه على أساسٍ متين: علم وبصيرة وتقوى ورضوان لا على ظنون، ولا على تقليد أعمى، ولا على عاطفة عابرة.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: ١٠٩) ، فالإيمان الراسخ لا تهزّه الأسئلة، ولا تُربكه الشبهات؛ لأنه مستند إلى يقينٍ ثابت، ونورٍ لا ينطفئ، أما من ترك الأساس، واستسلم للهوى، فإن أول شبهة تهدم بنيانه، فيسقط كما يسقط الجرف الهار في جهنّم... والعياذ بالله.

***

خاتمه الرحلة
البراهين واضحة بين يديك ؟!

في نهاية هذه الرحلة، تجلّت لنا الآيات بوضوح، وانكشف خواء الإلحاد وظلاله الزائلة؛ فقد ادّعى العقل لكنه عادى البديهيات، وتغنّى بالعلم ثم أغلق عينيه عن الحقائق التي تهتف باسم خالق حكيم...

ثم اسمح لي أن نتفكر معاً، ونتدبر الحقائق القادمة بعمق وتأمل:

- هل ما زلت تقرّ أن تُربة الأرض أخرجت الإنسان بكل هذا التعقيد؟
- هل ما زلت ترى أن الذرات العشوائية كتبت بترتيب دقيق الشيفرة الوراثية كما تُكتب آلاف الكتب الطبية المتخصصة؟
- هل ما زلت تنكر وجود الإرادة الحرة وتراها "وهمًا"، بينما تمارسها في كل قرار تتخذه الآن؟
- هل ترى أن العقل الواعي الذي صنع الأجهزة واخترع الآلات يمكن أن ينشأ وحده مع الوقت؟
- وهل نسيت أن الوقت نفسه يُبلي النظام لا يخلقه؟
- وهل الرحمة التي في قلب أم تجاه طفلها هي مجرد وهم كيميائي أيضًا؟
- وهل تساءلت لماذا تلجأ إلى الله الذي تنكره في لحظة شدتك؟

وليس الإعجاز في فردٍ واحد فحسب، بل الأعجب أن ترى الزوجية ممتدة في أرجاء الكون كله...

ذكرٌ وأنثى، موجبٌ وسالب، ليلٌ ونهار، سماءٌ وأرض، ماءٌ ويابس.

أما في الإنسان، فالمشهد أعمق وأعجب: فما بالك بذكرٍ وأنثى يُوجدان معًا، في اللحظة نفسها، بجهازٍ تناسلي متكامل، وهُرمونات متوازنة، وبُنية نفسية وجسدية تجعل كُلًّا منهما مُهيأً للآخر؟ فهل يُعقل أن تُنشئ الصدفة وحدها هذا التوازن الدقيق: رجل وامرأة، متكاملان جسديًا وبيولوجيًا ونفسيًا، فإذا اجتمعا أُخرج منهما جيل جديد يحمل الشيفرة نفسها، ويواصل رحلة الحياة؟

ثم مَن الذي هدى الخلية الأولى، وسخّر لها القوانين، وألهمها المسير في ظلمات الرحم، لتنقسم وتتشكل من «نطفة أمشاج» حتى تصير أعقد مخلوق على وجه الأرض؟ إنه الله جلّ

شأنه، الذي خلق وقدّر، وأحكم فأبدع، وجعل من هذه البداية البسيطة رحلةً مدهشة تنتهي بإنسانٍ عاقلٍ مدرك.

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

واستكمالًا لبرهان الإلهام والتعليم في الخلية الأولى للإنسان، انتقلنا إلى عالم الحيوان والنبات، وهو عالم زاخر بالعجائب التي لا تُحصى، كل تفصيلة فيه تحمل بصمة الإلهام الإلهي والتعليم الرباني. وما عرضناه ليس إلا غيضًا من فيض:

- فمن الذي علّم زهرة الأوركيد أن تتنكّر في هيئة أنثى النحل لتخدع الذكور وتستدرجهم للتلقيح؟
- ومن أبدع زهرة المطرقة، هذه المعادلة الهندسية العجيبة التي حيّرت العلماء؟
- ومن أخرج اليعسوب، الطيّار العسكري المعجزة بقدراته الفائقة على المناورة في الجو؟
- ومن أبدع عنكبوت الأوركيد، فنان التمويه القاتل الذي يتقن فن الخداع؟
- ومن أعطى النمل عبقرية "الإنترنت البيولوجي" ليتواصل ويتعاون بدقة مذهلة؟
- ومن علّم السمكة القنّاصة قوانين فيزياء الانكسار لتصيب فريستها تحت الماء بلا خطأ؟
- ومن أوحى للنحلة أن تسلك سلوكًا رياضيًا معقّدًا يحلّ أعقد المسائل في هندسة خلاياها ورحلاتها؟

ثم نرفع أعيننا عن الكائنات، وننظر في صمت إلى هذا الكون الفسيح، فنسأل أنفسنا: من أين بدأ؟ وكيف خرج؟

ثم نعود نسأل العقل والعِلم معًا: أليس لهذا الكون بداية؟ ألم يعترف العلم أنه خرج من العدم؟ فنسأل بكل صدق: أفيخرج الشيء من اللاشيء؟ أيُعقل أن ينبثق هذا النظام المذهل من العدم؟!

ثم نظرنا في نظام الكون، فلم نجده فقط منظمًا أو متناسقًا، بل وجدناه مفهومًا، يمكن لعقل الإنسان أن يفهمه ويُدوّنه، بل وأن يبني عليه حضارة كاملة.

فهل هذا "الكون المفهوم" صدفة؟ كتاب مكتوب بلغة الذرات والقوانين، ونحن العقول التي تقرأه وتفهم معانيه؟ أيمكن أن يكون هذا كله خرج من "العدم"؟

ألا يذكّرك التكامل بين "العقل" و"الكون" بالتكامل بين "الذكر" و"الأنثى"؟ لكن على مستوى أعقد وأعمق وأجمل، وكأن كليهما مخلوق من نفس "المشكاة." العقل مُهيَّأ لفهم الكون،

والكون مكتوب بلغة يفهمها العقل: قفل ومفتاح، مُتقابلان متناسقان، ينطبقان على بعض بدقة لا تعرف العشوائية إليها طريقًا.

هل يُعقل أن يكون كل هذا مجرد صدفة؟ أم أنه الخلق بعينه؟ والتدبير بحكمته؟ والقصد من العليم الخبير؟

ولم يكتفِ الكون بذلك، بل وجدناه معدًّا بدقة لأجل حياتنا، كأنه يعرفنا: أعدّ كل شيء قبل أن نأتي بموازين محسوبة، ودرجات حرارة مضبوطة، ومسافات فلكية محسوبة.

وهناك زوجية أخرى أوضح: بين احتياجات الجسد المادية من طعام وشراب وهواء ونور، وبين وفرتها في الكون بتكامل مذهل.

ثم الأعجب والأرقى: أن الزوجية لا تقف عند حدود البقاء المادي أو الفهم العقلي، بل تمتد إلى الذوق والروح، بين "الكون الجميل" و"النفس التي تتذوّق هذا الجمال."

فالإنسان لا يكتفي بالخبز والماء، بل يبحث عن الألوان التي تُبهجه، والأصوات التي تُسعده، والمشاهد التي تُحرّك وجدانه، فإذا به يجد كونًا مزدانًا باللوحات البديعة: سماء مرصعة بالنجوم، غروب يذيب الألوان، أزهار تتفتح بأشكال وألوان مدهشة، وأصوات عذبة من زقزقة الطيور إلى خرير الماء، وكأن الكون يقول له: "لم أُخلق فقط لغذاء جسدك... بل لبهجة روحك أيضًا".

وهذا التناسق العجيب بين حاجة الإنسان للجمال، ووجود هذا الجمال في الكون من حوله، ليس أمرًا عابرًا؛ بل يدل على انسجام عميق بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه ، فهذا التكامل بين المادة والروح، وبين الإحساس والجمال، يشير إلى أن هذا الوجود لم يُترك عبثًا، بل هو قائم على حكمةٍ وقصد، ومن هنا يظهر أن وراء هذا الكون خالقًا حكيمًا عليمًا، أودع فيه هذا الجمال، وجعل الإنسان قادرًا على إدراكه والتأثر به، ليكون ذلك طريقًا لمعرفة ربه والتقرّب إليه.

ثم عدنا في نهاية الرحلة لنقارن بين الإيمان الذي اخترناه بعقولنا وقلوبنا، فوجدنا أنفسنا مكرمين، خلفاء لله في أرضه، يعدنا سبحانه بنعيم لا يفنى، إن عبدناه وشكرناه، وهو أهل الشكر والمجد والثناء سبحانه!

ثم نظرنا إلى الإلحاد، فإذا هو يخبرك أنك مجرد وسخ كيميائي، لا قيمة لك، لا معنى، لا هدف، وأن مصيرك الفناء! وأنا أعلم .... أعلم أن الفناء مؤلم لك، لكن بوسعك أن تعمل عقلك، وتعود إلى النور، إلى اليقين، إلى النعيم الأبدي.

لكن بقيت لي نصيحة أخيرة لك: إن أصررت على عنادك، فمصيرك الحقيقي ليس الفناء كما تظن بل هو العذاب الأبدي.

فتذكّر: هي حياة قصيرة، إما أن تحلّق إلى خالقك فتنعَم في جنات الخلود، وإما أن تختار العمى عن النور فتُطرَد من رحمته إلى عدله: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

فقط أعمل عقلك، وتدبّر في الكون، وتأمل في نفسك... ثم فكّر بصدق وتجرد. وأعدك: إن تحررت من الهوى ستصل لا محالة.

وإن صدقت في بحثك، وأعملت عقلك بإنصاف، فستدرك أن الدين ليس ترفًا فكريًّا، بل ضرورة وجودية تمنح الإنسان العدل، والمعنى، والاتزان الأخلاقي؛ فحينها تتهيأ نفسك لاستقبال الإيمان الحقيقي؛ الإيمان الذي يحلّق بك إلى خالقك بقلبك وعقلك معًا، حيث يلتقي العقل بالفطرة، والعِلم بالوجدان، فتتناغم أنت والكون في اتجاه واحد جميل... إلى الله.

وهنا تتجلّى عظمة الإسلام: فهو لا يقدّم للإنسان مجرد عقيدة نظرية جامدة تنحصر في التصورات الذهنية، بل يقدّم **منهج حياة متكامل**؛ منهج يجمع بين قوة البرهان العقلي، وصفاء الفطرة الإنسانية، وعبادة الله وحده بلا شريك؛ إنه دين يخاطب العقل بما يقنعه، ويُشبِع الروح بما يطمئنها، ويهدي السلوك بما يقومه، وهذا الجمع الفريد هو الذي يمنح الإنسان سكينة داخلية لا تعصف بها العواصف، وطمأنينة قلبية لا تهزها تقلبات الزمان.

والتوحيد – الذي هو لبّ الإسلام – يكشف للإنسان أن كل ما في الوجود يشير إلى خالق واحد حكيم عليم، لا شريك له في ملكه، ولا وسيط بينه وبين عباده. فالكون كلّه، من أعظم المجرات إلى أدق الذرات، يسير وفق نظام واحد منسجم، صادر عن إرادة واحدة، ومن هنا فالتوحيد نور يضيء العقل والروح معًا؛ إذ يفتح للإنسان نافذة يرى من خلالها العالم على حقيقته: وحدة متكاملة تشير بأدق تفاصيلها إلى خالقها العظيم.

ولذلك، العقيدة في الإسلام ليست فكرة ذهنية مجرّدة، بل رؤية شاملة للحياة؛ يعيش فيها المؤمن مع الله، وبالله، وفي سبيل الله، في عمله وراحته، في سره وعلنه، في دنياه وأخراه.

هي عقيدة تُلزمه بالحق في كل قرار، وتوجّهه ليكون عادلًا، رحيمًا، أمينًا، وهي في الوقت نفسه جسر بين العقل والقلب؛ فلا عقل ينفصل عن الإيمان، ولا إيمان يخلو من برهان، وهي أيضًا جسر آخر بين العلم والإيمان، وبين حاجات الجسد والروح، وبين الدنيا والآخرة؛ حيث المعنى،

والهدف، والعدل، والسعي الذي لا يتوقّف... لأن النتيجة عند الله، وأجر الساعي إليه لا يضيع أبدًا، فلا تحزن، ولا تقلق على الطريق، ما دام سعيك لله عز وجل.

تأمّل قول النبي ﷺ: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها" في صحيح البخاري ، فحتى لو شارف العالم على نهايته، يبقى المؤمن متمسّكًا بالأمل، عاملًا في الخير، لأنّه يعلم أن ميزان الله لا يضيع شيئًا، وأن ما يغرسه اليوم لله، سيثمر غدًا في دار الخلود.

وهكذا يعيش المؤمن، الذي كرّس حياته لله، وجعل سبيل دينه ورفعة أمته هدفه الأعلى، في سلام داخلي وانسجام تام مع نفسه والكون من حوله، لا تناقض في إيمانه ولا صراع في تفكيره، بل تنبض حياته بسكينة القلب ووضوح العقل، وتتجلى في رؤية تشرق من حاضر الدنيا إلى بهجة الآخرة.

وفي نهاية المطاف إن اخترت طريق التوحيد، فسيناديك ربك بلطفه وكرمه:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)

فأيّ نداء أكرم من هذا النداء؟ وأي ختام أبهى من أن تكون النهاية جنةً عرضها السماوات والأرض، أُعدّت للمتقين!!

ولك أخي المسلم أغلى وصية: **تمسّك بالقرآن... فلن تضل بعده أبدًا**.

لا تثبُت القلوب في بحر الفتن إلا لمن أمسك بحبل الله المتين :القرآن الكريم.

القرآن مش مجرد كتاب، بل هو كلام الله إليك ...أنزله ليكون:

- هدايةً لك،طمأنينةً لقلبك، نورًا لطريقك، دليلًا لك حين تحتار، طُهرًا لروحك حين تتلوث، وصلةً دائمة بينك وبين ربك.

القرآن هو الحصن الحقيقي في زمن الفتن.

تذكّر قول النبي ﷺ: "إن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا» [حديث حسن].

فأي ضمان أعظم من هذا؟ أن يكون في يدك حبل موصول بالسماء، متين لا ينقطع، يثبتك وسط عواصف الفتن، ويهديك سواء السبيل.

وقد رأينا في ثنايا هذا البحث المتواضع أن أعظم براهين وجود الله مبثوثة في كتاب الله، بطريقة تخاطب القلب والعقل معًا، فتقودهما مباشرةً إلى الله سبحانه. فالقرآن ليس مجرد دليل إيماني، بل هو برهان عقلي وروحي قائم بذاته، يجمع بين نور الدليل وصفاء الهداية.

تأمل بنفسك وتدبّر إعجاز القرآن في هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ٩٥-١٠٣].

تخاطب هذه الآيات القلب والعقل معًا بأقصر طريق وأوضح بيان؛ فمشهد الحياة وهي تنبثق من الجماد، وتعاقب الليل والنهار في نظام محكم، والنجوم التي تهدي السائرين في ظلمات البر والبحر، والماء النازل من السماء ليحيي الأرض بعد موتها ويُخرج منها أرزاقًا متنوعة؛ كلها شواهد ناطقة بقدرة الخالق ووحدانيته.

ثم يلفت القرآن النظر إلى أصل الإنسان، كيف نشأ من نفس واحدة، وكيف انتقل من تراب إلى بشر عاقل مكرّم، ليكون ذلك أدعى للتفكر والشكر، وأبعد عن الغفلة والغرور.

وترتقي الآيات بالبصيرة إلى ذروة التوحيد، فتكشف عظمة الله المتفرد بجلاله، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، البديع الذي أبدع السماوات والأرض بلا مثال سابق.

إنها ومضات متتابعة تهدي الفطرة السليمة والعقل الصادق إلى الحقيقة الكبرى: أن لهذا الكون إلهًا واحدًا، عليمًا قديرًا، لطيفًا خبيرًا.

وما هذا البيان إلا بصائر من ربكم؛ من أخذ بها فقد اهتدى، ومن أعرض فإنما أعرض عن النور وهو بين يديه.

وتأمل أيضا قوله تعالي

﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۚ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٧) ﴾ سورة الروم

طلب بسيط :أن تعود فتقرأ هذه الآيات مرة أخرى، لكن هذه المرة بروح متدبّرة، وقلب حاضر، وعقل منفتح... دع نور كلماتها يتسلل إلى أعماقك، وسترى بنفسك الفرق. وهكذا هو شأن كلام الله عز وجل كلّه؛ كلما عدت إليه بصدق، ازددت به يقينًا ونورًا.

ختامًا: لا تبدأ يومك بلا قرآن!

أنت تعيش في حرب فكرية وشهوانية كل لحظة، ولا نجاة إلا بسلاح القرآن.

هو درعك من الشبهات، وسيفك ضد الشهوات، ونورك في دروب الحيرة.

اقرأه... تدبره... عش به ومعه دائما.

قال الله تعالى: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ٢].

والله ما تمسّك أحد بهذا الكتاب إلا شرح الله صدره، وملأ قلبه يقينًا، وثبّت خطاه حتى يلقاه.

وانظر لوصف الله عز وجل للقرآن في ختام سورة الشورى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

تأمل! وصفه الله بأنه روح ...وهل يقدر أحد أن يعيش بلا روح؟ فكذلك لا حياة للقلب بلا قرآن.

ووصفه بأنه نور ...فهل يسير أحد في الظلام بلا نور؟ فكذلك من أعرض عن القرآن عاش في ظلام الحيرة والضلال.

اجعل لنفسك وردًا يوميًا لا تتركه أبدًا... وادعُ دائمًا:

»اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي.«

أيّها القارئ الكريم، بعد كلّ ما تقدّم في هذه الرحلة، تذكَّر حقيقةً نَختم بها الطريق: أنَّ سرَّ الثبات، ومصدرَ النور، وأمانَ القلب في هذا المسير الطويل... هو التوكُّل على الله.

فمَن توكَّل عليه كفاه، ومَن اعتمد على سواه خذله؛ إذ لا ملجأ من الله إلا إليه، ومن تأمَّل عظمةَ الخلق، ودقّةَ النظام، وانسجامَ الكون، أيقن يقينًا جازمًا أن وراء هذا الإتقان خالقًا عليمًا قديرًا، قيّومًا على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، وإليه يُرجَع الأمر كلّه، فلا يستقيم منطق العقل، ولا تقبل فطرة الإنسان السليمة، أن يُغفِل ربَّه، ويعلّق قلبه بمخلوقٍ ضعيف، عاجزٍ عن نفسه، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، بينما الخالق وحده هو المتصرّف في كل شيء، القادر على كل شيء، المستحقّ للثقة والتوكُّل وحده.

ولهذا المعنى العظيم، يختم الله تعالى سورة هود بآيةٍ جامعةٍ مانعة، تُجسِّد حقيقة التوكّل الحقّ، فيقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] فما دام الأمر كلّه راجعًا إلى الله، فمن البدهيّ، بل من مقتضى العقل والإيمان، أن نتوكّل عليه في كل شيء.

ويؤكّد هذا المعنى ما قاله نبيّ الله موسى عليه السلام لقومه وهم في أشدّ لحظات الابتلاء: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]

وتأمّل دقّة التعبير : ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ ، كأنّ التوكّل ليس أمرًا زائدًا على الإيمان، بل هو لازمٌ من لوازمه، وثمرةٌ طبيعيّة له.

فمن آمن حقًّا بالله ربًّا وإلهًا ومدبّرًا، لا بدّ أن يعتمد عليه، ويثق به، ويفوّض أمره إليه، ولا يعلّق قلبه بغيره، فالإيمان الصادق لا يكتمل إلا بتوكّلٍ صادق، تكون فيه محبّتك وخوفك ورجاؤك وخشيتك لله وحده، لا لسواه.

ونختم فِقرة التوكّل باستكمال مشهدٍ من قصّة أبِي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ذلك المشهد الذي تتجلّى فيه حقيقة الإيمان في أبهى صورها؛ إذ لم يكن إيمانًا نظريًا مجرّدًا، بل توجّهًا كاملًا، وثقةً مطلقة، وتسليمًا لا اضطراب فيه.

فبعد أن أعلن خليلُ الرحمن براءته من الشرك، ووجّه قلبه ووجهه إلى خالقه، فنطق بكلمة التوحيد الخالدة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، ثم حاجّهم بثبات المؤمن الواثق، المتوكّل على مولاه، لا باضطراب الخائف، فقال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[الانعام ٧٨ – ٨١]** ،حقًّا... فأيُّ الفريقين أحقّ بالأمن؟

من علّق قلبه بالله وحده، أم من وزّع قلبه بين آلهةٍ زائفة، وأسبابٍ عاجزة، وبشرٍ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؟

وهنا نكون — بفضل الله ومنّته— قد بلغنا ختام هذه الرحلة، وخاتمة هذا الكتاب، وليكن مسك الختام كلمةً تختصر الطريق كلّه، وتجمع الغاية كلّها، قولَ الله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]

فلا سعادةَ حقيقية بعيدًا عن الله، ولا طمأنينةَ صادقة إلا في القرب منه؛ فالقلوب لا تهدأ، والأرواح لا تستقرّ، إلا إذا عرفت خالقها، وعادت إلى من إليه مرجعها، ونسأل ربَّنا — كما علّمنا في كتابه الكريم— أن يثبّت قلوبنا على هداه، فنقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]

***

خاتمة الكتاب

هذا ما وفّقني الله تعالى إلى جمعه وكتابته، وكان جهدي فيه متواضعًا وبحثي صادقًا، وكلماتي منبعهاالقلب.

فإن أصبت فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمني ومن وساوس الشيطان، وحسبي أنني اجتهدت ما استطعت.

وقد استعنتُ في هذه الرحلة بما يسَّره الله من أسباب ووسائل، سائلًا الله أن يجعلها عونًا على الحق، لا صارفًا عنه.

ولابد في الختام أن أوضح أمرين في هذا الكتاب، وهما كثرة الأمثلة وتكرار بعض الأفكار، وقد تعمّدت التكرار والإكثار من الأمثلة لسببين رئيسين:

١. لأن التكرار من أكثر الطرق فاعلية لترسيخ الأفكار والبراهين الأساسية في الذهن، حيث يساعد على تثبيت المعلومات وتقويتها حتى تصبح جزءًا راسخًا من الفهم والوعي.

٢. لأن قوة البراهين وكثرتها بهذا الشكل، مع التركيز والتكرار في عرضها، تجعلها محصّنة ضد الشبهات، مهما كانت، فلا يمكن لشبهة واهية أن تهدم بناءً متينًا يستند إلى أدلة متينة ومتنوعة وشاملة.

كما أن ضرب الأمثلة هو أسهل وأقرب وسيلة لتوضيح المعاني العميقة لعامة القراء، وقد نفعني هذا الأسلوب في الفهم فأحببت أن أقدمه لغيري على نفس المنوال.

وحسبي أنني اجتهدت ما استطعت، فإن وفّقني الله لنفع عبدٍ واحدٍ بهذا الكتاب، كان ذلك غاية مقصدي، مصداقًا لقول النبي ﷺ: عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لعليٍّ رضي الله عنه: "فوَاللهِ لأن يهدي اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمرِ النَّعَم" متفقٌ عليه.

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣) اللهم ثبّتنا على الإيمان، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، واجعلنا هداةً مهتدين، لا ضالّين ولا مضلّين، للتواصل مع مؤلف الكتاب على الرقم: **٢٠١٢٧٨٧٧٤٤١٨+**

والحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، على ما أنعم ويسّر، وله الفضل والمنّة وحده.